

رحلات

عبد الوهاب عزام

الرحلات الأولى

الطبعة الثانية

مطبعة الرسالة

١٣٧٠ — ١٩٥٠

بين القاهرة وحلب (*)

في أسبوعين

— ١ —

هذه قنطرة القناة والساعة عشر من مساء السبت ثامن عشر شعبان سنة ١٣٤٨ هـ (ديسمبر ١٩٣٠) . وما أكثر ما تثير القناة فى النفس من ذِكَر وما فيها من عِبر الغابر والحاضر ! عبرنا فى ثلاث دقائق وتقدمنا لتعليم جوازات السفر فشعرنا أن بين سينا ومصر حداً . لِمَ تُطلب الجوازات هنا و بيننا و بين حدود مصر بيداء فيحاء يضرب فيها القطار ساعات ؟ قلت لنفسي دعى حديث السياسة الآن وخذى الأهبــة للسفر . سمعنا ونحن ندخل المحطة أن قطارنا لا يسير إلا والساعة خمس من الصباح . وكان موعده الساعة الحادية عشرة . وكيف بسبع ساعات تمر فى انتظار السفر ؟ وكيف يُتدارك هذا التأخر فى سفرة فُصِّلت ساعاتها على مراحلها تفصيلا

(*) هذه مقالات كتبت أول عهدى بالبلاد العربية ورجالها ، وأنا أعرف اليوم عن العرب وبلادهم مايتضاءل بجانبه هذا الحديث ولكنى أبقى عليه احتفاظاً بذكرى البلاد العربية أول ما أثرت فى نفسي .

محكما ؟ كيف بانتظار ساعات سبع فى هواء بارد ومكان غير ميسَّر للراحة ؟ إن المزمع سفراً بعيداً لابد له أن يتزود الصبر ، وأن يوطن نفسه على احتمال ما يلاقيه من مكاره .

شرعنا نمشي ونتحدث ، وأوى بعضنا إلى ُمنتدىً هنا لك لشرب الشاى والقهوة حتى أقبل القطار والساعة واحدة فهرُعنا إليـه واتخذنا أمكنتنا فيه . وبعد قليل فرّقتنا الطبائع والمنازع . فمنَّا مسارع إلى النوم ، ومنا مضطجع يعدّ على القطار ساعات الانتظار ، ومنا المازح الضاحك ومنا الذاهب فى أحاديثه مذاهب توقظ النائم ، وتقطع على المفـكر مذاهب الفـكر .

و بعد لأى تحرك القطار فسار . وأصبحنا نطل على بيداء ليس فيها إلا رمال تتخللها أعشاب وأشواك ، ولـكنها سيناء ! ولله ماذا ضمنت سيناء من الخبر والعبر ; فيه الطور الذى آنس موسى من جانبه نور الهدى ، وعليها مد الزمان وجز بالغير سعيدة وشقية ، والجيوش هازمة ومهزومة ؛ تمثّل جيوش الفراعنة ذاهبة إلى الشام وآيبة أو جيوش بابل وفارس مطرودة وطاردة ، ثم جيش الإسكندر وجيوش الرومان ، ثم جيوش العرب والترك ؛ دول بعد دول ، وسطور تمحو فى صحائف الزمان سطوراً ، كما خُطَّ فى القرطاس سطر على سطر . تزاحمت الذكريات ، وترادفت العظات ، حتى أشفقتْ النفس فالتمستْ الخلاص تسرّح الطرف فى الصحراء . فلما عادت الصحراء بذكرياتها كرة أخرى هربتْ إلى حديث

الأصحاب ، وطعام الصباح ، والقطار يطوى الأرض التى تمادت بالمسافرين ، وأرهقت السائرين . وددت حينئذ أنى أقطع الصحراء على جمل مترسماً طريق المتنبي أعد المراحل التى سارها حين خرج من مصر مغاضباً كافوراً وذكرها فى قصيدته :

ألا كلّ ماشـــية الخَيْزلى فدى كل ماشية الهَـيْدبى

وقف القطار عند غزة بعيداً من البلدة . وهى تبدو على ربوة بين أشجار كثيرة . ولغزّة من حادثات سيناء نصيب موفور . ولكن الخيال الذى يشفق من التوغل فى التاريخ آثر أن يتمثل أبا نواس منشداً قصيدته التى تصف طريقه إلى الخصيب والتى يقول فيها .

طوالب بالركبان غزة هاشم وفى الفرما من حاجهن شقور

وجاء بعض الصبيان يعرض الفاكهة و بعضهم يعرض السميذ مناديا « اكسر الصفرا » يعنى « أفطر أو غيرّ ريقك » كما يقال فى مصر . وكم ضحكنا حين جاء أحدنا يحمّل هذه الكلمة ما لا تطيق من شرحه ،فيقول : إن الصبي ينادى بكسر البرتقالة الصفراء لتُعرَف جودة برتقاله . وأما البرتقالة المحمرّة فلا شك فى جودتها !

طالت وقفة القطار عند غزة ينتظر الخبر عن الطريق وقد قطعته السيول. ثم وقفنا وقفة أخرى عند « أسْدُد » وكانت السماء صحواً والهواء دفيئاً فمشينا بجانب القطار ثم انتحينا ناحية للغداء فبطشنا « بخروف مندور » خروف تزود به بعض الرفقاء محمد مندور افندى إذ ركب من محطة ميناء القمح ،

وكان إحدى فكاهات السفر . وقد شاركنا فى الطعام بعضُ المسافرين من شرقيين وأوربيين حينما رأوهامعركةفيهاللجميع متّسع . وسار القطار والساعة اثنتان بعد الظهر حتى بلغنا (اللد) وهى محطة كبيرة حديثة البناء جميلة . وهناك انتقلنا إلى القطار الذاهب إلى بيت المقدس .

سار القطار ووقف وقفات قصيرة. ثم انتهينا إلى مكان اسمه عَرطوف فلما جاوزناه سلكنا وادياً بين جبلين متقاربين ظهرا فى ألوان من البياض والحمرة والدُكنة تزيّن سفحيهما خضراء ُقليلة منثورة؛ والقطار يسير الهُوَينى شاهقاً زافراً مصعّداً قليلاً ومنحدراً ، تراه فى الظلام فى حضيض أحد الجبلين على حافة هوّة مخيفة ، ثم تراه فى حضيض الجبل الآخر على الحافة الثانية ، لاتدرى كيف تحوّل به الطريق وكلما رمى الرائى ببصره امتلأت نفسه رهبة وجلالا وإنه لمرأى جليل . والقطار دائب فى سيره بين الجبلين كالسيل يتمعّج به الوادى . ورأينا على يسارنا غاراً عالياً يقال إنه كان مباءة شمشون الجبار . وحق أنّ من يأوى إلى هذا الغار يستطيع أن يقذف بالأحجار بل يُدهْدى الصخور العظيمة فيقطع الوادى على كل سائر . طال بنا هذا الوادى وادى الصِرار وأدجى الليل فزاد المكان رهبة على رهبة حتى بلغنا بيت المقدس بعد الساعة السادسة .

وبينما نمنى أنفسنا بالمبادرة إلى الفندق للاستراحة إذا بوفد من كرام إخواننا المقدسيين ينتظرنا . أبصرنا فى مقدمة المستقبلين ذلك المحيّا المحبوب المعروف أديب العرب إسعاف بك النشاشيبى . سارع الإخوان إلينا مسلّمين

وأخبرنا إسعاف بك أن حفلاً حاشداً ينتظرنا فى «روضة المعارف» فسارعنا بالسيارات إليها . نضّر الله روضة المعارف وبارك فى أهلها الأمجاد ؛ لقد لقينا من حفاوتهم وإيناسهم ما هو جدير بنفوسهم الكريمة وأخلاقهم العظيمة . دخلنا الروضة والموسيقى تعزف بألحان مصرية ، ولقينا هناك جماعة من العلماء الأجلاء منهم الأستاذ الحسينى المفتى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى ، والشيخ خليل الخالدى . ولما اطمأن بنا المجلس خطب مدير الكلية مرحباً معرباً عما يكنه الشاميون (ولا أقول الفلسطينيون إرضاء للحق وللأستاذ النشاشيبى الذى لا يعرف إلا اسماً واحداً هو الشام لما يسمونه فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان والعلويين) لإخوانهم المصريين من الحب والولاء والإكبار والإعجاب . ثم وقف إسعاف بك ، ولله إسعاف حين يتدفق فى بيانه ، وحين يوحى إليك المعانى بألفاظه ونبراته وإشاراته ونظراته ؛ رحّب بنا الأستاذ ترحيب الأخوة بالأخوة ربطت بينهم كل الأواصر ، وأمرّت أخوّتهم كلُّ الحادثات . وأجاب الأستاذ أحمد أمين بخطبة ردت التحية بمثلها . ثم دعينا إلى الشاى فاجتمعنا عليه أخوة ينقلون الأحاديث بين الآمال والآلام ، ويرددون الفكر بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ثم انصرفنا والموسيقى تعزف بنشيد جلالة ملك مصر ثم بنشيد سعد باشا والطلبة يهتفون لمصر فيجيبهم طلبة مصر محيين الأمم العربية .

— ٢ —

ذهبنا صباح الاثنين إلى بيت لحم مولد المسيح فيما يقال . فدخلنا

كنيسة عتيقة كبيرة تقسَّمت المذاهبُ أرضها وجدرانها ، قد اتخذت كل طائفة مصلىً تستأثر به .وقد تزاحموا على الغار الذى يظن أن المسيح ولد به وعلى المكان الذى زعموا أنه مكان الميلاد من هذا الغار، فتقسموه بالأصابع حتى تنال كل طائفة نصيبها منه .

ثم سرنا إلى قرية الخليل فتصدى لنا دليل هناك وسار أمامنا إلى المسجد يتكلم عما يلقانا فى الطريق من آثار . وقد سرَّنا أن سمعناه يقول متكلما عن باب عتيق : « أحمد زكى باشا العلامة يرى كذا كذا »

مسجد الخليل بناء ضخم يصعد الداخل إليه بجانب سور رائع جثمت فيه أحجار يمتد بعضها عشرة أمتار . وقد قيل لنا إنه من بناء الرومان . وحق أن المسجد فى داخله مشيد على النسق الرومانى، وتحت المسجد سرداب فيه قبور لأنبياء بنى إسرائيل. وقد بنيت فى أرض المسجد أضرحة إزاء هذه القبور ؛ رأينا على جانبي القبلة قبرين قيل إنهما لإسحاق وزوجه. ثم سرنا إلى ناحية أشير فيها إلى قبور الخليل ويعقوب ويوسف عليهم السلام . طفنا فى أرجاء المسجد وصعدنا على السور ثم نزلنا فاجتمعنا حول قارىء دُعى ليُرتل بعض الآيات . وقد دعانا مدير أوقاف الخليل إلى مكان عمله فجلسنا قليلاً مسرورين ، ورأينا هنالك مستشفى صغيراً تعطى فيه الأدوية للفقراء فرأينا جُهد المقلّ المجتهد .

رجعنا إلي القدس بعد الظهر وذهبنا إلى المسجد الأقصى ؛ اجتزنا سوق المدينة إلى شارع يفضى إلى باب كبير وأبصرنا قبل أن نلج الباب بناء

عالياً كتب عليه « المجلس الإسلامى الأعلى » .

وظننت أن الباب يفضى إلى ساحة فى المدينة ولكن بواباً هناك منع بعضنا من التدخين ففهمنا أنه الحرم . هناك فناء عظيم تلوح فى أرجائه حجرات متفرقة وأشجار . وفى وسطه دكة عظيمة يُرقى إليها عشر درجات تقوم فى وسطها قبة جميلة رائعة يحملها جدار مثمن هى قبة الصخرة. تقدمنا إلى أحد أبواب القبة فإذا الشيخ الخالدى رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في انتظارنا ليبين لنا ما يحتاج إلى بيان . يستغرب الداخل منظر صخرة كبيرة حولها سياج من الخشب جاثمة تحت القبة التاريخية العظيمة الجميلة . وحولها أرض المسجد ويحيط بها رواق يتجلى الجمال والإبداع فى صنعته . وتحت الصخرة غار صغير يهبط إليه درجات قليلة وهو مصلًّى يلتمس الناس فيه بركة الصلاة والدعاء . وقد رأينا فى أعلاه ثقباً وأشار محدثنا إلى بلاطة فى أرض الغار إزاء هذا الثقب قال إن تحتها بئراً كانت تجتمع فيه الدماء السائلة من الثقب ، دماء القرابين التى كانت تذبح على الصخرة .

وعلى مقربة من قبة الصخرة، على هذه الدكة أبنية شادها صلاح الدين الأيوبى وخلفاؤه . منها حجرة صغيرة أخبرنا دليلنا أن السلطان صلاح الدين بات فيها ليلة يبكى ويتضرع إلى الله أن ينصره على الصليبيين ، وكان خطبهم قد اشتد عليه . فلما أصبح جاءته البشرى بالانتصار على العدو .

هبطنا من الربوة واجتزنا الساحة التي حولها إلى بناء ضخم يتقدمه رواق فيه ثلاثة أبواب كبار . ثم ولجنا إلى المكان المبارك ، إلى المسجد الأقصى

فإذا رواق مديد رفيع على جانبيه رواقان آخران . أفضي بنا الرواق الأوسط إلى محراب عجيب الصنعة بجانبه منبر عليه اسم صلاح الدين.قيل لنا إن السلطان أمر بصنعه لهذا المسجد والصليبيون مستولون على بيت المقدس.فصدّق الله ظنه واسترجع المدينة فوضع المنبر حيث قدَّر . ويتصل بأروقة المسجد جهةَ القبلة رُواقان عن اليمين والشمال؛فالذي إلي اليمين،وهو أكبرهما ، مسجد النساء احتجز عن المسجد بحاجز من الخشب.والذى إلى اليسار مصلى قيل أنه مصلّى عمر صلى فيه حين قدم بيت المقدس مصالحاً أهله . وعلى ذكر النساء أقول : إن النساء فى الشام يختلفن إلى المساجد ، وفي اسطنبول لا يخلو منهن مسجد عظيم . وهن هناك يشاركن في الجماعات حتى صلاة الجمعة وينتبذن مكاناً على حِدة خاشعات قانتات،ولكن النساء الناهضات فى مصر الداعيات إلى المساواة فى كل شيء لا يذكرن الصلاة والدين قط . فليت شعرى ما خطبكن يا نساء مصر ؟

ذهبنا إلى القنصلية المصرية إجابة لدعوة القنصل الفاضل فتناولنا الشاى وكان النشاشيبى بك ينتظرنا ليسير بنا إلى داره للعشاء ودار النشاشيبي المعمورة دار جميلة على سفح جبل الزيتون يأمر إليها إسعاف بك كلّ عالم أو منتسب إلى العلم يمرّ ببيت المقدس.وهناك على موائد جمعت عِلية القوم نعمنا بالطعام والأحاديث ثم سمرنا وسمعنا أغانىّ مصرية من الحاكية ثم عدنا إلى الفندق ولسان حالنا يقول ما قاله المتنبي حينما سئل عما رآه عند عضد الدولة فى شيراز : « ما خدمت عيناى قلبى كاليوم » .

— ٣ —

غدونا يوم الثلاثاء إلى البحر الميت وهو فى وهدة منخفضة جداً، وماؤه ملح مرّ. وهو حدّ بين مايسمونه فلسطين ومايسمونه شرق الأردن . و يصب فيه من الشمال نهر الأردن . مشينا على شاطئه ثم جلسنا نشرب القهوة وأعجَلنا ضيق الزمن فسرنا إلى أريحا . واخترقناها إلى نهر الشريعة أو الأردن حيث رأينا جسراً هنالك أحد طرفيه في فلسطين والثانى فى شرقي الأردن . ثم رجعنا شطر البيت المقدّس ونزلنا فى الطريق على عين أريحا فشربنا منها وسمعنا الغناء المصرى من حاكية ، وقد قدم إلينا أحد الشبان الماء وهو يقول : « هذا العين هى حياة أريحا كما أن النيل حياة مصر »

تركنا بيت المقدس كارهين تتلفت العيون والقلوب فيه إلى إخوان كرام ، وذكريات عظيمة ومشاهد رائعة . خرجنا والساعة ثلاث بعد الظهر نسير شطر الناصرة قرية المسيح عليه السلام ؛ سرنا في طريق جبلي معبّد. وكذلك أكثر طرق فلسطين التى مررنا بها . وترى الطريق يدور حول الجبل أو يتمعج على سفحه حتى يبلغ القمة ثم ينحدر إلى الحضيض ، والسيارات جاهدة زاحرة منجدة غائرة ، تظهر وتختفى ، تُكافّ المرتقي الصعب فما هى إلا عمزة السائق حتى تنطلق مدوّية زاحرة إلى أن تبلغ الذروة . وكم تخللت طريقاً ضيقاً وأشرفت على هوّة مخيفة .

مررنا بنابلس قبيل الغروب والسماء تمطر وإذا السيارة الأمامية تقف وينزل منها بعض أصحابنا مهرولين إلينا . قلنا ما خطبكم ؟ قال كبيرهم معربا

عن أمانىّ رفقائه : نابلس معروفة بكنافتها اللذيذة ولا بد أن نعرّج عليها . قلنا: ولكن السماء تمطر. قالوا : إنه رذاذ. قلنا: فابعثوا سائق السيارة ليسعفكم بما تريدون . قال خبيرهم : لا بد أن نأكلها فوراً وهى سخينة . ولم يكن بين الصحب و بين كنافة نابلس إلا خطَوات ومَضَغات ؛ ولكن رئيس السفر أشفق من المطر والظلام فعزم عليهم أن يرجعوا فكرّوا إلى سيارتهم آسفين نادبين أمنية قاربوها وتخيّلوها حتى امتلأت بها أعينهم وأيديهم وأفواههم . وما كل ما يتمنى المرء يدركه . تلك حادثة الكنافة وهى من أحاديث رحلتنا .

انفرجت الجبال قليلا بعد نابلس وتابعنا السير حتى بلغنا غايتنا .

بلغنا الناصرة قرية المسيح عليه السلام والساعة سبع من مساء الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان « ٢٦ ديسمبر » فنزلنا فى فندق هناك وقد بلغ منا التعب غايته ، ونشطنا قليلا بعد العشاء فاجتمعنا للسمر نتحدث بما رأينا وسمعنا في نهارنا .

غدونا نمشى في البلدة وهى صغيرة نظيفة ، ضيقة المسالك، مرصوفة بالحجارة ، يتوسط طرقها مسايل صغيرة لماء المطر — وزرنا كنيسة هناك كبيرة بنيت على مغارة يقال إنها كانت مسكن السيدة مريم وأسرتها . وهى كنيسة جميلة حسنة الهندسة ليس فيها ماشهدناه فى الكنائس الأخري من تزاحم الزينات ، وتعقد الأبنية .

— ٤ —

برحنا الناصرة قبل الظهر إلى طبرية ومررنا فى طريقنا بمرج ابن عامر ، وهو سهل فسيح ينتهى فى الشمال إلى سهل حطين الذى حطم فيه السلطان صلاح الدين الأيوبى جيوش الصليبيين يوم الخميس ٢٢ ربيع الثانى سنة ٥٨٣ (٥ يولية سنة ١١٨٧) . وعلى مقربة من طبرية رأينا قرى لليهود المهاجرين يلوح عليها الجدّة والغنى .

وطبرية مدينة صغيرة على البحيرة -- بحيرة طبرية وتسمى بحر الجليل ، وهى عذبة الماء تعترض مجرى نهر الأردن ، يفضى إليها من الشمال ، ويخرج إلى الجنوب . ويحيط بها جبال عالية تتفجر فيها ينابيع حارة تساق إلى حمامات هناك . وقد تمشينا على شاطىء البحيرة وشربنا من مائها وذكرنا المتنبى الذى يقول :

لولاكِ لم أترك البحيرةَ والغو ... رُ دفىء ومآؤها شَبِم
والموج مثل الفحول مُزبدة ... تهدر فيها وما بها قَطَم
والطير فوق الحبَاب تحسبها ... فرسانَ بُلقٍ تخونها اللُجُم
كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغىً هازمٌ ومنهزمُ
كأنها فى نهارها قمــر ... حفّ به من جنانها ظُلَم
تغنت الطــير فى جوانبها ... وجادت الأرض حولها الدِيَم
فهى كماوّية مطــوقة ... جُرِّد عنها غشاؤها الأدَم

رأينا جبالها المخضرة ولكن لم نر الجنات التى تحيط بها — كما يقول

المتنبي — إذ زرناها فى الشتاء . ولعلنا نزورها صيفاً فيصدّق الخبرَ الُخبرُ ولسنا ننكر على البحيرة جمالهــا فقد سرحنا فيها العيون على منظر جميل فسيح ونشقنا هواءها المنعش وودنا لو طال بنا المقام .

تغدينا فى فندق كبير هناك اسمه « ماجستيك » ثم استأنفنا السـير قاصدين دمشق . وقفنا على الحدود وقدمنا جوازات السفر ، ثم سرنا قليلاً فتخطينا نهر الأردن على قنطرة صغيرة ووقفنا على مقربة من الشاطىء الآخر عند مخافر سورية . ثم تابعنا السير إلى دمشق . وكم انقبضت الصدور وانشرحت بذكرى دمشق • وكم ثارت فى النفس ذِكَرٌ من الماضى والحاضر و بسمت فيها الآمال وعبَسَت الآلام . وكان القلب يخفق كلما سألنا السائق فخبّرنا أن المدينة اقتربت :

نحن أدرى وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم يطول ؟
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليــــل

غربت الشمس وأظلم الأفق فلاح على بعدٍ نور دمشق ، ثم دخلناها والنفس مقسمة بين عين تجهَد لترى دمشق ، وقلب يخفق لرؤية دمشق ، ورأس يبحث في ثنايا التاريخ عن دمشق وحظها من غِيَرَ الزمان . وها هو ذا نهر بردى حقيقة لا خيالاً .

وقفت السيارة على فندق خَوَّام والساعة ست ونصف ، وقد بلغ منا التعب مبلغه ، ولـكن شوقنا إلى المدينة أخرجنا قبل العشاء فتفرقنا فى طرقها قليــلا . ورجعت فجلست أنتظر الرفاق و إذا وفد من إخواننا الدمشقيين يسألون عنـّا وما ظننا أن أحداً علم بمقدمنا دخل جماعة من

هؤلاء الإخوان أتذكر منهم الأستاذ عبد القادر المغربى والأمير جعفر الجزائرى والأستاذ عبد القادر العظم فأخبرنا هؤلاء الفضلاء أنهم حسبونا قادمين بالقطار فرسموا خطة لاستقبالنا فى المحطة . ثم أخبرونا أن وزير المعارف الأستاذ الفاضل محمد كرد على سيحضر بعد قليل . وجاء الوزير العالم بعد العشاء فأوسعنا ترحيباً وإيناساً وسَمَر معنا زمناً ينقّل الحديث حيث يشاء له علمه الواسع وأدبه الرفيع . وقدم لنا الوزير ومن معه أوراقاً خُطّوا فيها احلتنا وارتحالنا إلى أن نبرح سورية ولم يدعوا فيها وسيلة لإكرامنا وتعريفنا بالبلاد إلا اتخذوها . وتفضل الأمير جعفر الجزائرلى مدير الآثار ، ابن حفيد الأمير العظيم بطل الجزائر الأميرعبد القادر الجزائرى ، فوعد بأن يرافقنا فى دمشق وفى كل المشاهد الأثرية حتى تدمر .

— ٥ —

أصبحنا فسرنا — كما رُسم لنا — إلى دار الحكومة حيث قابلنا صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسنى رئيس الوزراء ، ثم خرجنا إلى الجامعة السورية : كليتى الحقوق والطب ، فزرنا حُجَر الدراسة واستمعنا إلى بعض الأساتذة . وشدّ ماسرّنا أن رأينا فى معهد الحقوق الأستاذ الفاضل الدكتور أبا اليسر عابدين . وهو من خريجى المعهد الطبى ومن علماء الشريعة الإسلامية ومن أسرة العالم الكبير « ابن عابدين » ، رأيناه واقفاً قد وضع عمامته عن رأسه يفيض فى شرح مسائل من الفقه .

وزرنا كذلك معامل المعهد الطبى ، وقد امتلأت أنفسنا سروراً حينما ذهبنا إلى مسجد قريب من بناء الجامعة بناه السلطان سليمان العثمانى على

هندسة مساجد الآستانة الجميلة فرأينا حجرات تحيط ببنـاء المسجد قد اتخذت معامل للكيمياء والطبيعة . أعجبنا جداً هذا التأليف بين القديم والحديث والتقريب بين العلم والدين ، والمحافظة على الآثار والاستفادة منها والله يسدد خطي إخواننا حتى يبنوا مجدهم الطريف على مجدهم التليد ، و يزيدوا إلى مآثر الآباء مفاخر الأبناء . سرنا بعدُ إلى دار رئيس الوزراء حيث تغدينا . ثم خرجنا فى صحبة بعض إخواننا الكرام إلى مصانع الثياب وهى مغازل ومناسج حديثة أسسها أهل دمشق تبشر بمستقبل عظيم . وقد شهدنا فيها نسج الحرير والصوف ورأينا منهما ثيابا جيدة جداً

ورأينا جامع دمشق العظيم — جامع بنى أمية [١] وهو مسجد توالت عليه القرون وتداولته الأديان ، واختلفت عليه الفنون ؛ فعلى مقربة من بابه الكبير ترى قطعة بناء عالية كانت فى مدخل المعبد الوثنى القديم . وإحدى مآذن المسجد كانت للناقوس فى عهد النصرانية ، وباب الجامع الكبير يفضى إلى صحن واسع تحيط به عَمَد كلها أو معظمها من بقايا العهد الأموى، وعلى يسار الداخل إلى الصحن جدار مزين بصور أشجار وأنهار ودُور من الفسيفساء باقية من عهد الوليد . وجامع بنى أمية أعظم مارأيت من المساجد ، وكنت أحسب أن مساجد الآستانة لا نظير لها فى الجمال والسعة فاذا هذا المسجد أوسع من أعظمها وأكبر : إذا دخل الزائر من الصحن إلى المسجد المسقوف راعه ثلاثة أروقة تقوم على صفوف من العمد يتوالى

(١) أنظر الكلام عن هذا الجامع ومدينة دمشق كلها والقصيدة الدمشقية فى الفصول الآتية (بين القاهرة واستانبول)

فى كل صف منها زهاء أربعين ، وفى المسجد على يسار المحراب تربة يقال إنها تربة يحيى بن زكريا ، ذكرتنى بما يحكيه الشيخ سعدى الشيرازى فى كتاب كلستان : أنه كان معتكفاً بجانب هذه التربة فدخل ملك عربى معروف بالظلم ، فصلى ثم التفت إلى الشيخ وسأله أن يدعو الله ليكفيه عدواً شديداً يخشاه . فقال الشيخ : ارحم الرعية الضعيفة تسلم من العدو القوى .

وكذلك زرنا المجمع العلمى . وهو على مقربة من جامع بنى أمية فى بناء قديم بناه الملك العادل الأيوبى ليكون مدرسة ، ودفن فى بعض حجراته . وأمامه بناء آخر فيه قبر الظاهر بيبرس ، وهو الآن مكتبة عامة — وهنا ينبغى التنويه مرة أخرى بجد إخواننا أهل الشام وسعيهم فى بناء الحديث على القديم ، والعناية بالآثار ثم الاستفادة منها . وأما مآثر المجمع العلمى على العالم العربى وما يرجى له فى المستقبل فليس يحتاج إلى بيان ، وقد اتخذت بعض حجرات البناء متحفاً جمعت فيه بعض الآثار القديمة ولعلها نواة لمتحف عظيم يكافىء عظمة دمشق إن شاء الله .

— ٦ —

وفى يوم الجمعة غدونا إلى الصالحية إحدى محلات دمشق على سفح جبل قاسيون [١] . وقد لاحت لنا الغوطة على بعد فما قضينا لبانة النفس من جلالها وجمالها . ثم سرنا فى محلة اسمها محلة المهاجرين أكثر أهلها — فيما سمعنا — من الكرد ذوى البأس الشديد . وكان لهم بلاء عظيم فى الثورة الأخيرة ونزلنا لزيارة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فرأينا حول الباب نسوة قد اجتمعن للزيارة أو الاستجداء . ودخلنا إلى فناء صغير

(١) أنظر وصف قاسيون فى القصيدة الآتية فى فصول (بين القاهرة واستانبول)

هبطنا درجات إلى اليسار ونحن نقرأ على الجدران من أبيات الشيخ الأكبر :

فلكل عصر واحد يسمو به وأنا لباقى العصر ذاك الواحد

انتهت الدرجات إلى ضريح شيخ الصوفية . ورأينا بجانبه ضريحاً آخر عرفنا أنه لبطل الجزائر بل بطل العرب والمسلمين الأمير عبد القادر الجزائرى ، ثم ضريحين صغيرين لبعض أبناء الأمير . وكان معنا من فروع هذه الدوحة العظيمة الأمير جعفر الذى تفضل فرافقنا فى زيارة الآثار كما قدّمت . ولقد أحسن الذين وضعوا بطل المسلمين فى القرن الماضى بجانب بطل الصوفية . فقرنوا الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر [1] .

ذهبنا بعد محيى الدين والأمير عبد القادر إلى مصنع تصنع فيه النفائس من الخشب والنحاس والعاج . ورأينا كذلك منسجاً للسجاجيد أكثر عملته من الصبايا المسيحيات ، وأنواعاً من مناسج الحرير الدمشقى ولدمشق صيت ذائع فى هذه الصناعة وما يشبهها .

ثم ذهبنا لأداء فريضة الجمعة فى جامع بنى أمية ومررنا فى طريقنا بدار آل العظم الجميلة العتيقة وشهدنا ما حطمته مدافع الفرنسيين منها . أدينا الجمعة فى الجامع ثم لحقنا بحلقة المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسنى والد رئيس وزراء سورية . وقد أحسن إلينا الجالسون هناك فأفسحوا لنا وقدمونا . ثم جاء الشيخ الوقور فجلس قليلاً مطرقاً ثم قرأ سند حديث ومتنه وشرع يفيض فى شرحه و يستطرد إلى أمور كثيرة . و إن المرء

---

(١) الجهاد الأكبر : جهاد النفس كما جاء فى الأثر

ليعجب من شيخ جاوز التسعين يقوى على جلسة طويلة (من بعد الجمعة إلى العصر) متدفقاً فى بيانه ليس بيده ورقة .

و بعد الغداء سرنا إلى المجمع العلمى حيث سمعنا محاضرة من الأستاذ الفاضل الشيخ عبد القادر المغربى . ثم توجهنا إلى بقعة مباركة مهيبة وقد غشى النفس ما غشيها من جلال الذكرى وعظم العبرة . وقف بنا الدليل أمام باب ولجناه إلى ساحة صغيرة ، ثم رقينا درجات قليلة إلى باب آخر ؛ فيالك حجرة جمعت من العظمة سورة متلوّة على الدهور ، وحوت من عبر التاريخ ما تضيق به السطور ! يالك حجرة كعنوان الكتاب الكبير يناله البصر فى لحظة ، ثم لايزال ينفتح على الصفحة بعد الصفحة ! يالك من مكان ، وسع ملء الزمان ! ويا لك من أحجار ، طويت على أعصار ! مجد رَجف به الشرق والغرب ، وطأطأ له الصديق والعدو . هذا مرقد « صلاح الدين » . أطفنا بالقبر و وقفنا هنيهة خاشعين . ووقعت أبصارنا على صورة تمثل المجاهد العظيم . ثم قال أحدنا : أين التاج الذى وضعه على القبر ملك الألمان غليوم ؟ قال دليلنا : أخذه الإنكليز ! قلت : إن مجد « صلاح الدين » أعظم من أن يزينه غليوم ، وأجلّ من أن ينقصه الإنكليز . فليعطوا أو يأخذوا وليمدحوا أو يذموا . فذلك صرح لاتناله أيديهم ، ومجد قصرت عنه أمانيهم . وحلبة التاريخ تشهد ، من كان الفارسَ الأمجد ؟

ثم زرنا الملك الكبير والرجل الصالح « نور الدين محمود » الذى نشأ صلاح الدين في خدمته وفتح مصر باسمه . ومدفنه فى مسجد صغير يدخل

إليه من أحد الأسواق . وكان مدرسة بناها رحمه الله .

وسمرنا تلك الليلة في نادي الموسيقى مع فتية كرام تشابهت آدابهم وأحاديثهم وألحانهم . دعانا رئيس النادي « فخرى بك البارودى » فلبينا الدعوة شاكرين . وقضينا نصف الليل الأول نسمع للموسيقى والغناء يترجم عن نفوس مكلومة، وآلام أمة مهضومة .

فقلت تغنى كيف شئت فإنما غناؤك عندى ياحمامة إعوال

أيها الصارخ من بحر الهموم ما عسى يغنى غريق عن غريق

— ٧ —

ودعنا دمشق والساعة سبع ونصف من صباح السبت إلى بعلبك سرنا إليها ١٠٥ كيلا . وشهدنا هناك معبداً رومانيا كبيراً وآخر أصغر منه للإله باكوس . وفى المعبد الكبير آثار قلاع ومساجد إسلامية من عهد الحروب الصليبية . يتمثل فى هذين المعبدين جلاد الناس والزمان . قد تهدم أكثر الجوانب و بقيت جُدُر وعَمد تتحدى الزلازل والغِيَر . و إن الرائى ليقف دهشاً من عظم الأحجار ورفعة البناء وضخامته . فبينا يمشى على جدار تجثم فيه أحجار يمتد واحدها عشرة أمتار إذا هو بعمد هائلة يصعد الطرف فيها تسعة عشر متراً ثم ينتهى إلى تاج لولا العيان لحسب أن رفعه إلى مكانه من رءوس العمد محال أى محال . وكنت أحدق ببصرى ثم أغضي مفكراً فكأنى أرى أجبالا تتصادم وصخوراً تتطاير فى معترك الحوادث . فأفتح العين

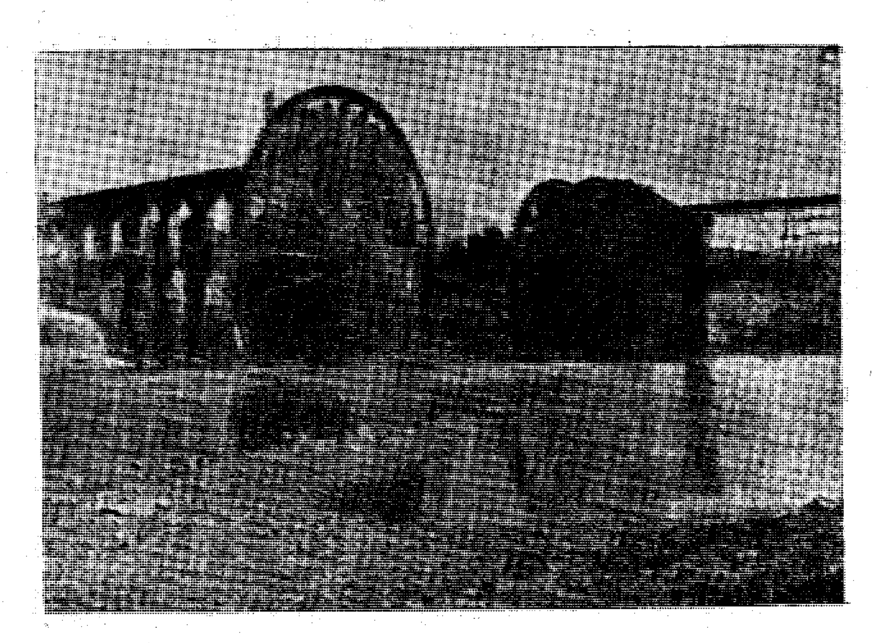
على هذه الصخور المنثورة بعد هذه المعركة . ما حسبت من قبلُ أن البشر قد قدروا على مثل معبد بعلبك .

وبعد الغداء ركبنا إلى حمص فإذا طريق غير معبدة تخالف الطرق التي رأيناها قبلا . برحنا بعلبك والساعة اثنتان بعد الظهر والمسافة ١١٢ كيلا و وحلت سياراتنا فى بعض الطريق . و بعد لأى قار بنا حمص ولكنا بقينا زهاء ساعة نلتمسها : نسير فى ناحية ثم نرجع . فلما أصبنا الطريق المؤدية نحو المدينة انتهينا إلى موحلة أخرى فارتطمت فيها بعض السيارات حيناً . حتى بلغنا الفندق والساعة سبع أو نحوها. فشرعنا نعالج ما أفسده السفر وأصابه الطين ثم أمضيناها ليلة ذكرتنا نعيم الليالى السالفة .

— ٨ —

وغدونا إلى الميماس حيث نهر العاصي المتدفق يعترضه طاحون تدور فيه بالماء ست أرحية . وقد أعجبنا المكان فتمشينا برهة . ثم قصدنا إلى مسجد جميل على الفن التركى فيه ضريح الصحابى الجليل والقائد العظيم سيدنا خالد بن الوليد وابنه عبد الرحمن . وسرنا بعد خلال المدينة فشهدنا المسجد الكبير ، وناعورة كبيرة ، وجلنا فى الأسواق برهة . وقد راقنى منظر أهل حمص ، وكثير منهم يلبس السراويل والعقال . ورأينا النساء مقنعات ، وأخبرنا أن المسلمات والمسيحيات سواء في هذا التحجب . ورجعنا بعد إلى الفندق فتغذينا ثم ودعنا الأمير جعفرا شاكرين له فضله وهمته .

سار قطارنا والساعة اثنتان وربع ميمما حلب والمسافة إليها ٢٠٠ كيل



النواعير على نهر العاصي في مدينة حماه

رأينا قطاراً من بقايا العهـد العثمانى مجهزاً بمدافىء البخار فأخذ كل جماعة مقصورة فيه . و بعد قليل اشتدت الحرارة فأردنا أن نقللها أو نقفها فلم نستطيع تحريك المفتاح . فلبثنا حتى قيض الله لنا أحد عمال القطار فما زال يعالجه حتى وقف الحرارة . وعلى الطريق رأينا قرى قليلة مبعثرة فى الفضاء الواسع تبدو فى مرأى غريب . فهي قباب من الطين اجتمع بعضها إلى بعض . كل دار تلوح كصومعة مقببة فيها نوافذ صغيرة . وأبصرنا حماة على بعد فراقنا منظر نواعيرها العالية تدور بالماء ليل نهار .

و بينما أتحدث إلى الأستاذ العبادى وقف القطار على محطة صغيرة إلى جانبها بئر يستقى منها بعض النساء فأنشأنا أبياتاً من الشعر . ثم أوحى إلينا أن ننشىء قصيدة فى موضوع آخر فما زلنا نتعاون على القريض حتى نظمنا خمسة عشر بيتاً . قال الأستاذ العبادى : هذه إحـدى المكتّمات . فسميناها « المكتّمة » . وقد جهد بعض الرفاق أن يعرفوا موضوعها أو بحرها أوقافيتها أورويها فما ظفروا حتى الآن . وكانت مثار حدْس وحزْر مضحك من حين لآخر . فلما يئس « الأستاذ الرئيس » منها عزم على أن يشرحها دون أن يراها . وكنا نجلس أحياناً فأقول لشريكي فى القصيدة : دعنا نغير البيت الخامس — مثلا — فيقول : لا بأس . فيسأل بعض الحضرين : وما البيت الخامس ؟ فنقول إنها المكتمة . وقد ضاق بعض الرفاق ذرعاً فادعى أنه نظم نقيضة لهذه القصيدة سماها « المسخمة ، فى نقض المكتمة » . ولا تزال

المكتمة حتى هذه الساعة لغزاً وستكون كذلك حتى يشاء الله إظهارها [١]

وقف القطار على حلب والساعة سبع من المساء فإذا فى انتظارنا بعض أفاضل حلب فيهم مفتش المعارف الفاضل الدكتور كامل أشرفية والأستاذ سامى الكيال . وهكذا لقينا من عناية إخواننا وحفاوتهم حيثما حللنا .

سرنا إلى فندق البارون نذكر قول المتنبى :

لا أقمنا على مكان وإن طا ... ب ولا يمكن المكانَ الرحيل

كلما رحّبت بنا الروض قلنا ... حلب قصدنا وأنت السبيل

وقد اجتزنا فى الطريق قنطرة على نهر «قويق» فذكرنا قول المعرى

ونكّب إلا عن قُويق كأنه ... يظن سواه زائداً فى أوامه

وذكرنا ما قال المتنبى حينما مدّ قويق فأحاط بدار سيف الدولة .

— ٩ —

غدونا يوم الاثنين نمشى فى حلب يرافقنا بعض كرام أهلها فرأينا أمكنة كثيرة يضيق المقام عن وصفها الآن . وأعظم ما رأينا الجامع الأموى وهو جامع عظيم جداً فيه قبر يقال إنه قبر زكريا النبى ، ومحراب عليه اسم السلطان قلاوون ، ومنبر يقال إن صلاح الدين أمر بصنعه هو ومنبر المسجد الأقصى معاً . ثم قلعة حلب العجيبة تقوم على ربوة عالية فى شكل مخروط منتظم

(١) قد أظهرها الله بعد حول فى القطارين بغداد والموصل كما سيأتى فى مقالات « بين القاهرة وبغداد » .

يحيط بها خندق كان يملأ بالماء فى العصور الماضية . وقد رُصفت جوانب الربوة بالحجارة . وليس لهذه القلعة العالية الواسعة الممتزة على هذه الربوة إلا طريق واحدة تؤدى إلى بابها العظيم . وكان إخواننا المحتفلون بنا قد أستأذنوا من بيدهم أمر القلعة من الفرنسيين فى هذه الزيارة فأوقفنا الحراس من سود السنغال لينظروا الإذن و يعدوا الداخلين ، فتذكرت قول المتنبى :

سادات كل أناس من نفوسهم   وسادة المسلمين الأعبُد القزَم

دخلنا القلعة فقرأنا على الباب الأول كتابة عربية ترجع إلى عهـد المماليك ، ورأينا على الباب الثانى صورتى أسدين على اليمين والشمال قيل أن إحداهما تمثل أسداً باكياً والأخرى تمثل أسداً ضاحكا . ولم أتبين أنا بكاء ولاضحكا . وفى القلعة سرداب مظلم يؤدى إلى موضع تحت الأرض يقال إنه كان سجناً . وفيها مسجد صغير تبيّنا عليه اسم اسماعيل بن محمود بن زنكي سنة ٥٧٤ و محمود زنكى بن آقسنقر سنة ٥٦٣ وفيهـا مشاهـد أخري لايتسع المقام لذكرها .

ومما راقنا من مشاهد حلب مدرسة هناك فى منزل عتيق كبير علقت على جدرانها ألواح فى كل منها نبذة من تاريخ رجل من عظماء المسلمين . وهي وسيلة حسنة لتعليم التاريخ وتذكير الناشئة بمجد أسلافهم .

وفى المساء احتفل بنا مرتين : فى مدرسة المعلمات حيث شهدنا من حفاوة مفتش المعارف النبيل وناظرة المدرسة الفاضلة والمعلمات الـكريمات ما هو جدير بآدابهن الرفيعة . ولعب أطفال (روضات الأطفال) المختلفة

ألعاباً معجبة ظريفة دالة على حسن التدريب والتربية . وسمعنا نشيد سورية توقعه إحدى الطالبات على البيان ويردده بعض أخواتها فلا يزال فى قرارة نفسى صدى هذه النغمات المفرحة المحزنة :

أنت ســـوريا بلادى فجر أنوار الهدى الخ

وقد خطب الأستاذ الرئيس « احمد أمين » خطبة شكر فيها المحتفلين وأثنى على نظامهم وحسن عنايتهم بالأطفال الخ

والحفلة الثانيــة كانت فى مدرسة المعلمين وهى بناء عظيم من بقايا العهد العثمانى فيه مدرسة المعلمين وغيرها . وقد سمرنا هناك وخطب حضرة مفتش المعارف وأجابه الأستاذ الرئيس .

— ١٠ —

أصبحنا نتهيأ للسفر إلى مزار محبوب طالما طارت إليه المُنىَ ، ففارقنا حلب والساعة ثمان ونصف عاجزين عن شكر إخواننا على حفاوتهم وإكرامهم . وسرنا ٨٥ كيلا ثم عرّجنا إلى البلدة المباركة ذات الذكرى العظيمة فى نفس كل متأدب . وتلك « معرة النعمان » . وهناك استقبلنا أحد كرام العرب وأفاضلهم « حكمت بك الحراكى » وكان معالى وزير المعارف وغيره من الأفاضل المحتفلين بنا قد كتبوا إليه . وكنا أخبرنا أن أحداً لا يستطيع أن يذهب إلى المعرة ثم يفلت من كرم الحراكى بك . طفنا بالبلدة فدل مرأى مساكنها وطرقها على أنها بقية الأحداث من مدينة كبيرة . ورأينا مسجداً كبيراً له منارة مربعة ما رأيت مثلها قط . ثم زرنا

قبر شيخ المعرة الفليسوف الشاعر أبى العلاء : فناء صغير يفضى إلى حجرتين في إحداهما قبر عليه صفائح الحجارة قرأنا عليه : « أبو العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان المعرى » وقفنا على القبر قليلا وقد ذهبت كل نفس مذهبها . وكتب بعض الرفاق على الجدار فكتبت أول بيت فى اللزوميات :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء ... تشذ وتنأى عنهم القرباء

وفى الحجرة الثانية قبر كبير لم نعرفه ويظن أنه لأحد أقرباء أبى العلاء تغدينا فى دار الحراكى بك وضاق الوقت عن زيارة قبر عمر بن عبد العزيز فى دير سمعان فركبنا ميممين حمص فى الطريق إلى طرابلس نذكر قول الشريف الرضي :

دير سمعان لاعدتك الغوادى ... خير ميت من آل مروان ميتك

ومررنا بمكان اسمه خان شيخون فأراد سائق السيارة أن يشترى بنزيناً فسأل بكم الصفيحة ؟ قال التاجر بكذا قرشاً سوريا فغضب السائق وقال : « كم شيطانى » ؟ قال التاجر : « شيطانى مابعرف » فسار السائق ولم يأخذ بنزيناً (وتفسير هذا أن نظام النقد فى سورية معضل جداً . فهناك أنواع من النقد تركية وفرنسية وسورية تعجز الحاسب ؛ وقد يخرج التاجر قلماً وورقاً ليحسب ما يأخذ منك وما يعطيك حين تشترى علبة سجاير . وأذكر أن بعض الرفاق أرادوا أن يشتروا فستقاً فى حلب فوزنوه ولكن لم يستطيعوا أن يفهموا التاجر الثمن بالقرش السورى . (هنا ينبغى التنويه

بالصيرف العظيم رفيقنا مراد افندى كامل الذى كان حلال المشكلات والمرجع فى كل أزمة حسابية) .

ثم مررنا بحماة فاخترقناها وضاق الوقت عن زيارة قبر أبى الفداء فضيناه آسفين .

ولا أرى الآن بدآ من الاختصار فأنا أطوى الطريق إلى طرابلس جملة واحدة . بلغنا طرابلس والساعة تسع من المساء فبتنا بها وأصبحنا إلى بيروت فزرنا الكلية الإسلامية والجامعة الأمريكية ومدرسة اليسوعيين الخ

وغدونا إلى الباخرة . وكان يوم الباخرة عصيباً . فإن شئت فاسأل عنه « الأستاذ الرئيس » فهو به خبير .

بلغنا الاسكندرية والساعة خمس من مساء الخميس وركبنا قطار القاهرة فسافر والساعة سبع فبلغنا القاهرة والساعة عشر ونصف

فألقت عصاها واستقرت بها النوى .

وإنى أعتذر لكثير من إخواننا الشاميين إذ ضاق المقام وضعفت ذاكرتى عن ذكر أسمائهم . ولهم فى القلوب أثر لا يمحي وشكر يتجدد على مر الزمان .

بين القاهرة وبغـــــداد (١)

—١—

ما أشبه الليلة بالبارحة ! هذه قيطرة القناة بعد عام وستة عشر يوماً منذ اجتزناها المرة الأولى ميممين الشام : سرعان ما عد الفلك مئات الأيام وقد يخيل إلى المرء أنه لا يزال فى ليلته من العام المنصرم .

تقلب الأيام من صفحاتها أسرع من تقليبنا أوراقنا ! !

قطارنا الليلة أصدق موعداً ؛ سار والساعة اثنتا عشرة فلم يخلف موعده خمس ساعات كفعلته عام أول . سار القطار فأخذ كل مكانه ؛ منا المزمع سهراً ، ومنا المرتقب فرصة للنوم . ولم يلبث أن تفرقت بنا الرغبات فإذا بعضنا ممدد ينام ملء عينه ويغط ملء نفسه ، وإذا بعضنا بين النائم واليقظان ، وإذا آخرون فى غذاء وحديث وضحك . لو منحت الجوائز على النوم وبلوغ المآرب منه لكان المجلى الأستاذ حسن ابراهيم ، والمصلى رئيس السفر الأستاذ أحمد أمين . ولو منحت الجوائز على قدر السهاد

---

(١) كلمة كتبتها أول عهدى بالعراق ، ثم عشت فى العراق وعرفت من أحواله ما تصغر هذه الكلمة بجانبه ، ولكنها الذكرى الحبيبة التى وعيتها أول ما رأيت العراق

والحرمان من النوم ، ومطالعة السماء ومراقبة القمر فى الصحراء لكان أول الفائزين الأستاذ سامي جنينة .

أضحى النهار فإذا جبل الكرمل منيف على اليمين تكسوه الأشجار ويسير القطار بين الجبل والبحر فإذا حيفا والساعة تسع من صباح الأربعاء سادس عشر رمضان عام ١٣٤٩ (رابع فبراير سنة ١٩٣١) .

لبثنا فى حيفا ريثما تنقل الأمتعة إلى السيارات ، وكانت تأخذ الأهبة للسير . فلما قاربناها قرأنا على مقدمها : « شعبان وشركاه — حيفا ، بيروت شام ، بغداد ، طهران » . فسرنى أن تكون الشركة عربية ، وعجبت أن تيسر للناس طى المسافات حتى صارت دمشق و بغداد وطهران مراحل متقاربة فى طريق يطويه المسافر فى أيام قلائل . ولفت نظرى بناء محطة حيفا تتوجه الطغراء العثمانية ، ونُصب هنالك أقيم لذكرى سكة الحجاز . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

غادرنا حيفا والساعة عشر ونصف ميممين دمشق من طريق طبرية فبلغنا طبرية والساعة اثنتا عشرة وثلث ، بعد أن سرنا أقل من ساعتين . عادت طبرية بمرائيها الجميلة وذكرياتها التى ذكرت منها فى رحلة العام الماضى

واسترحنا قليلا فى فندق ماجستيك الذى حللناه فى الرحلة الأولى ، كأن لم يمض عام وأيام . ثم تركنا طبرية والساعة ثلاث إلا ربعا فبلغنا الحدود الفلسطينية بعد ساعة . ووقفنا ريثما علمت جوازات السفر ثم استأنفنا السير والساعة أربع لنقف بعد عبور نهر الأردن عند المخفر السورى — مخفر جسر

بنات يعقوب والساعة أربع وثلث . اضطررنا أن نقف زهاء أربعين دقيقة تحت المطر . وليت شعرى فيم مرت هذه المدة ؟ إن تعليم الجوازات لا يحوج إلى هذا الانتظار ؛ لقد كانت تحية منكرة فى مدخل سورية . سرنا بعد لأى وقد جاوزت الساعة خمساً وشرع الجو يكفهر وغشاه ظلام السحاب وظلام الليل . وقفنا وقفة أخرى بالقنيطرة والمطر هطّال . ثم انطلقت السيارات طالبة دمشق ونحن نعد الأميال والدقائق حتى بلغ الملل غايته . ولما قار بنا المدينة ألفينا إحدى السيارات المتقدمة واقفة . قلنا ماخطبكم ؟ قيل سيارة انقلبت . فصحنا فزعين : وكيف ركابها ؟ قيل إنها ليست من سياراتنا . وقد أصيب أحد من فيها بجروح مهلكة وهو طالب طب ، وأسرعت به إحدي سياراتنا إلى دمشق ، وركب معنا جريح آخر لم تعجزه الواقعة عن الحركة . كان لهذه الفجاءة وقع مخيف فى أنفسنا يصاحبه حمد الله على السلامة حمداً كثيراً .

— ٢ —

هذه دمشق والساعة ثمان من مساء الأربعاء . ولله مكانة دمشق من جلال التاريخ ونصيبها من دول الزمان . منا الذين رأوا دمشق من قبل فهم يجمعون إلى ذكرى التاريخ ذكرى مرآها الجميل ، ومسرح الطرف بين بَردي وجبل قاسيون . ومنا الذين يعدون قلوبهم وأبصارهم لرؤية دمشق التى يملأ أنفسهم اسمها وتاريخها .

نزلنا بفندق خوام ، كما نزلنا عام أول ، ولكننا اليوم أكثر عدداً

فنحن أربعة وعشرون ، وكنا فى ذلك العام ثلاثة عشر لم نجد فى الفندق متسعاً لنا جميعاً ، فذهب جماعة منا إلى فندق دمشق ، ونخروا إذ سموا أنفسهم « الدمشقين » . وسموا إخوانهم « الخواميين » . وكل فريق يعرف نفسه . أصبحنا وكل يحاول أن يرى من دمشق فى يومه مالم يره ، فقضينا اليوم فى مشاهدها العظيمة ، وذهب جماعة لمقابلة صاحب الفخامة الشيخ جمال الدين الحسنى رئيس الوزارة السورية ، وصاحب المعالى الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف شكراً على مالقينا من حفاوتهما البالغة عام أول

— ٣ —

زمت الأمتعة ، وأزت السيارات على أبواب الفندق فركبنا والساعة ثمان وأربعون دقيقة وتصلنا من أبنية المدينة بعد ثلاث عشرة من الدقائق . ولكن إلى أين ؟ إلى بغداد ! إنها نوى قذف ! ولكنها السيارات كالشهب لاتفرق بين بعيد وقريب . كنت أسائل نفسى : ليت شعرى أين طريق خالد بن الوليد حين عبر بادية الشام من العراق إلى دمشق ؟ روى المؤرخون أنه رمى بنفسه وبالجيش فى البيداء عجلان يريد إنجاد المسلمين فى الشام ، فقطع البادية فى خمس ليال . وكان دليله رافع بن عميرة الطائى ، ويقول القائل :

لله عينا رافع أنى اهتدى ؟ فوز من قراقر إلى سوى
خمساً إذا ماسارها الجيش بكى ما سارها قبلك أنسى يرى

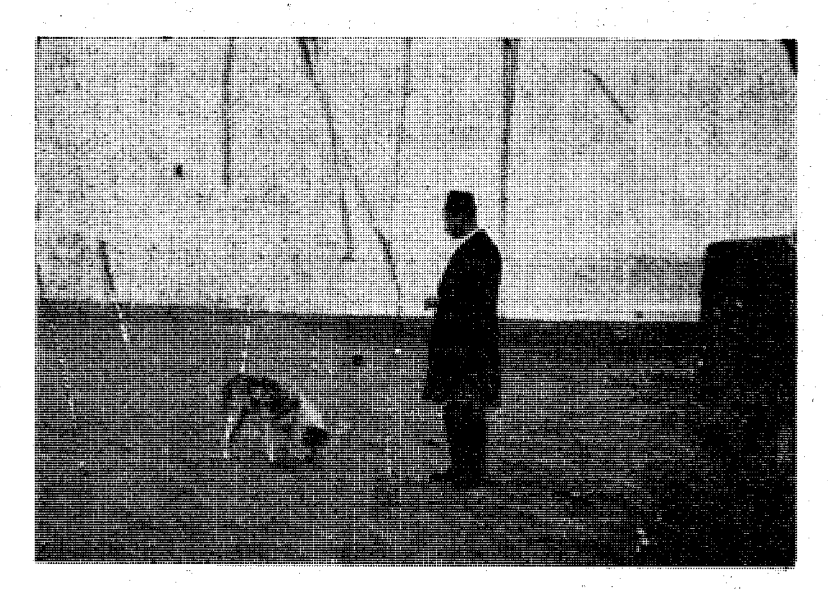
خرج خالد من البادية إلى مرج راهط ثم سار إلى ثنية مشرفة على

غوطة دمشق ، فنشر عليها راية النبي عليه الصلاة السلام التي تسمى العقاب فسميت ثنية العقاب . وكنت سألت الأستاذ الوزير الفاضل محمد كرد على عن ثنية العقاب فقال : قريبة من دمشق يسميهـا الناس التنايا . قال : وكنت اقترحت على جمال باشا القائد العثمانى أن يبنى عليها مسجداً لتخليد ذكرى خالد والراية النبوية ، فاستحسن الرأى ، وحالت الأحداث .

سرنا ميممين البادية فسألت سائقنا . أين التنايا ؟ فقال : إلى شمالنا فى طريق حمص . وقفنا والساعة عشر وربع عند بنية تسمى : « خان أبو الشامات » . وهناك مخفر تعرض فيه جوازات السفر ، فنزلنا نتمشى وتذكرت بطوننا فطيراً تزوده الشحات أفندى أيوب أحد أعضاء الرحلة فتناولنامنه . وقد انتحيت ناحية ناثراً ؟ آكل و إذا بكلب أباق رآنى آهلا لرجائه فجاء إلى . سارعت فأطعمته مما مى . وكنت أرى فى عينيه السرور فأزيده وأقول لنفسى : أليس هو أولى منى بهذه اللقيمات ؟ إنه يطعمها على جوع ويتزود بها لجوع آخر ، وأنت تأكلها على طعام لتعبىء عليها طعاماً آخر . كل يا كلب الصحراء ! فهى والله صدقة صادفت أهلها . رأيت من بعد بعض الاخوان يعرض على صورتى وأنا أطعم الكلب . قلت : صورتنى ؟ قال نعم . قلت : هى والله من أجمل ذكريات الرحلة . قد لقى الفرزدق من قبل ذئباً فأطعمه وقال :

تعش فإن عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

وكان البحترى وذئبه أسوأ حظاً ، كان كلاهما ذئباً جائعاً يشتهى



المؤلف يطعم كلباً فى الصحراء

لحم صاحبه ، وكانت عاقبة نضالها على الحياة أن أكل ذئبُ البشر ذئب الوحش ، ثم تغني بها في شعره ! لست أدرى ما صنع الله بصاحبي خفير الصحراء . إن قُدر لى السفر إلى العراق مرة أخرى فلقيته فأعظم بها من سعادة (١) . . . ولقيت رجلين يقودان سيارتى بضاعة كبيرتين،وقد تدثر أحدهما بمعطف من الفرو طويل الصوف (٢) قلت : من أين؟قال من طهران . ثم تحدثنا بالفارسية فإذا هو بغدادى . سيكون لهذه الوسائل الحديثة من الأثر في لغات الناس وأخلاقهم ومعارفهم ما لا نستطيع حَزْره الآن ، وستخلق من سائقى السيارات طائفة من أبناء التجارب والأسفار يمتّون إلى أمم كثيرة بوشائج كثيرة

تركنا خان أبى الشامات والساعة عشر وخمس وأربعون فواصلنا السير زهاء ساعتين ثم أدرك الإعياء والدُوار ابراهيم أفندى أمين أحد طلابنا ، والضعيف أمير الرفقة . فنزلنا على مقربة من مخفر اسمه سبع أبيار والساعة اثنتا عشرة وخمس وعشرون . واستأنفنا السير بعد أن انتعش صاحبنا قليلا والساعة واحدة بعد الظهر نحاول تدارك ما فاتنا مغذّين السير في بيداء جرداء ليس بها إلا ما يسم وجه الأرض من العشب.وكل بادية الشام التى سرنا فيها مستوى أجرد لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . راق أحد أصحابنا مرأى السهل الفسيح فقال : لو بُنى هذا نادٍ للجامعة ! قلت : يا له

---

(١) قطعت الطريق خمس مرات بعد هذه ، فلم أظفر بهذا الصاحب .

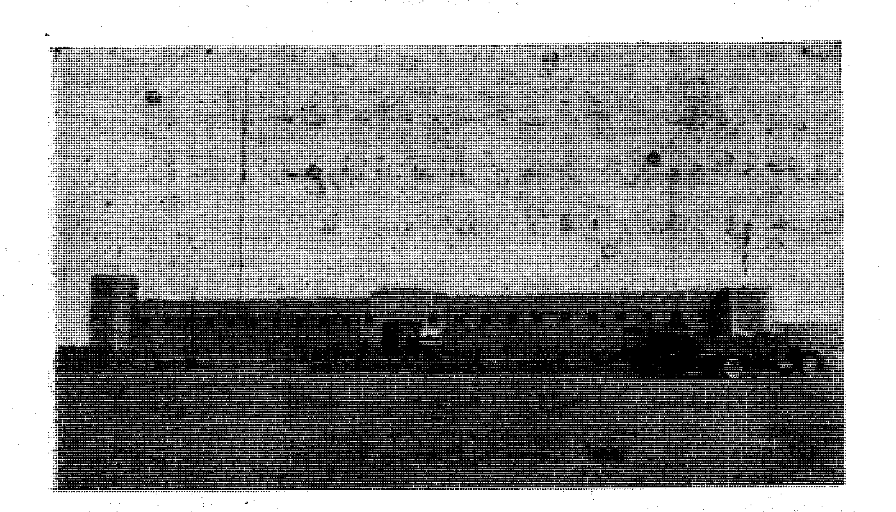
(٢) يلبس هذا كثيراً فى إيران وأفغانستان ويسمى بوستين . وهو الفرو الذى ذكره بديع الزمان الهمذانى فى إحدى رسائله وهو يلبس وصوفه إلى جسم اللابس .

رأياً سديداً ! وسجلت الاقتراح كيلا أنساه وفرحت به فأرخته وكانت الساعة اثنتين وخمساً وأربعين من مساء الجمعة ١٨ رمضان. ومن لنا بحرية الصحراء وسعتها وخشونتها وشجاعتها .

نزلنا والساعة ثلاث للاستراحة والأكل فتساءلنا : أين خروف الشحات (١) أين الخروف الذى صحبنا من منيا القمح ؟ فقيل : علمه عند وكيل شركة السياحات : سألناه ، فكان جوابه أن قدم إلينا علبة من الصفيح ، و إذا خروفنا قد تضاءل ثم تضاءل حتى وسعته علبة صغيرة . فعجبنا من آيات الله في خلقه ، وقلنا : لا غرو فالكسر فى الحساب يحتوى أعداداً كثيرة فى بسطه ومقامه ثم يختصر فإذا هو صغير . فالحمد لله على أن لم نبلغ الغاية . ومهما يكن فقد كذب من قال : إن المادة لا تحدث ولا تفنى . أخذ بعضنا من خلاصة الخروف شيئاً وشاق بعضنا لعب الكرة فتلاعبوا بصفيحة فارغة فكان لعباً ممتعاً يسيراً لا جلبة فيه ! والصفائح الفارغة كثيرة فى الطريق يلقيها سائقو السيارات ، و يتخذونها علامات على السبيل . كان منزلنا هذا قرب الحدود ، بين الشام والعراق كذلك أخبرنا السائق وما رأينا للحدود من علامة إلا أن تكون بعض هذه الصفائح وكومة صغيرة من المدر . والذى وصله الله لا يفصله الإنسان

ثم سرنا دأباً حتي أغطش الليل . وكان أستاذنا العبادى يقرأ قصة مجنون ليلى لشوقى بك . وفى القصة ذكر الجن ووفودهم راكبين القنافذ والسلاحف . فلما أظلم الليل قلنا نعوذ بالله من هذه القصة، وتوقعنا أن يقابلنا

(١) الشحات أيوب أفندى أحد الرفقاء



مخفر الرطبة فى بادية الشام على طريق دمشق بغداد

وقد من إخواننا لاسيما حين هبطنا وادياً تسايرنا فيه بعضُ الآكام .
ثم التفتنا إلى الخلف فإذا ظل يلازم السيارة لا يفارقها فقلنا : عدَّاء من الجن
اللهم اجعل ظله خفيفاً . وتمادت بنا الصحراء زهاء ساعتين بعد المغرب
حتى بلغنا الرطبة . وهى مخفر كبير به جند ، وينزل بقربه جماعة من البدو
وعلى مقربة منه مأوى للطيارات . وقد رفعت على البناء سارية عالية فى
رأسها مصباح وضَّاء يهدى السائرين بالليل .

وفى البناء نُزُل المسافرين لم نحتج إليه إذ كانت خطتنا مواصلة السفر .
وجاءنا صبى اسمه عبد الكريم يدعونا إلى الشاى خانه (بيت الشاى) وهو
خباء على مقربة من باب المخفر يجد فيه المسافر الشاى . وما أسرع ما ألفنا الصبى
فكان ينهى فينا ويأمر وهو يعطينا الشاى . ولا يعرف لنا اسماً ولا لقباً
إلا الولد [1] . قضيناها ساعات ممتعة ، ثم انطلقنا والساعة عشر . فما زال
بنا الادلاج فى القمراء حتى أضاء النهار . وبعد قليل بلغنا الرَّمادىّ إذ
كانت الساعة خمساً وخمساً وأربعين (هذا التوقيت بحساب ساعتى أى
حساب مصر . والفرق بين مصر والعراق ساعة) فرأينا النخيل نخيل العراق
وعرفنا أننا ودّعنا البيداء وأقبلنا على العراق ماضيه وحاضره .

بلغنا الرمادى مبكرين فنزلنا ريثما نستريح وتعلَّم الجوازات . ثم فصلنا
والساعة سبع وخمس . سألنا السائق أين نحن من نهر الفرات ؟ قال : على
مقربة . فتطلعنا لمشهد نهر التاريخ المتدفق بالحادثات ، وازدحمت فى النفس

---

(١) لقيت عبد الكريم مرات بعد هذه فى المكان نفسه وقد بنيت امكان الخيمة
حجرة كبيرة .

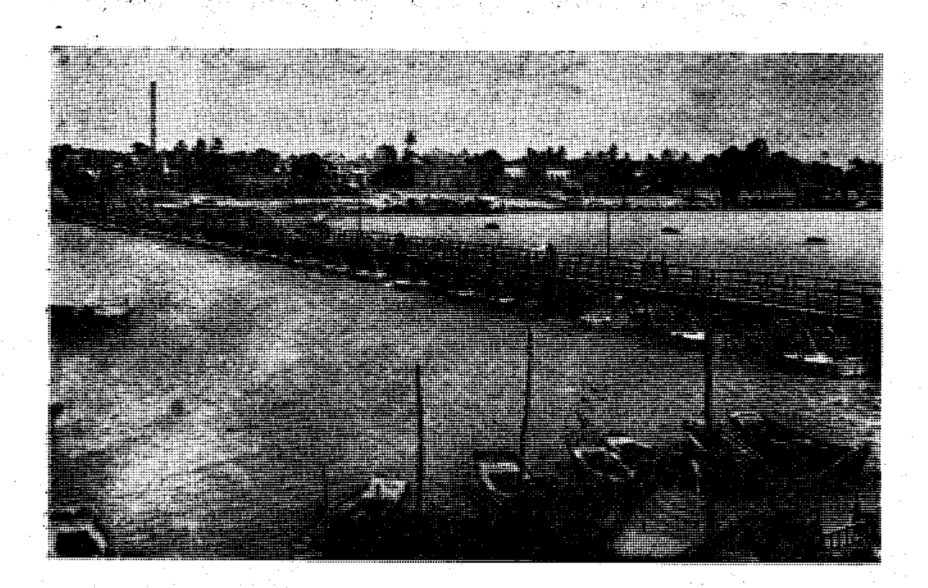
ذكريات الفرات ، ومرت الأحقاب تترى كما تتوالى فى السينما المشاهد سراعاً . وبعد عشرين دقيقة من مفارقة الرمادى لاح الماء فشغل كل بالتطلع إليه ، وذهبت فيه الأبصار والأنفس مذاهبها . ثم ناوحنا الجنوب سائرين والنهرَ حتى بلغنا جسر الفلّوجة ، وهو جسر معقود على سفن من الخشب (١) . والفلوجة قرية صغيرة مشرفة على الشاطىء الشرقي ولفلاليج السواد ذكر فى التاريخ . وهذه الفلوجة بقية الأنبار القديمة مدينة السفاح أول الخلفاء العباسيين . وفى روايات الفرس أنها كانت تسمى فيروز سابور بناها سابور بن هرمز ذو الأكتاف (٣٠٩ — ٣٧٩ م) . عبرنا النهر إلى ما بين النهرين أرض الخصب والثراء والزرع والماء ميممين الشرق والأفئدة تهوى إلى بغداد . انطلقت السيارات ساعة ونصف ساعة فى سهل أفيح تمسحه العيون فى كل ناحية فما يحدّ الطرف مرأى مدينة ولا قرية ولا غابة ولا شجرة حتى بلغنا المدينة . لشد ما برّحت الحادثات بالعراق ، ولشد ما عصفت بجناته نوائب الزمان !

— ٤ —

هذه بغداد . وقفنا عند الجمرك ثم سرنا لنجتاز النهر فإذا جسر مود مفتوح فلا بد من التريث قليلا . جسر مود ؟ أجل جسر على دجلة سمى باسم قائد انكليزى . وحسبك أن تفتتح بغداد باسم مود ، لا باسم المنصور أو الرشيد أو المأمون (٢)

---

(١) أقيم مكانه جسر من حديد (٢) سمى هذا الجسر من بعد باسم الملك على



جسر الملك علي على دجلة

لا أنت أنت ولا الديار ديار   خفّ الهوى وتولّت الأوطار

نزلنا بفندق كلارج وقد نال منا التعب فاسترحنا .

وفي العشيّ جاء إلى الفندق وفد من كبار وزارة المعارف مسلّمين مرحّبين . وكان بينهم الأخ الأديب رسول المعارف المصرية فى العراق الأستاذ أحمد حسن الزيات . وكنا أعددنا خطة لزيارتنا بغداد والعراق فاستبدل بها رجال المعارف فى بغداد خطة أجدى وأوفى بالغرض . وربّ الدار أدرى بما فيها . وقد اجتهد إخواننا ، رعاهم الله ، فى الخطة التى وضعوها أن يُرونا من العراق ما نستطيع أن نراه في الأيام المعدودات المقسومة لاقامتنا هناك ، وأن يبلغوا من الحفاوة والإكرام ، والتطول والتودد والايناس ما تتسع له أيامنا وما لا تتسع . فما تركوا فى خطتهم ساعة إلا استغرقوها برعايتهم ومروءتهم . وخير ما توصف به حفاوة إخواننا العراقيين بنا أن نمسك عن الإبانة عنها ، لتذهب الظنون مذاهبها فى المروءة العربية ، والأخوّة العربية تحتفلان بإخوة قدموا لإحكام الألفة ، ووصل ما حاول أن يقطعه الزمان .

قضيت ليلة الأحد هائماً فى أحلام من التاريخ أو تاريخ من الأحلام وقد جمع لى التاريخ كله فى ليلة واحدة : يخيل إلىّ تارة أنى ذاهب لأرى موكباً من مواكب الخلفاء أو أقف بباب قصر الخُلد أو قصر التاج لأرى الوافدين على القصر والخارجين ، وتارة أتوهم أنى سائر فى دروب بغداد أسأل عن دار أبى حنيفة أو أحد صاحبيه لأشهد مجالس الفقه ، ومرة أرانى

مسائلا عن دار الحكمة لأشهد المترجمين فيها والنُساخ ، وأخري محدثاً نفسى : ترى أين دكاكين الوراقين ؟ هلم لنرى بعض مافيها من الكتب. وبينا أشتاق إلى رؤية ابن حنبل أو الأشعرى إذا أنا متطلع إلى رؤية الاسفرايينى أو الباقلانى فيشطّ بى الخيال إلى الكندى أو أحد أضرابه وقد أعود من طريقي إلى دار أحد أئمة الكلام مبادراً إلى مجلس أبى نواس وأضرابه من الشعراء فتسرع بى الفكاهة إلى السؤال عن دار ابن الرومى لأرى كيف يتشاءم من جاره الأحدب ، ثم أُرانى سائراً إلى النظامية لأرى الغزالى فى درسه، أو إلى المستنصرية لأرى كيف يعيش طلاب العلم بها . وبينا أسأل أحد المارين أين بالكرخ سويقةُ غالب التى نزل بها المعرى حين قدم بغداد، إذا بى أسأله قبل أن يجيبنى : وأين دار سابور التى يقول فيها أبو العلاء :

وغنّت لنا فى دار سابور قينة
من الوُرق مِطرابُ الأصائل ميهال الخ

وأين ربضُ حُميد حيث دار على بن حمزة البصرى التى نزل بها أبو الطيب المتنبى ؟

وقد أشهد فى طرفة عين الرشيد قافلا من غزاة ، والمعتصم متأهباً لفتح عمورية ، وثورات الجند على الخلفاء ، وجيوش البويهيين والسلاجقة رائحة وغادية ثم جيوش التتار مدمرة مخربة .

بغدادُ فى نعيمها وبؤسها ، وخيرها وشرها ، وكبريائها وذلها ، وشدتها ورخائها ، بغداد مركز الدائرة من الممالك الإسلامية المتعاونة على نسج مدنية واحدة ، ترسل العلماء إلى الأرجاء ، وتستقبل العلماء من الأرجاء

وتبث الآراء وتستمع إلى الآراء ، بغداد يدّوى صداها فى المشرق والمغرب ويمتّ إليها القاصى والدانى ، وتتقلب بها غِيرَ القرون وعِبرَ الدهور — كل هذا تمثل لى مزدحماً مضطرباً مائجاً متقلباً ...

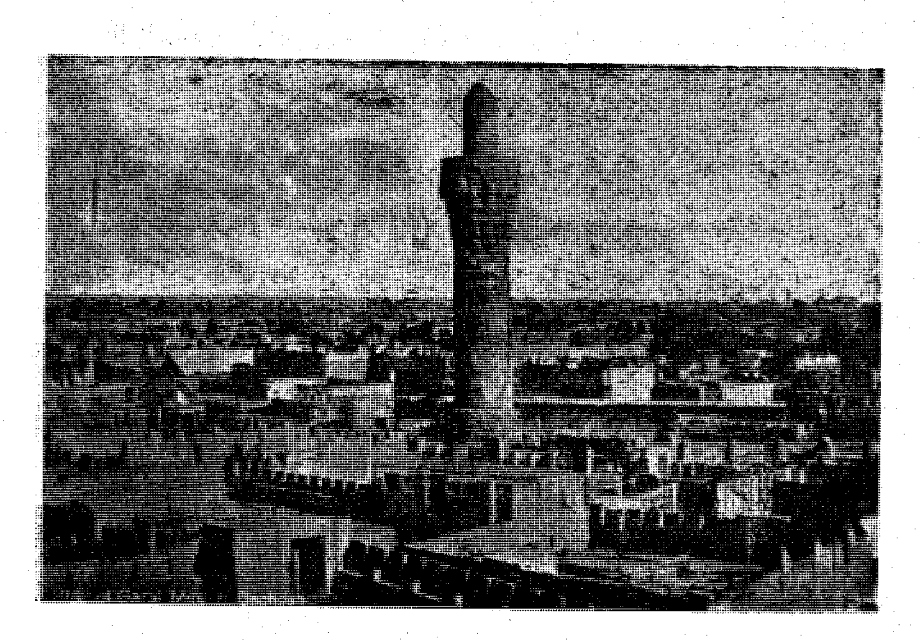
— ٥ —

غدونا نجول فى المدينة فى صحبة جماعة من رجال المعارف ، فرأينا بقية من المدرسة المستنصرية التى بناها المستنصر بالله حوالى سنة ستمائة وثلاثين ، رأينا بناء مشرفاً على دجلة قد اتخذ الآن للجمرك ، وقرأنا على جداره اسم المدرسة والخليفة ، وأن السلطان عبد العزيز العثمانى قد عمر البناء . ورأينا خانا هناك يظن أنه بقية من قصر الأمراء الذى كان ينزل به أبناء الخلفاء ، وذهبنا إلى منارة فى سوق الغزل قائمة وحدها لاتتصل بمسجد ، فذكرتنى قول أبى العلاء فى حصن أفامية :

وحيد بثغر المسلمين كأنه　　بفيه مُبقّ من نواجذ أدرد

وقد قيل إن المنارة ،فيما يظن ، بقية من المدرسة النظامية التى بناها فى القرن الخامس الهجرى الوزير نظام الملك وزير السلاجقة .

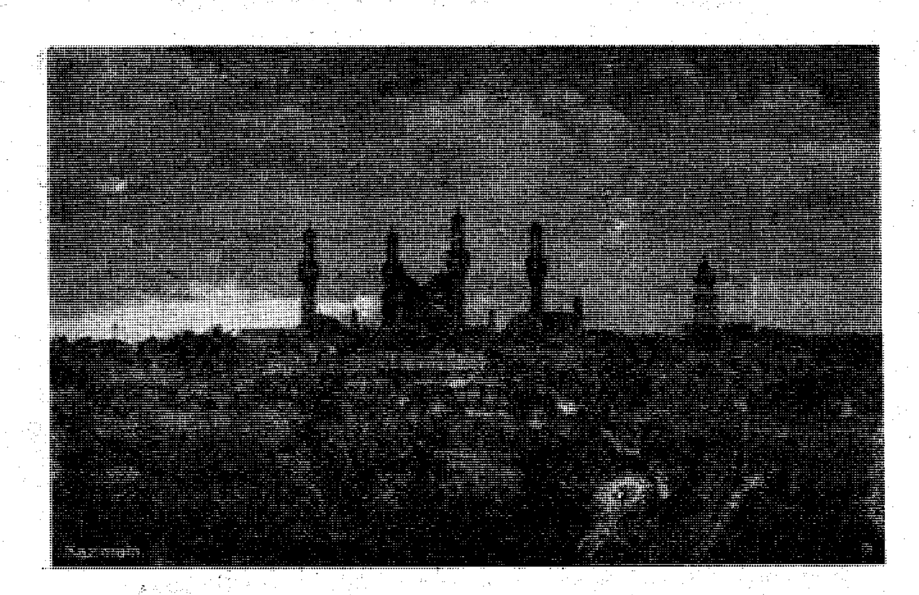
ثم سرنا إلى الخندق وهو من آثار سور بغداد ، وبجانبه قطعة من من السور ، وباب ضخم من أبواب المدينة كان يسمى باب خراسان . ويظن أنه من عمارة الخليفة المستنصر بالله ، ثم إلى قصر على دجلة يسمى قصر المأمون كان معسكراً أيام العثمانيين ، ويظهر أنه من آثار السلاجقة .



منارة سوق الغزل

ثم توجهنا والساعة إثنتا عشرة ونصف إلى القصر الملكى ، قصر جلالة الملك فيصل فشرفنا بكتابة أسمائنا هناك . و بعد عشر دقائق بلغنا البقعة المباركة — الأعظمية حيث مسجد الإمام الأعظم أبى حنيفة وقبره . والمسجد حسن النظام جميل المرأى ، وفى ناحية منه حجرة بها ضريح الإمام عليه مقصورة كتب عليها أنها صنعت بأمر جلالة الملك فيصل . وأمام المسجد فناء ينتهى إلى مدرسة الشريعة وما يتصل بها تسمى كلية الإمام الأعظم . ثم فصلنا من الأعظمية إلى المتحف العراقى . وقد تفضل أمين المتحف السيد عبد الرزاق الأعظمي فبين لنا ما هنالك من آثار البابليين والأشوريين والعلاميين والآثار الإسلامية . وعسى أن يبلغ المتحف بهمة إخواننا أهل العراق مكانة تليق بمجد بغداد . خرجنا من المتحف والساعة اثنتان ونصف بعد الظهر . وقد بقي المتحف من أجلنا مفتوحاً بعد موعد إقفاله

ثم قصدنا الكاظمية ، وهى على مقربة من بغداد غربى دجلة ، وبها مسجد الإمام الكاظم والإمام الجواد . بلغنا المسجد المبارك فلما دخلنا بهرنا مرآه جمالا وزينة ، رأينا فناء واسعاً يحيط به أبنية فيها مكتبات ومدارس ، و يحيط الفناء بمسجد رائع يواجه القادم بباب جميل قد غُشيت علياؤه بصفائح الذهب ، وارتفعت من فوقه ظُلة عظيمة من الخشب ينهض بها عمودان رفيعان يغشيهما البلور . وقد لاحت فوق المسجد وعلى جانبيه قبة ومنارتان فى حُلة من الذهب الوهاج وقفنا عند الباب فدعونا ثم اجتزنا العتبة فإذا قباب صغيرة حول القبة الكبيرة فى لألاء من البلور والذهب



مسجد الكاظمية

والفضة يحسر الطرف دون تأملها ، وليس يفي الوصف بهذه المشاهد الجميلة التى تمثلت لنا بناء من الأمانى أبدع فيها الخيال. زرنا الإمامين ثم رجعنا إلى بغداد وفى النفس حنين إلى معاودة المسجد العظيم .

ثم ذهبنا والساعة تسع من المساء إلي فندق كارلتون إجابة لدعوة المعلمين فألفينا جمعاً حافلاً من رجال العلم • وإنى أكل إلى جريدة صدى العهد وصف هذه الحفلة قالت :

« هبطت رسالة من مصر إلى العراق فى أشخاص طلابها النبهاء وأساتذتها الكرام • وفى العراق حنين إلى قلب الشرق النابض : مصر المحروسة ، وفى قلوب أبنائه وجيب أحدثته النكبة المشتركة والأمل الأوحد المنشود !

فمصر أم الحضارات وحاملة لواء الثقافة الحديثة شقيقة دار السلام مهد الخلفاء وصاحبة المستنصرية وذات المجد التليد !

ومصر المعذبة المضطهدة تربطها بالعراق الفجيع بحريته السليبة روابط الإخاء والتاريخ المشترك والجهاد العنيف !

فما إن وطئت أقدام « البعثة » أرض الرافدين حتى شهدت الناس تتحدث ، والوفود تهرع إلى نزل كلارج لتحية رسل مصر والسلام على أبناء الشقيقة ونخبتها الصالحة !

١ — الحفلة التكريمية :

وبعد أن انتهت الزيارات الرسمية أقامت لهم دار المعلمين العالية حفلة

شاي فى أوتيل كارلتون المطل على دجلة ، وكان ذلك مساء أمس الأول حيث لم تأزف الساعة التاسعة زوالية حتى غصت القاعة الكبرى لفندق كارلتون بالمدعوين من الأساتذة والوجهاء ورجال المعارف ، وقد حضرت نخبة من الأوانس والسيدات فى الحفلة ، وقد افتتحها الاستاذ درويش المقدادى بكلمة ترحيب أوضح فيها الروابط المتينة بين القطرين الشقيقين تلك الروابط التى تمت إلى مدنيتهما القديمة ، وعرج إلى « السياسة » التى عملت على إبعاد الشقة بين بلدين متحدين ففرقت بينهما دسائس المستعمرين ومكرهم :

ثم أعقبه الشاعر الفيلسوف الأستاذ جميل صدقى الزهاوى فألقى قصيدة استعيدت أكثر أبياتها .

ثم تلاه الأستاذ أحمد أمين مؤلف كتاب فجر الإسلام ، وتحدث عن تاريخ العراق القديم ، وما كان له من مركز فى عهد الخلفاء العباسيين وكيف كان منارة تشع منها أنوار العلم والعران ، وكيف خبا ذلك النور وآل إلى جهل وأسر واضطهاد ! وتمنى لو يرد العراق هذه الزيارة إلى مصر فى العام المقبل !

ثم أعقبه الأستاذ عبد الوهاب عزام . (وهو شقيق النائب الوفدى الكبير الأستاذ عبد الرحمن عزام . صاحب المقالات الضافية فى البلاغ الأغر) ، وألقى خطبة بليغة عن الوحدة العربية وضرورتها فى هذا العصر الذى يسعى فيه المفكرون إلى وحدة عالمية ويسعى فيه الغرب إلى وحدة أوروبية

ثم أخذ تصوير الحاضرين وهم يتناولون الشاى ، وأخذوا يتبادلون المقاعد للتعرف فيما بين الحضور » .

انفض الجمع والساعة إحدى عشرة وفى القلوب ذكرى خالدة من هذا الحفل الذى جمع لأول مرة بعثة الجامعة المصرية بعلماء العراق ، وكان فاتحة عهد من التعاون والتواد لا ينقطع إن شاء الله .

— ٦ —

وفى يوم الاثنين زرنا المدارس : مدرسة المعلمين العليا ، والمدرسة الثانوية ، واستمعنا للدروس . ولا يسع زائر مدارس العراق إلا الإعجاب، على قدر ما توحى إليه النظرة العجلى ، بجد القوم ومحاولتهم التكمل جهد الطاقة . والله ييسر لهم كل عسير حتى يبلغوا بأمتهم أعلى الدرجات . وقد اختلط أعضاء البعثة بالطلبة فى فناء المدارس فتحدثوا و بث كل الآخر ما فى قرارة قلبه ، وأخذت صورهم أثناء ذلك . وأرجو معذرة الإخوان العراقيين حين أوجز الكلام وأطوى المعانى الطويلة فى الألفاظ القصيرة فمجال الكتابة ضيق ، والكتاب يعرف بعنوانه .

ثم عبرنا دجلة إلى الشاطىء الآخر أو ذاك الصوب ، كما يقول البغداديون، فزرنا مدرسة المعلمين الابتدائية، وهى فى بناء ضخم كان دار النيابة إلى عهد قريب، قابلنا حضرة مدير المدرسة الفاضل الدكتور متى عقراوى ، فلقينا من حفاوته

وحفاوة المعلمين والطلبة ما ملأ أنفسنا شكراً . وقد اجتمع طلاب المدرسة في مدرّج عظيم كان قاعة النواب من قبل ، ثم جلسنا جميعاً نستمع كلمة الأستاذ المدير ، ثم كلمة لأستاذنا العبادى نصح فيها الطلبة ، وأبان عن واجب المعلم ، وأثره في تقويم الأمة ، وحث على أن يغتبط المعلم بأداء واجبه غير ملتفت إلى شيء آخر .

أنشد الطلبة نشيداً حماسيا موقعاً على الموسيقى ، تولى إرشادهم فيه الأستاذ مدير المدرسة ، وأنشد الطلبة المصريون نشيداً مصريا . ثم خرجنا وخرج الأساتذة والطلبة مودعين . ووقف الطلبة أمام المدرسة على شاطىء دجلة المجيدة ينشدون أناشيدهم . ولله هذه الأصداء يدوى بها الفضاء تبعثها قلوب متوقدة في أصوات مرتلة موزونة ! لست أنسى هذه الأهازيج تدوى بها دجلة ، والزوارق تسير بنا على حدائها حتى بلغنا الشاطىء الآخر والطلبة وقوف ينشدون . لقد سعد القلب والعين والأذن بما لا يتاح على الزمان إلا قليلا . ولا يزال في قرارة نفسى منظر الطلبة ودوى أغانيهم بين شاطئى الزوراء .

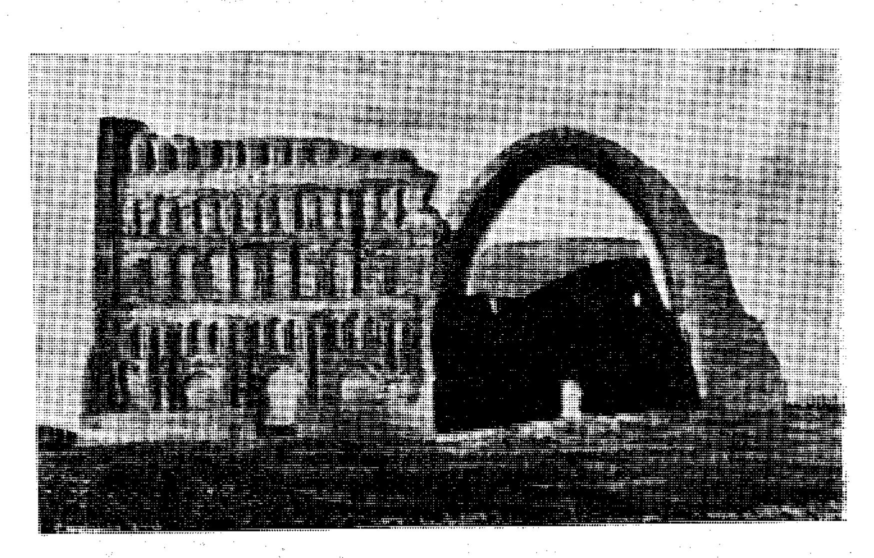
وللعراقيين عناية بأناشيد الطلبة يكثرون منها ويحس السامع أنها أناشيد تملؤها الحماسة والآمال لا يحد معانيها رغبة ولا رهبة ، فهي ترجمان نفوس حرة أنطقت أناشيدها بما في سرائرها . وقد أهدى إلى الفاضل الأديب السيد طالب مشتاق سكرتير وزارة المعارف كراسات فيها من الأناشيد

المعجبُ المطرب . فله الشكر الخالص . ثم عبرنا إلى العدوة الشرقية فزرنا مدرسة الطب ومدرسة الحقوق .

وفى المشىّ ذهبنا إلى أبيض المدائن ، إلى البقية الفذة التى ثبتت على أعاصير القرون من مدائن كسرى . فصلنا من بغداد إلى الجنوب الشرق فاجتزنا نهر ديالى الذى يَرفِد دجلة ، وانتهينا إلى البقعة التى تسمى « سلمان باك » أى سلمان الطاهر . وفيها قبر سلمان الفارسى رضى الله عنه .

على مقربة من قرية « سلمان باك » بناء شاهق هو إيوان كسرى : ثلاثة جُدُر هائلة عاتية مشيدة بالآجر ، ترسم على الأرض ثلاثة أضلاع من مستطيل . وينتهى الجداران الجانبيان بعقد عظيم رائع ، هو سقف الإيوان ويمتد من مدخل الإيوان إلى يمينه أو يسار الداخل بقية جدار رفيع فيه ثلاث طبقات من النوافذ عدا الطبقة الأولى . وكان إلى يسار الإيوان جناح آخر انهدم منذ عهد قريب . ووراء البناء بقايا أقواس وجدر يحار الطرف فى جلالها ، (وقد انهدمت علياء الجدار الخلفى وجانب من السقف) .

وقد بلغ قوس الإيوان وسمكه حدا يمكن الإنسان أن يصعد على ظهر البناء حتى القمة متشبثاً بالفجوات التى تصدع عنها . وإنّ الإنسان حين يقف أمام الإيوان خاشعاً ليتخيل نسراً هرما ذهبت الحادثات بأحد جناحيه وهاضت الآخر وحصّت ريشه ، ولكنه ما زال فى كبريائه يتجلد رافعاً



ایوان کسری

رأسه طامح الطرف يرى بنظراته أقطار السماء يحاول أن يرجع فى الأوح سيرته الأولى .

فهو يبدى تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسى

قد وقف البحترى من قبل ألف ومائة عام يعجب من جلال الإيوان ويقرأ على جدره المبرّ ، بين آيات الصور . فأوحى إليه قصيدة هى فى الشعر كإيوان كسرى فى القصور :

حلم مطبق على الشك عينى أم أمانىّ غيرن ظنى وحدسى

ليس يدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس

مشمخر تبدو له شرفات رفعت فى رءوس رضوى وقدس

غير أن الصور التى وصفها البحترى قد لحقت بمصوّرها :

فاذا ما رأيت صورة إنطاكية (م) ارتعت بين روم وفرس

والمنايا موائل وأنو شروان (م) يزجى الصفوف تحت الدرفس

فى اخضرار من اللباس على أصفر (م) يختال فى صبيغة ورس

وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وإغماض جرس

من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس

تصف العين أنهم جد أحياء (م) لهم بينهم إشارة خرس

يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس

ووقف الشاعر الفارسى الخاقانى بعد البحترى بثلاثة قرون وأنشد قصيدته الرائعة التى أولها :

هان أى دل عبرت بين أزديده نظر كن هان

إيوان مدائن را آيينه عبرت دان

« أيها القلب المعتبر سرح نظرك واتخذ من إيوان المدائن مرآة للعبر »

ولا يزال الإيوان قائماً يوحى البيان والعبر إلى كل معتبر .

تركنا الإيوان قبيل الغروب راجعين إلى بغداد .

وبعد المغرب ذهبنا إلى فنـدق كارلتون لتناول العشاء أجابة لدعوة نادى المعلمين . وكان هناك حضرة صاحب المعالى عبد الحسين الجلبى وزير المعارف ، وجماعة من كبار رجال الحـكومة لا سيما رجال وزارة المعارف ، وطائفـة من الأدباء وبعض رجال الصحف . وقد أنشد الشاعر الـكبير معروف الرصافى قصيدة أشار فيها إلى نهضات البـلاد الشرقية . وخطب الأستاذ أحمد أمين والدكتور متى عقراوى . وإليك وصف الحفلة فى إحدى صحف بغداد . قالت :

« وزعت الأماكن على المائدة . وقيـل حينئذ إن فخامة نورى باشا السعيد رئيس الوزراء لم يتمكن من الحضور ، فجلس فى محل الشرف معالى عبد الحسين الجلبى وزير المعارف ، وإلى يمينه حضرة الأسـتاذ الـكبير السيد أحمد أمين رئيس الوفد المصرى ، وإلى يسار معالى الوزير سـعادة طه باشا الهاشمى . . . وعن يمين حضرة رئيس الوفد سعادة رشيد بك الخوجه مدير المعارف العـام . . . وفى الصفين الآخرين حضرة الأستاذ الزهاوى ، وحضرة الأستاذ الرصافى وغيرهما بحيث أن المدعوين أشـغلوا

خمسين كرسيا ، ٢٤ منها جلس عليها أعضاء الوفد ، و٢٦ سائر المدعوين وفى جملتهم أرباب الصحافة وأعضاء نادى المعلمين وغيرهم .

ثم ألقى الدكتور متى عقراوى مدير دار المعلمين خطبة نفيسة ، رحب فيها بأعضاء الوفد الكريم ، وبحث فى وجوب وكيفية توحيد الثقافة العربية فى الأقطار الناطقة بالضاد . وأبدى بهذا الشأن الخطير آراء فلسفية ناضجة كان لها أحسن وقع فى القلوب » .

وختم الحفلة حضرة الأستاذ الجليل السيد أحمد أمين رئيس الوفد المحتفل به بخطاب بليغ شائق . . . ثم ختم خطابه قائلا : « أكرر لكم الثناء وأعترف بما ملأ قلبى شكراً وإخلاصاً وامتناناً من كرمكم وعواطفكم السامية » .

وبعد العشاء ذهبنا مع الأستاذ جواد الدجيلى المحامى — أخى صديقنا الأديب الأستاذ كاظم الدجيلى سكرتير قنصلية العراق بمصر الآن — إلى الكرخ فشهدنا فى الحسينية مجلساً من مجالس العزاء التى يجتمع فيها إخواننا الشيعة لذكرى مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب — فرأينا داراً واسعة وجمعاً حاشداً فقابلنا إخواننا بالترحاب وخطب أحد طلبة المعلمين . وهذه الدار يدعيها الآن البهائيون وقد رفعوا أمرها إلى عصبة الأمم — ونحن نثبت هنا وصف جريدة العالم العربى لهذه الزيارة بقلم مشاهد :

احتفاء الشيعة بالوفد المصرى

طلب الوفد المصرى إلى الأستاذ جواد الدجيلى المحامى أن يشاهد مأتماً من مآتم عزاء سيدنا ومولانا الحسين عليه السلام التى تجرى عادة فى العراق ، وعندما رأى رغبتهم فى ذلك شديدة أوعز إلى القائمين بالعزاء أن يستعدوا بالاحتفاء بالوفد الكريم . وقبل أن تأزف الساعة العاشرة ونصف الزوالية من مساء الإثنين الماضى ، وقد توافد إلى المأتم الجموع الغفيرة من بغداد والكاظمية حتى غص بهم المجلس مع سعته . وقد ملئت السطوح والأزقة حتى بلغ بهم الشوق والحفاوة أن وقف الناس على جانبى الطريق المؤدى إلى الحسينية الكبيرة الواقعة فى جانب الكرخ حيث يقام العزاء يرحبون بالوفدالمصرى ، وكان يتقدمهم المحامى جواد الدجيلى إذ كان هو الواسطة الوحيدة للتعارف بهم ، وعندما استقر المجلس بهم قام أحد الشبان فألقى كلمة ترحيبية تناسب المقام نالت استحسان الجميع ، ثم تلاه حضرة الأستاذ عبد الوهاب عزام فشكرهم على الحفاوة التى لاقاها الوفد ؛ ثم ذكر طرفاً من سيرة الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ؛ وذكر مقتله بمناسبة وفاته ليلة ٢١ من شهر رمضان المبارك وذكر فى خطابه أن البلية العظمى بوفاة على بن أبى طالب قد أصابت المسلمين بصورة عامة ثم حثهم على التمسك بالوحدة الإسلامية وشكرهم على احتفائهم بهم ، وهنا جاء جمع عظيم أراد الدخول إلى ساحة الحسينية

فأحدث ضوضاء ، فقام المحامى جواد الدجيلى وخطب بالجمع ومن جملة خطابه قوله :

« أيها الإخوان إن الأمم فى العالم يحصل عندها اجتماع أكبر من هذا الاجتماع ولكن السكوت يسودهم ولا يمكن للأمم الراقية أن تحل محلا رفيعاً وتكسب حسن الأحدوثة مالم تخلد إلى الهدوء والنظام . . . وبما أن الوفد قد حل بين ظهرانيكم وهو يود أن يشاهد مأتماً من مآتم سيدنا الحسين عليه السلام فأرجو أن تكونوا مثالا للأخلاق لكى يرى الوفد ماتخفيه جوانحكم النقية من الفرح والاستبشار حتى يعلم الجميع أن الطائفة هى من الطوائف التى لايستهان بأمرها والتى تقدر أهل العلم وحملة الثقافة العربية فى الأقطار الإسلامية وخصوصاً مصر، وأنه لايوجد تعصب عندهم خلاف ماهو الشائع عنهم وقد ظهر ذلك جليا عندما شاهدوه وما لاقوه من الحفاوة والإكرام.

ثم قام الخطيب حضرة الأستاذ كاظم الكاظمى وافتتح الحفلة مرحباً بمقدم الوفد وتطرق بالبحث إلى كتاب (فجر الإسلام) لصاحبه الأستاذ أحمد أمين، وقد كان حاضراً فى مقدمة أعضاء الوفد المصرى ، وما أودع فى الكتاب من النيل من كرامة الشيعة والتهم الموجهة ضدهم فيه مع أنهم بريئون منها ، وذكر الخطيب أن الأستاذ (أحمد أمين) لم يعلم أن الشيعة كإخوانهم أهل السنة من حيث تعدد الفرق وإن أحكمهم الإمامية الأصول لأن مستنداتهم

كلها مستندة عن رسول الله برواية أهل بيته ولم يودعوا فى كتبهم خبراً مالم يثبتوا صحة نقله ، ثم يأبون أن توصم طائفتهم بعقائد غيرهم . . .

ثم ذكر الخطيب أن ابن حزم الظاهرى وأمثاله قد صوب سهام انتقاده نحو هذه الطائفة وأئمتهم الأطهار وذلك بما أوحته إليه مخيلته السقيمة بينما نجد من منصفى علماء السنة والجماعة من ذكروا خلاف ذلك . . وعلى هذا لايجوز الأخذ بأقواله والتعويل عليه . . .

ثم رجا الخطيب من الأستاذ أحمد أمين إذا أراد أن يكتب فيما بعد أن يتثبت بالنقل نحو هذه الطائفة حفظاً للجامعة الإسلامية ؛ نظراً للحالة الحاضرة وما عليه العالم الإسلامى من تفرق الكلمة بين أبنائه ، لاسيما والعالم الغربى يستخف من سوء العادات المنتشرة فى الشرق . وصاح ، « أرجو أن تكونوا متحدين تجمعكم الجامعة الإسلامية وبالأخص فى هذه الأيام العصيبة ... ! » .

وبعد انتهاء خطبته انفض الجمع وقد احتفل بوداع الوفد بمثل ماقوبل به .

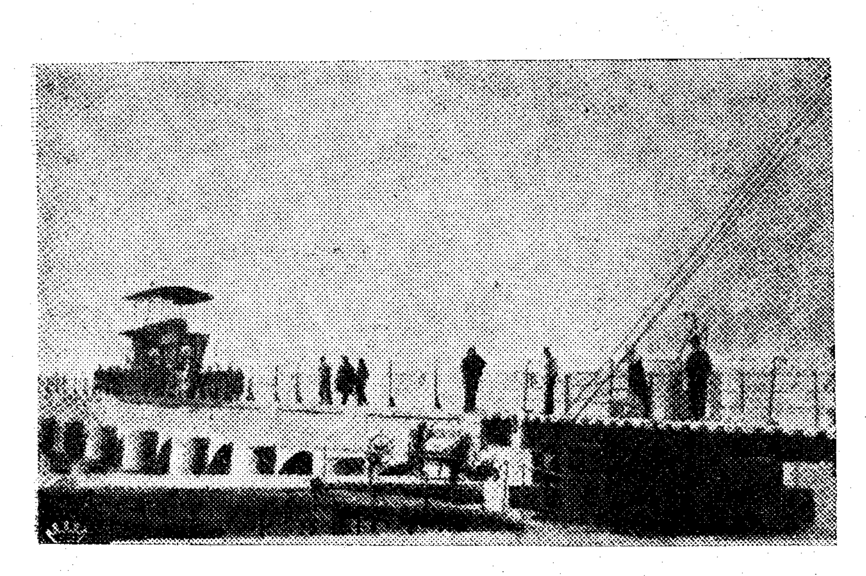
ثم خرجنا إلى دار كبيرة جميلة البناء والأثاث ، دار السيد محمد حسن خان من كبار الشيعة فى الهند ، فلما استقر بنا المجلس دخل شيخ وقور فحيا ورحب ثم تحادثنا قليلا ولما عرف أنى أعرف الفارسية شرع يحدث عن شعرائها وينشد لنفسه أبياتاً من الشعر الفارسى . وبعد قليل خرجنا شاكرين نؤم الشاطىء الشرقى فأوينا إلى الفندق وقد أجهدنا مالقينا

فى يومنا هذا من مشاهد الماضى والحاضر ، وما آنسنا من آيات المودة حيثما حللنا .

— ٧ —

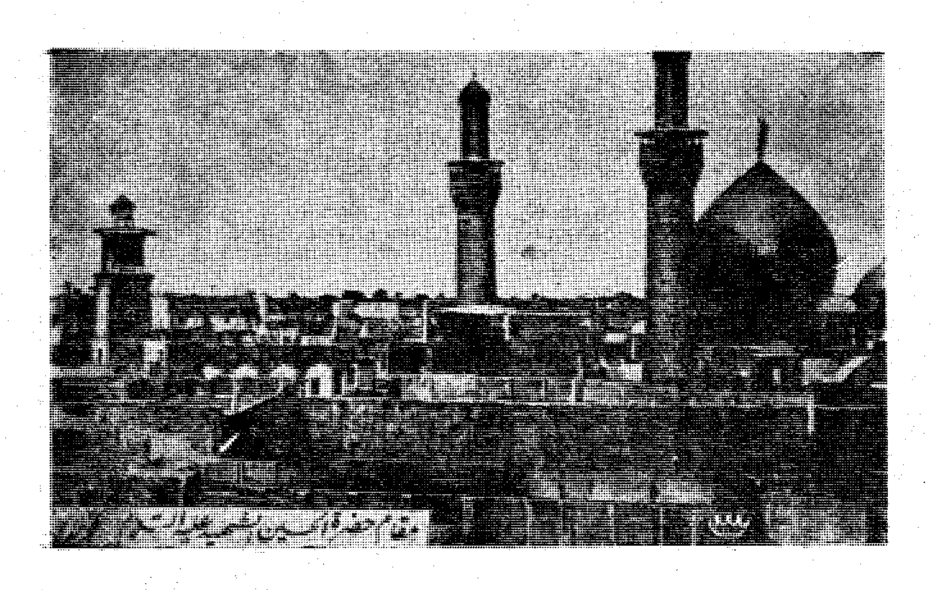
أصبحنا يوم الثلاثاء نتجهز للسفر إلى كربلاء ومعنا الأخ النجيب السيد عزيز سامى المفتش بوزارة المعارف — عبرنا دجلة خارجين من بغداد والساعة عشر من الصباح وسرنا إلى الجنوب فررنا بقرية اسمها المحمودية ثم أخرى تسمى السكندرية ، ثم ملنا قليلا إلى الغرب حتى بلغنا المسيّب على شاطىء الفرات والساعة اثنتا عشرة . وفى المسيب قابلنا من بها من رجال التعليم فساروا معنا إلى الهندية حيث القناطر التى تسمى سدة الهندية ، قناطر على الفرات لحبس المياه وتوفيرها للرى . وهى شاهدة بما يبلغه العراق من الخصب والرفاه حين تقام أمثالها فى مواضع الحاجة من دجلة والفرات . فهناك ينشعب من الفرات أربع شعب عظيمة : إثنتان فى الشرق إحداهما نهر الحلة ، واثنتان فى الغرب إحداهما نهر كربلاء .

عبرنا الفرات على قنطرة الهندية ميممين كربلاء ، فاتجهنا نحو الشمال الغربى والساعة واحدة مؤملين أن نبلغ غايتنا بعد نصف ساعة ، وقد تحول الأوحال دون الآمال ! كان بعض الطريق وحلا فارتطمت فيه بعض السيارات مرة بعد أخرى ثم استقام لنا الطريق من بعد فاذا حدائق كربلاء والساعة اثنتان وربع . وفى كربلاء نخيل وأشجار كثيرة مرت عليها السيارات نصف ساعة حتى دخلنا البلد ، فسرنا إلى المدرسة المتوسطة حيث ألفينا مديرها



سدة الهندية

ومعلميها منتظرين معدّين كل وسائل الحفاوة والإكرام ، استرحنا قليلا ثم يممنا المسجد المبارك الذى به ضريح الحسين بن على رضى الله عنهما فرأينا مسجداً عظيما على نسق مسجد الكاظمية فى بنائه وزينته . ولجنا الباب إلى ساحة واسعة فاذا إلى اليسار جماعة قد وقفوا صفوفا يدقون صدورهم دقات موحدة موزونة وأمامهم منبر عليه خطيب يتكلم عليهم ؛ وإلى اليمين أبصرنا جماعة من النساء جالسات يولولن فى الحين بعد الحين مستمعات إلى محدث آخر ، وذلك أن اليوم كان من أيام ذكرى مقتل سيدنا على بن أبى طالب ، وقد دخلنا المسجد فاذا هو يدوى بالقارئين والداعين ، فزرنا الضريح المبارك ومنعنا جلال الموقف أن نسرح أبصارنا فى جمال المكان وما يأخذ الأبصار من زينته وحليته وروائه ، وبجانب المسجد مسجد آخر فيه ضريح العباس بن علي ؛ وفيه سرداب يهبط فيه نحو عشر درجات إلى مكان مغطى بشبكة من الحديد يسمونه المذبح ، ويقولون إن دم الحسين رضى الله عنه سال فيه حينما قتل فى فاجعة كربلاء . وهناك زاوية يقال إنها مولد المسيح عيسى بن مريم . ثم هناك حجرة فى ناحية من المسجد دفن فيها من ملوك القاجاريين آخرهم أحمد وأبوه محمد على وجده مظفر الدين والقبور ليست عالية وإنما هى بلاطات فى ناحية من الحجرة ، وقد علقت فى مقربة منها صور الملوك الثلاثة ، وودت لو أمكننا الوقت فأطلنا المقام فى هذا المشهد العظيم لأطيل الحديث عنه ، ولكنها كانت زيارة عجلان يكتفى بتأدية الواجب .



برحنا كربلاء والساعة خمس من المساء قاصدين النجف الأشرف ، فناوحنا الجنوب منحرفين قليلا إلى الشرق فى بيداء جرداء فبلغنا النجف والساعة سبع . والنجف مدينـة مسورة بنى سورها أيام ثورة الوهابيين الأولى ، خيفة على المدينة من عاديتهم . نزلنـا فى دار النائب الوجيه عبد الرازق آل شمسه فاستقبلنا هناك حاكم البلد (القائمقام) وكثير من العلماء والفضلاء . ثم سرنا إلى مشهد الإمام على . والمسجد إحدى آيات البناء عظمة وأبهة ونظاماً . فيه فناء عظيم يحيط به أبنية كثيرة رقيمة فيها معاهد للدرس ومساكن للطلاب والعلماء . وقد حدثت أن طلاب العلم فى النجف يزيدون على عشرة آلاف . ولا عجب فهو مشهد تهفو لذكراه أفئدة المسلمين عامة ولا سيما الشيعة منهم .

يحيط الفناء بمسجد عظيم يزيغ البصر فى جـــلاله وأبهته . مقدم المسجد كله والمنارتان الشامختان على جانبيه — كل هـذا مغشى بصفائح الذهب الخالص . ولـكن أنى للداخل إلى حضرة أمير المؤمنين على أن يعبأ بالذهب والزخرف .

دخلنا إلى المشهد العظيم وللناس حوله جؤار بالدعاء والقراءة ، فأطفنا به فى غشية من جلال الموقف ورهبة الذكرى . ولم يمنعنى روعة المقام من تسريح الطرف فى القبة الهائلة ، تبهر الأبصار فى حلل من البلور والذهب يتدلى منها المصابيح تُزرى بالتيجان المعلقة هناك . وقد رأينا تاجين أحدهما فوق المرقد الشريف وهو تاج الشـاه إسماعيل ، والآخر فى زاوية من القبة



يقال إنه تاج نادر شاه ويقال إنه تاج أحد ملوك الهند . وفى هذه القبة يقول بعض الناس :

قبة المرتضى علىّ إذا ما فضلوها أقول بالتفضيل
هى باء مقلوبة فوق تلك النقطة المستحيلة التأويل

ثم خرجنا إلى الرواق المحيط بالقبة فررنا بحجرة فيها قبر محمد شاه القاجارى ، عليه صفيحة من المرمر مزينة بنقوش ، وصورة ملكين ذوى أجنحة يحملان بينهما تاجاً[1] . ثم خرجنا إلى الصحن فمرّجنا على حجرة فى جانب منها مقصورة أخبرنا أن فيها قبر الشيخ كاظم اليزدى وابنه وقبر أمير بهبور . ورأينا صورة الشيخ كاظم وصورة ابنه معلقتين على سياج المقصورة.

ثم توجهنا إلى مدرسة الشيخ كاظم اليزدى وهبطنا بعض السراديب هناك فاذا طبقات ثلاث أو أربع تحت الأرض ينزل إليها نحو خمسين درجة . وكل طبقة تستمد الهواء من كوة صاعدة إلى ظهر الأرض . وفى السراديب آبار مُفضية إلى قنوات تتشعب تحت المدينة من مجرى واحد. والسراديب كما رأينا أعجوبة ناطقة بذكاء أهل النجف ونشاطهم وجدهم. وهى مأواهم فى الصيف لا محيص لهم منها . فان النجف الأشرف فى صحراء جرداء شديدة الحر . فإذا متعَ النهار هبط الناس جميعاً إلى هذه السراديب فيجدون بلداً آخر بارد الهواء . وقد حدثنا أن المقيم فى السراديب يحتاج أحياناً إلى اتقاء بردها بالغطاء بينما الحر على ظهر الأرض يأخذ بأكظام الناس.

---

(١) ينظر الكلام على قبور القاجاريين فى مدينة قم فى الكلام على رحلة إيران : (بين القاهرة وطوس)

ثم شرفنا بزيارة العلامة المحقق والمجتهد الـكبير « السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء» وهو أحد مجتهدين ثلاثة فى النجف هو عربى والآخران إيرانيان . فلما استقر بنا المجلس فى الطبقة الثانية من داره شرع يحدثنا ؛ فعاتب الأستاذ أحمد أمين على ما كتبه عن الشيعة فى كتاب « فجر الإسلام » ولامه بما كتب غير راجع إلى أمهات كتب الشيعة . وتلك يقظة من إخواننا جديرة بالإعجاب والثناء ، شاهدة باطلاعهم على كل ما يكتب فى العالم الإسلامى . ثم حدث عن سفره إلى مصر منذ زمن بعيد وما قال فيها من الشعر . ثم اقترح عليه بعض الحاضرين أن يشهدنا درساً من دروسه وألحوا عليه فأجاب الدعوة إكراما لضيوفه ؛ جزاه الله خير الجزاء .

جلس الأستاذ العلامة على كرسى وأحاط به طلابه وكلهم رجال عليهم سن الأربعين أو ما يقرب منها ، وكلهم وقور فى سمته وبزته . تـكلم فى مسألة من علم الـكلام ، مسألة واجب الوجود ، ثم ثنى بتفسير الآية : « ولا تؤتوا السفهاء أموالـكم ... الخ » . والطلبة فى أثناء ذلك يسألون ويجادلون ، قد رفعوا الـكلفة بينهم وبين شيخهم . وقد سمعنا العجب من بيان الأستاذ وغزارة علمه على قصر الوقت . ثم نزلنا إلى المـكتبة فاطلعنا على نوادر الـكتب المخطوطة وودنا لو اتسع الوقت لنقضى اللبانة من هذه المـكتبة المعمورة . ثم رجعنا إلى الأستاذ فشكرناه وودعناه فرحين بما أتيح لنا من السرور والفائدة بلقائه وشهود مجلسه .

رجعنا بعد إلى الدار التى نزلنا بها دار آل شمسه ، فجلسنا نتحدث

م — ٥

ثم دعينا إلى المائدة فتعشينا .

وبينما نحن فى حديثنا والساعة تسع ونصف من المساء إذ سمعنا دوى طبل هائل وصلصلة سلاسل ، فاطلعنا من الدار على موكب هائل فيه جماعة يضربون ظهورهم بسلاسل من الحديد معقودة ويصيحون : أى تشنه لب حسين واى . ومعناه : آه يا حسين الظمآن . وكان مرآهم وصخبهم فى هدوء الليل موحشاً مهيباً . وأهل السلاسل أو أهل الزناجير جماعة من النادبين شهداء آل البيت رضوان الله عليهم . وطائفة أخرى تسمى اللاطمية وهم الذين يلطمون صدورهم ، وأخرى تسمى أصحاب السيوف وهم الذين يضربون أنفسهم بالسيوف ولهاً لذكرى مقتل على والحسين . أمضينا ليلتنا فى دار آل شمسه مغمورين بحفاوتهم ورعايتهم .

— ٨ —

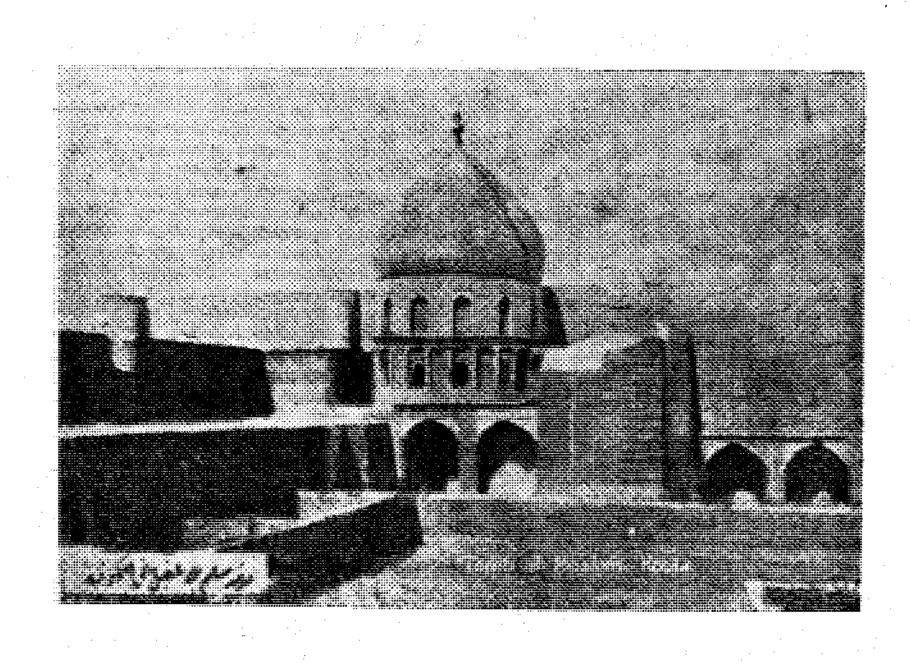
ثم أصبحنا مزمعين السير إلى الكوفة فخرجنا من النجف والساعة سبع وسبع وأربعون دقيقة من الصباح ؛صباح الأربعاء ٢٤ رمضان — ١١ فبراير —

الكوفة قبة الإسلام ومنزل العرب ومهد علوم العربية وملتقى العرب والعجم فى حضانة الإسلام ، الكوفة التى خط مسجدها ليسع أربعين ألف مصلٍ ، وذلك عدد المقاتلة من أهلها إذ ذاك ثم زخرت بالعمران واستبحرت ، الكوفة التى كانت تحوى أكثر من ثمانين ألف دار عربية ، الكوفة التى مهدت حجرها لعلوم العربية وآدابها ، وللعلوم الإسلامية على اختلافها — أين هى اليوم ؟ سرنا بالسيارات عشرين دقيقة من النجف إلى مسجد

الكوفة ، والمسجد كان سرة المدينة . وهو الآن قائم وحده لا يحيط به إلا أكوام من التراب . فقد ذهبت الأحداث بالكوفة كلها إلا المسجد المبارك الذى يقوم كالشيخ الهرم اجتاح الدهر أهله وامتد به العمر . والمسجد ساحة واسعة يحيط بها أروقة ضيقة تدعمها عمد مبنية ؛ مشهد عظيم جليل يهولك بماضيه قبل أن يروعك بحاضره . وفى وسط المسجد سرداب يقال إنه الموضع الذى صنع نوح فيه السفينة والذى فار فيه التنور . وعلى مقربة من السرداب أسطوانة من حجر منصوبة ، أقامها السيد مهدى الطباطبائى لتكون مزولة ؛ ولكن الناس يروون فيها أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قذف بها إبليس فما زالت ، كسهم النميرى ، تتبعه حيثما سار حتى عاذ منها بمسجد الكوفة فسقطت هناك . تقدمنا إلى رواق القبلة فاذا فى المحراب مقصورة صغيرة عليها شبكة من الحديد هى ، فيما يقال ، المكان الذى قتل فيه أمير المؤمنين على . وحسب الإنسان حسرة وحزناً أن يقف فى مقتل على فيذكر تلك الضربة التى ما يزال الإسلام يدمى منهـا . وعلى المحراب كتابة قرأت منها بيتين بالفارسية أحدهما :

بسجده بود بدر كاه خالق وهاب زدند تيغ بفرق على دراين محراب

ومعناه : « ضرب مفرق على بالسيف فى هذا المحراب ، وهو ساجد على عتبة الخالق الوهاب » خرجنا من باب فى الجانب الأيسر من المسجد فاذا حجرتان عن اليمين والشمال ؛ إحداهما مدفن مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، والأخرى مدفن هانىء بن عُروة المرادى ، الذى آوى مسلماً



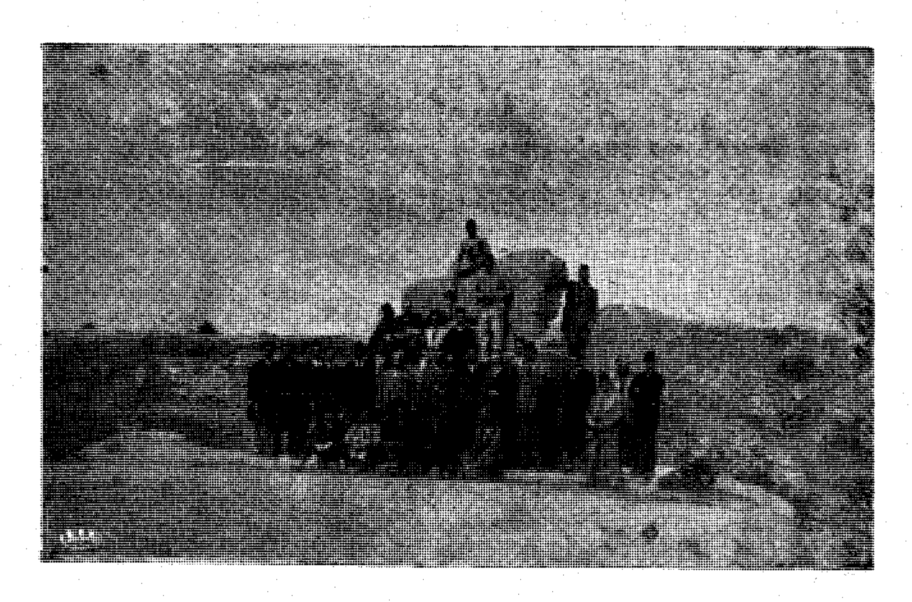
حين قدم الكوفة من قبل الحسين ، وقد ألقى مسلم من أعلى القصر فمات .
وصلب عروة :

فإن كنت لاتدرين ما الموت فانظرى إلى هانىء فى السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يهوى فى ثياب قتيل . . . الخ

خرجنا من المسجد نسرح الطرف فيما حوله فأشار دليلنا ، وهو خادم المسجد ، إلى أكوام من التراب دائرة حول أرض واسعة . فقال : هذا مكان قصر الإمارة . ولم نرنحن فى مسرح الطرف إلا أكواماً من التراب هى بقايا الكوفة قبة الإسلام :

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى أبلاك

وسرنا والساعة ثمان وأربعون دقيقة إلى الفرات حيث رأينا بلدة صغيرة هى الكوفة الحديثة . وهناك جسر معقود على السفن عبرناه إلى الشاطىء الشرقى نؤم أطلال بابل ، وهكذا تسلمنا أطلال المجد إلى أطلاله ، ونترك قطعة من التاريخ محطمة لنطلع على مثلها . مررنا بالحلة مدينة صفى الدين الحلى الشاعر ولم يكن فى حسباننا النزول بها ، ولكن وجدنا أهلها ينتظروننا ، فنزلنا إلى المدرسة المتوسطة بين أناشيد الطلبة ودخلنا حجرة المدير فجلسنا قليلا ورأينا على الجدار صورة سعد زغلول باشا . ثم زرنا حجرة الدراسة وسألنا الطلبة فأعجبنا منهم ، على صغر سنهم الجرأة فى الإجابة والحماسة فى إنشاد الشعر والإحاطة بما يلقيه المدرس ، والحماسة والنشاط سمة نشء العراق كله . وذهبنا من المدرسة إلى نادى الموظفين



اسد بابل وعنده أعضاء الرحلة من أساتذة الجامعة المصرية وطلابها

فجلسنا قليلا على نهر الحلة ، يحيط بنا أهل الحلة الكرام مرحبين يؤسفهم ضيق الوقت وقصر الزيارة .

* * *

أهذه بابل سحر القرون الخالية ، وبقية الأحداث العادية ؟ ربوة من التراب عاليــة يمشى الزائر فيها على أكداس من الأطلال ، جدر وحجر بقيت من معابد ، وقصور بقيت على الدهر بعض معالمها ، وكلمات بقيت من سطور أمحى عليها الزمان الأمى . هــذا أسد بابل قــد استبيح عرينه ؛ وذهبت هيبته ، فهو فى خيسه ذليـــــل ، يرمى بنظراته أطــلال الديار وأحــداث الأعصار ، وما بابل فى ترابها ورمالها إلا سطر الخراب خطه القضاء ثم رمله (١)

فارقنا بابل والساعــة واحدة إلا عشراً ، وقد حرصت على أن آخذ من ذكرى بابل آجرة ، فجاءنى بعض الرجال بآجرة كبيرة حملتهــا إلى بغــداد ، فلما رأيتها سخرية الأصحاب وعبئاً على أعباء السفر ، خلفتها فى بغداد آسفاً أن أخرجتها من بين أهلها وأبعدتها عن رمسها ، ولــكن الأرض كلها أم رءوم .

بلغنا بغداد والساعة ثلاثة بعد الظهر فيممنا السوق نتزود من كتب العراق ومنسوجاته .

وسرنا إلى القصر الملــكى وقت الغروب فشرفنا بالجلوس على المائدة الملــكية فى حضرة جلالة الملك فيصل حفظه الله . ثم توجهنا إلى الــكرّادة

---

(١) رمله : جففه بالرمل كعادة الـكتاب قبل استعمال الورق النشاف .

فزرنا جلالة الملك على ونعمنا بحديثه ساعة ثم خرجنا . (وكانت السماء مصحية وقد هبت الريح فاصطخبت أمواج دجلة : وكان معنـا الأستاذ الصديق أحمد حسن الزيات ، فقال وهو فى العراء تحت السماء : مطر ! قلنا : أين ؟ قال ألا تسمعون الصوت ! ؟ : وهل تحس أنت ماء المطر ؟ فكانت إحدى فكاهات الرحلة وما أكثرها ، ولولا خوف الإطالة لسطرت منها المعجب المطرب) سرنا إلى مسجد الـكيلانى فزرنا فضيلة مفتى بغداد وسيادة النقيب ، وهناك دعينا إلى مائدة الشاى . قلنا : أعفونا فليس فى الإمكان تناول شىء الآن . قيل : فانظروا تمر بغداد ، فأحطنا بمائدة عليها من التمر أصناف هى كما وصف أعرابى تمراً فقال : « والله إنك لتضع التمرة فى فيك فتجد حلاوتها فى كعبك » ولـكننا وجدنا حلاوة التمر فى قلوبنا ، وخرجنا شاكرين حامدين نتمنى لو اتسع الوقت لإطالة المقام . لم نفارق مسجد الـكيلانى لنستريح فى الفندق بل عجلنا إلى مأدبة صاحب الفخامة نورى باشا السعيد رئيس وزراة العراق . وهناك رأينا الملأ من أهل العراق وزراء وزعماء وعلماء . وسرنى أن رأيت الحـكومة ومعارضيها فى مأدبة واحدة يجتمعون على إكرام بعثة الجامعة : هنا نورى السعيد باشا وهنا يس الهاشمى باشا . والله يسدد خطاهم جميعا إلى خير الأعمال .

وبعـد مأدبة رئيس الوزراء أسرعنا إلى سهرة الأستاذ الفاضـل ساطع بك الحصرى . وهناك استمعنا لشاعر بدوى يغنى على الرباب ؟ ويرتجل بين الحين والحين شعراً للترحيب بالمصريين . وكنت بجانب الشاعر

الـكبير الزهاوى فالتفت إلى وقال :

وليـــلة ربابهـا أبكانى كأنه عبر عن أشجانى
فقلت: ذكرنى الماضى من تحنانى وكان كر الدهر قد أنسانى

ثم أكرهنا سخـاء ساطع بك على أن نقف حـول مائدة أخرى لا أستطيع وصف ما عليها إلا أن توضع أمامى الآن .

ثم عدنا إلى الفندق وفى النفس ذكرى يوم طويل سعيد ، صباحه النجف الأشرف وضحوته الـكوفة ، وظهره الحلة وبابل ، ومساؤه المائدة الملـكية وأربع مآدب أخرى فى بغداد (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون .)

— ٩ —

يوم الموصل

غدونا يوم الخميس إلى القطار الذاهب إلى كركوك . وقد ألفينا القطار مجهزاً للأسفار البعيدة ، أعدت مقاعده لتكون مراقد عند الحاجة . وكانت سفرة ممتعة جرى فيها القطار عشر ساعات إلى الشمال فى سهوب واسعة معشبة تجرى فيها أودية كثيرة تفضى إلى دجلة . وفى الطريق أرض جبلية سار فيها القطار نحو خمسين دقيقة . وأنا أدع الجغرافيا لأربابها فلا أصف الأرض والمسافات . والزميل الأستاذ العدوى أقدر على ذلك . وقد قال الأستاذ بعد السفر بالقطار :

اسمعوا أيها الإخوان ! أقول وأنا جغرافى خبير : إن السفر بالقطار خير من السفر بالسيارات لأنى تعبت من ركوب السيارات ! ! فضحكنا وقلنا : قد صار التعب من علم الجغرافيا .

كركوك مدينة قديمة فى ولاية الموصل ، على مائة وستين كيلا إلى الجنوب والشرق من مدينة الموصل . وهى ملتقى الجنسين العربى والكردى ويتكلم أكثر أهلها اللغات العربية والكردية والتركية . ورأينا اللغة التركية تشارك العربية فى المحطة وتغلبها فى نادى كركوك حيث رأينا أكثر نشرات النادى بالتركية . وهى على حافة الصحراء ويجرى بها وادى الأدهم وتجود بها الفاكهة والبقول، وقدحدثنا أن بها نوعاً من الخيار طوله متران يسمى بالتركية (بام دركي) : أى عمود السقف ، وأن البطيخة يبلغ طولها متراً ودورها ثلاثة أرباع المتر .

ولكنا لم نبلغ من كركوك ما نريد ! فلا بلغتنا الموصل ولا أمكنتنا من التجول بها كثيراً . ذلك أنها استقبلتنا ببردها ومطرها ، والطريق إلى الموصل غير معبدة فهى لا تحمل السيارات بعد المطر .

ولكن الديار بأهلها ، وقد لقينا من الترحاب والإكرام فى كركوك ماهون علينا مطرها وبردها . قابلنا الأديب الفاضل ثابت نورى مدير المدرسة المتوسطة وآخرون من كرام الإخوان على المحطة فحملونا فى سياراتهم إلى الفندق حيث لبثنا ساعة نقسم الحجر بيننا ونستريح ثم خرجنا الى نادى كركوك ، وهو نادى كبير يظهر أنه كان من الأندية العسكرية فى العهد

العثمانى . وهناك أنسنا بعودة إخواننا وحديثهم وقابلنا سعادة المتصرف تحسين العسكرى بك شقيق فخامة جعفر باشا العسكرى فذكرنا بما نعرفه من آداب جعفر باشا . ودعينا إلى العشاء فطعمنا وتحدثنا شتى الأحاديث ثم خطب نورى بك ثابت وأجابه الأستاذ أحمد أمين . وبعد السمر عدنا إلى الفندق .

وكنت أنا والأساتذة أحمد أمين والعبادى والزيات نزلنا فى ثلاث حجرات متجاورات متميزات عن الحجرات الأخرى تعلو عليها بضع درجات وكأنها لقربها من السماء نالت من المطر نصيباً موفوراً فتحلبت السقوف فنقلنا الأسرة إلى مواضع الصحو من الحجرة وبتنا نرصد الجو فى سقوفنا وننام على نغمات الماء تتوالى على الأرض قطراته .

ولما أصبحنا أيقنا أن السفر إلى الموصل محال فلبثنا فى النادى مع مضيفينا الأفاضل إلى ما بعد الظهر . وكان المطر هطالا ثم انقطع ولاحت الشمس من نوافذ النادى ففرحنا وأنشدنا مهنئين الأستاذ العبادى :

الشمس لاحت من وراء النادى مشتاقة تصيح ياعبادى

وكنا جميعاً من عباديها ذلك اليوم .

وبعد الظهر سرنا إلى آبار النفط وهى آبار حديثة غنية تستغلها شركة من الإنكليز والفرنسيين والأمريكان فرأينا آباراً قد هيئت للاستغلال وغطيت. وصادفنا بئرا تحفر وقد شرع النفط يفيض منها ، فأرسل فى أنبوبتين طويلتين ليحرق بعيدا من البئر ، وذلك أن البئر حينما تستنبط تقذف بالنفط مشوباً بالطين فيختبر ويحرق حتى يعرف الخبراء أنهم بلغوا



ما يريدون من النفط أو لايزالون فى حاجة إلى الحفر .

كلما قذفت الأنابيب بالنفط استطار الحريق فى هدير كالأمواج الهائجة ترتطم بالصخرة ، وقد كان بحراً من السعير يموج لهبه ودخانه فيلفح وجوهنا على بعد ما بيننا وبينه . وقد رأينا هناك عجباً : أرضاً ينبجس منها اللهب ألسنة شتى لا ينطفىء ليلاً ونهاراً ، ولا تذهب به الريح ولا يخمده المطر . وإذا حك الإنسان بعصا أو حجر أديم الأرض على مقربة من هـذه النار اشتعلت . وهى نيران قديمة لا يعرف أول عهدها ؛ والناس يسمونها هناك بابا قرقر وهو أحد الأولياء نسبوا إلى كراماته هذه النار .

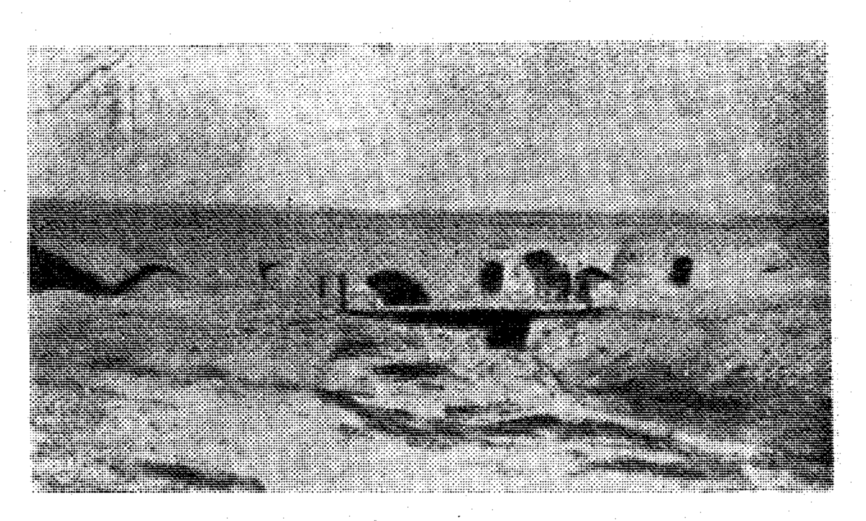
رجعنا إلى المدينة والساعة خمس من المساء فتهيأنا للعودة إلى بغداد وودعنا الأديب ثابت نورى وبعض الإخوان الـكرام إلى المحطة ووددت لو عرفت أسماء الإخوان الذين أنسنا بهم فى كركوك والذين لاتزال وجوههم ماثلة أمامى وإنى لراج منهم المعذرة .

سـار القطار والساعة سبع من المساء فيممنا بغداد فبلغناها والساعة ثمـان من صباح اليوم التالى السبت . . .

— ١٠ —

يوم سامرا

يوم السبت السابع والعشرون من رمضـــان كان يوماً أغر بين أيام



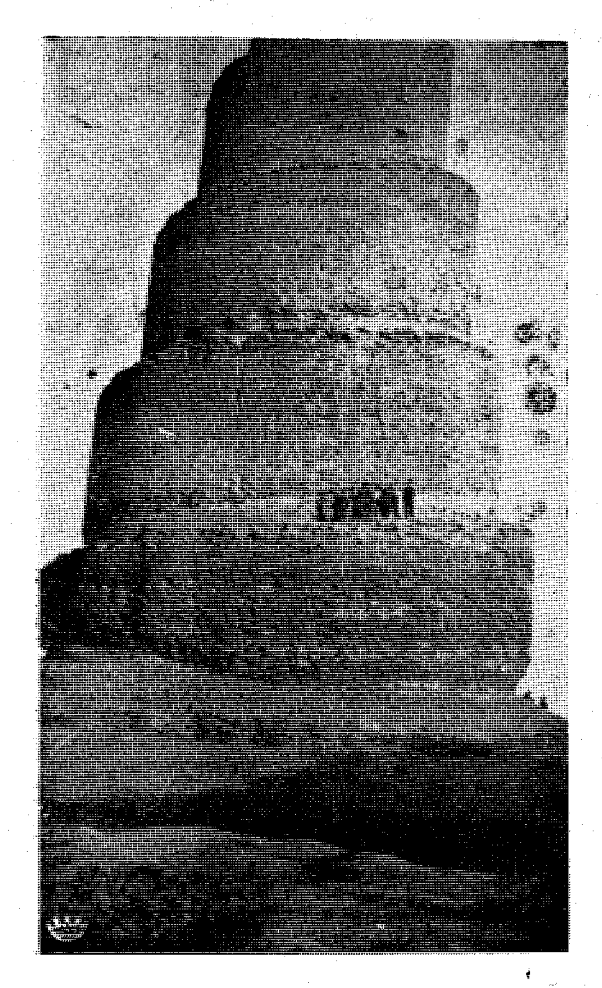
قنطرة المستنصر بالله

رحلتنا . كان أغر وإن كره الساخطون الذين سموه اليوم المصيب ، وسموا سامرا « غم من رأى » بدل « سر من رأى » . أليس يوم سامرا أبق الأيام فى نفوسهم أثراً وأعظمها وقعاً ؟

بدأنا رحلة سامرا بأغلاط ؛ غلطنا فى تقدير الطريق ظانين أنه ساعتان أو ثلاث . وغلطنا فى اختيار المطايا ، فأخذنا سيارات من بغداد صغيرة مكان سيارات حيفا القوية . ثم أضاع سائقو السيارات ٤٥ دقيقة فى التزود من البنزين .

خرجنا من بغداد والساعة إحدى عشرة وخمس وأربعون وواصلنا السير مسرعين ما أسمحت السيارات ، متعجلين حين تقف وكثيراً ما وقفتها العلل . تواعدنا قنطرة المستنصر فاجتمعنا عندها . هى قنطرة عظيمة من الآجر ذات ثلاث عيون بناها المستنصر بالله على نهر دجيل ولا تزال قائمة متينة وقد كتب عليها بخط واضح آيات من القرآن ، واسم الخليفة وأبيه وجده والثناء عليهم الخ وقد نسخنا ما كتب عليها إلا كلمات قليلة محاها الزمان وتاريخ بناء القنطرة تسع وعشرون وستمائة . تركنا القنطرة نحمد هذا الخليفة العظيم بانى المستنصرية وغيرها من الآثار الناطقة بهمته وحسن سياسته.

تركنا القنطرة مواصلين السير حتى بلغنا شاطىء دجلة إزاء سامرا والساعة أربع ونصف فوجدنا معبراً يسير بسلسلة ممتدة بين الشاطئين . وكان لابد من نقل السيارات ، وهى سبع لا يمكن نقلها مرة واحدة . فعوقنا العبور زمناً طويلا . سرنا إلى سامرا فإذا مدينة صغيرة مسورة هى سامرا



منارة جامع المعتصم وتسمى الملوية

الحديثة ، وإذا أطلال سامرا القديمة منثورة فى فضاء فسيح يعيا السائر دون نهايته . وأقرب الأطلال إلى المدينة جامع المعتصم ، وهو واسع الساحة عظيم السور يذكر الرائى بجامع ابن طولون ، وكأن ابن طولون بنى جامعه على نسقه . وخارج المسجد على مقربة من جداره الشمالى منارة عظيمة لها درج من الخارج يدور حولها . ويظن أن منارة ابن طولون كانت محاكاة لهذه المنارة لم تبلغ درجتها من الضخامة والإحكام . سرنا بين الطلول نقرأ فى سطورها تاريخاً عظيما دارساً ، ورأينا على دجلة مجلساً للمتوكل بقى من قصره العظيم : يدخل إلى هذا المجلس المشرف على دجلة من رواق عليه قبة تظهر فيها محاكاة إيوان كسرى . ولا تزال بلاطات المجلس والطريق المفضى إلى الباب واضحة المعالم . ورأينا إلى الشمال بركة عظيمة جافة حسبنا أنها البركة التى وصفها البحترى (١) .

عدنا بعد إلى سامرا الحديثة فاسترحنا قليلا فى دار البلدية وجاءنا هناك القائمقام أو مأمور المدينة ، فذهبنا إلى مشهد سامرا وهو مسجد على طراز مساجد الكاظمية وكربلاء والنجف ولكنه أصغر وأقل أبهة . وتحت قبته مقصورة فيها أربعة قبور للامام الهادى وابنه

---

(١) رجعت إلى سامرا بعد ست سنين فسرت فى أطلالها ما بين جامع المعتصم وجامع المتوكل نحو تسعة عشر ميلا ، ورأيت شارعا سعته نحو مائة متر تتفرع منه شوارع متوازية ، ورأيت أسواراً عظيمة لقصور قديمة . ولا ريب أن سامرا على ما أصابها أعظم ما ترك الخلفاء العباسيون وأبقى آثارهم وأدلها على الحضارة والبذخ فى أيامهم .

الحسن العسكرى والسيدتين سكينة وحليمة ، ويقال لهما هناك سكينة خاتون وحليمة خاتون ، وهى كلمة تركية مستعملة فى العراق معناها السيدة : إحداهما زوج الهادى والأخرى عمته .

كنا أمرنا سائق السيارات أن يعبروا وينتظروا على الشاطىء الآخر فلما جئنا لزيارة المسجد لقيناهم هناك . قلنا ما خطبكم ؟ قالوا : لا نستطيع السير ليلا وليس معنا بنزين . فعرفنا أنها ليلة ليلاء وخرجنا بعد زيارة المسجد معجلين عن زيارة السرداب الذى اختفى فيه الإمام محمد المهدى ابن الحسن العسكرى وهو الإمام الثانى عشر صاحب الزمان فى مذهب الشيعة الاثنى عشرية ، وكم أسفنا على أن فاتنا زيارة السرداب ونحن بجانبه (١) وخرجنا نعالج معضلة السيارات فلما لج السائقون أكرههم القائمقام على السير وأخرج معنا سيارة مسلحة . وكأن السائقين كانوا يحذرون الطريق فلما خرج الحرس معنا اطمأنوا . عبرنا دجلة والساعة ثمان وخمس وأربعون . وبينما نركب المعبر سقط عزيز أفندى فهمى فى دجلة فأخذ بيده الأستاذ درويش المقدادى فخرج يصيح لا بأس ، لا بأس . وكانت ليلة باردة . عبرنا سالمين وتزودنا من البنزين ثم سرنا والساعة تسع وثلث من المساء . سارت أمامنا السيارة المسلحة ، وانتظمنا خلفها وتواصينا بأن يرقب بعضنا بعضاً . واستقام لنا

---

(١) زرت السرداب فى سفرتى الثانية إلى سمرا وهو فى وسط مسجد يهبط إليه درجات ثم يسار فى دهليز يفضى إلى حجرتين الأولى مختفى صاحب الزمان ، فى نهايتها سياج من الخشب جميل الصنع ، والثانية فارغة .

الطريق حتى قاربنا بغداد . ثم شرع بعض السيارت يرتطم فى الوحل كلما أخرجت سيارة وحلت أخرى ؛ وسمعنا إذ ذاك أن لصوصاً سطوا على بعض السابلة على مقربة منا . وحينئذ قابلتنا سيارة مسلحة من بغداد فاستأنفنا السير . فلما شارفنا بغداد لقينا مدير الشرطة وجنده فى عدّة الليل ولباسه . قال المدير : أنا مدير شرطة بغداد جئت لاستقبالكم . قلت : ألست السيد أحمد الراوى الذى قابلنى فى الآستانة العام الماضى ؟ فكان تعارف وسلام فى حلك الظلام . دخلنا بغداد فى حراسة شرطتها حتى بلغنا الفندق والساعة اثنتان وثلث بعد نصف الليل . وكنا قد قدرنا أن نكون ببغداد قبل الساعة السابعة . ووعدنا قنصل مصر مصطفى مخلوف بك [1] أن نتعشى عنده . فلما بلغنا سامرا متأخرين أبرقنا إليه أننا سنعود والساعة عشر ، وكنا متشائمين حين حددنا هذا الموعد حاسبين أن نكون فى بغداد قبل ذلك . فانظر كيف كذبت الظنون وأخطأ الحساب .

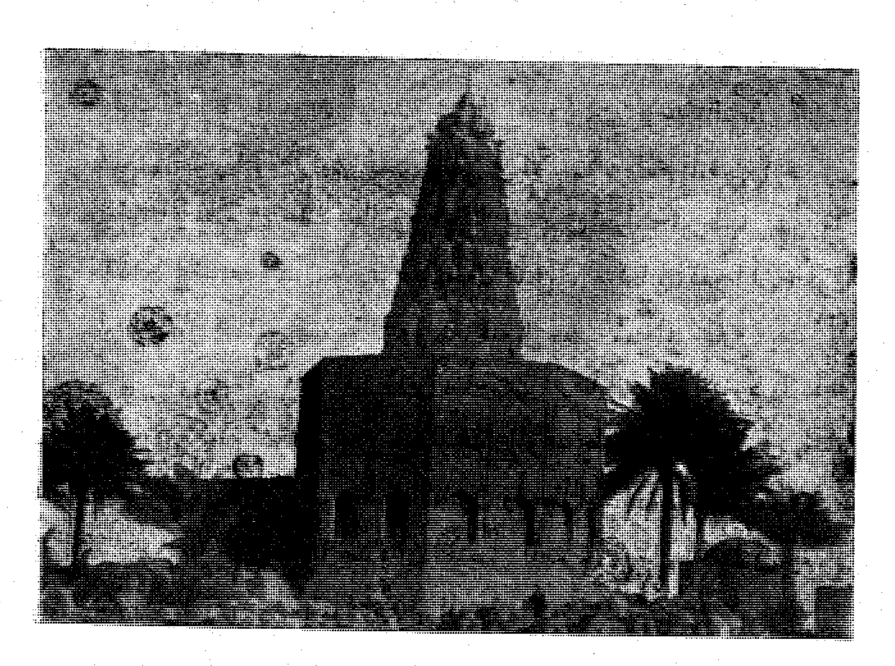
وسمعنا حين دخلنا بغداد أن القنصل المصرى ورجال الحفظ فى بغداد لبثوا ينتظرون حتى أيقنوا أنّا فى المدينة .

فهذه ليلة سامرا التى بقيت حديثنا حتى اليوم بما لقينا من مصاعب ذللتها همة إخواننا المراقبين الذين بذلوا كل ما استطاعوا لييسروا لنا السير والسلامة على طول الطريق .

— ١١ —

يوم الأحد أو يوم الوداع أمضيناه متفرقين فى المدينة كل يشترى

(١) توفى بعد سنتين من هذا التاريخ رحمه الله رحمة واسعة .



قبر زبيدة

ما يريد ويذهب حيث يشاء . فخرجت في صحبة الأستاذ جواد الدجيلي المحامي شقيق صديق الأستاذ كاظم الدجيلي فزرنا مقابر الصوفية في طرف الكرخ مقابر معروف الكرخي والحلاَّج والجنيد والسريّ السقطي ، وحمدت الله على أن تيسر لي زيارتهم قبل أن أبرح بغداد . فاعجب لقبور هؤلاء تبقى وقد ذهبت قبور الخلفاء . وهنالك قبة عجيبة مخروطية الشكل أقيمت فوق قبر يسمى قبر زبيدة خاتون . ويقال إنها زبيدة زوج الرشيد والراجح أنها غير زبيدة العباسية والله أعلم. وعلى قبور هؤلاء الصوفية أبنية صغيرة فيها الحجرة أو الحجرتان خالية من الزينة ، وأشبهها بالتصوف قبر الحلاَّج وأعظمها قبر معروف . وكل المقبرة هناك تسمى باسمه . فإن يكن معروف الكرخي حُرم مُلك الدنيا فقد وسع له في مملكة الآخرة. والأبنية القائمة على قبورهم حديثة كلها ، فتاريخ قبة معروف كرخي كنبدى — ١٣١٢ هـ وتاريخ قبة الجنيد والسري : قل أرخوا : هذا المقام معمراً ١٢٦٩ هـ ، وهنالك قبر بهلول المجذوب الذي تروى أحاديثه مع الرشيد والذي جعله بعض الناس أخاً للرشيد . وقد شيدت قبره زوج كاظم باشا .

وهناك قبة صغيرة على قبر بجانبه صورة كبيرة. وذلكم قبر أحد شهداء العرب في الثورة على الإنجليز واسمه عبد الحميد كنة . كانت جولة بين القبور قضينا فيها حق العبرة والتصوف على عجل .

وبعد الظهر ذهبنا إلى مسجد الكاظم لشراء بعض الكتب . ثم اجتمعنا وقت المغرب في الفندق لنذهب إلى دار وزير المعارف للافطار

وكان حفلا حافلا جمع رئيس الوزراء وكثيراً من كبار بغداد . وقد أنشد هنا لك إبراهيم أفندى أمين وعزيز أفندى فهمى (وقد سميناه شاعر دجلة منذ سقط فيها ليلة سامرا) قصيدتين فى وداع بغداد ، وسرنا من دار الوزير إلى دار تحسين بك قدرى مرافق جلالة الملك وهو أخو الدكتور أحمد بك قدرى قنصل العراق العام بالقاهرة الآن ، وكانت حفلة وداع سعيدة دامت حتى كاد الليل ينتصف ، وهنا أكل لجريدة السياسة العراقية وصف حفلة الوداع :

حفلة قدرى بك

وقد أقام سعادة تحسين بك قدرى المرافق الخاص لصاحب الجلالة الملك حفلة فخمة يوم الأحد الماضى لتكريم بعثة الجامعة المصرية فى داره فى محلة السنك .

وفى الساعة السابعة مساء تقاطر المدعوون إلى دار قدرى بك وكان سعادته يستقبلهم بلطف يعاونه شقيقه زكى بك ، ويقرهم فى المحلات المعدة وقد حضر المحتفل بهم بعد ذلك إذ كانوا مدعوين على العشاء فى محل آخر .

وأعد لتشنيف آذان السامعين تخت عزوزى الآلاتى المشهور فأجاد سواء فى تلحين الأغانى العراقية أو الأغانى المصرية ونحوها وأطرب الحاضرين .

أما المدعوون فجماعة كبيرة من مختلف الطبقات الممتازة من السياسيين

والوزراء وكبار الموظفين والنواب والوجوه والأدباء والصحفيين .

ثم انتقل الجمع إلى المقصف الذى أعد لهم فى الطابق التحتانى حيث تناولوا نفيس المطبوخ أو المقلى أو المشوى أعد بذوق وحذق كبيرين وصنوف الحلويات .

ونزل تخت عزوزى إلى تحت يطرب الآكلين ويزيد فى شهيتهم .

وأخيراً طلب إلى حضرة الأستاذ الكبير معروف الرصافى أن ينشد شيئاً من الشعر من الحواضر فنظم حالاً الأبيات التالية وقد أنشدها فتقبلها الحضور بلهفة :

إنا نودعكم فى دار تحسين « أبى أسامة » مصحوب السلاطين

المصطفى كل ذى فضل لدعوته والمحتفى بأولى العلم الأساطين

آراؤكم فى دجى التحقيق نيرة فى العلم قد مكنتكم أى تمكين

يا دار تحسين قدرى دمت عامرة بالمجد آهلة يا دار تحسين

جمعتنا من بنى مصر بأهل علا أخلاقهم مثل أزهار البساتين

إنا نودعهم توديع ذى أمل يرجو لهم عودة من بعد ماحين

إنا نحملهم من دجلة شغفاً يهدى إلى النيل محمود الأفانين

وهنا وقف حضرة الأستاذ عبد الوهاب عزام أحد أعضاء البعثة المصرية وأنشد قصيدة ننشرها فيما بعد .

وانصرف المحتفل بهم فشيعوا بالإكرام والحفاوة .

وحقا إن الحفلة كانت آية فى نظامها ونخامتها وحسن خدمتها . وزادها

رونقاً تفانى صاحب الدعوة فى العناية بضيوفه بحيث جاء التكريم الختامى أحسن ما شيعت به بعثة مصر العزيزة » ا ﻫ .

عدنا إلى الفندق فاذا السيارات قد تأهبت للرحيل ففارقنا بغداد نصف الليل بعد تسعة أيام لها فى نفوسنا أسعد ذكرى ، وقلوبنا مفعمة محبة وشكراً لإخوان لا عيب فيهم إلا إسرافهم فى الحفاوة بنا والتودد إلينا ، وقد ترك الأستاذ أحمد أمين للجرائد هذا الشكر .

شكر البعثة العلمية المصرية

باسم زملائى وباسمى بل باسم الجامعة المصرية أقدم الشكر خالصاً إلى صاحب الجلالة المليك الكريم وإلى صاحب الدولة رئيس الوزراء ورجال حكومته ثم إلى الشعب العراق النبيل وصحافته على ما لقينا من حفاوة وإكرام يقصر عنهما لسان الذاكر وجهد الشاكر ، فلقد قابلونا مقابلة الأهل وغمرونا بالعطف والفضل فأكرموا أمتنا فى أشخاصنا وبرهنوا على أن الأمة العراقية لا تعيش لنفسها فحسب وإنما يعيش كل لنفسه وللعالم العربى عامة وأن كل أمة شرقية إنما هى عضو في جسم شرق حى أخذ يشعر بالحياة ويعمل لها ويؤسس مدنية فيها العنصر الغربى وفيها العنصر الروحى الشرقى وأقاموا البرهان وأقنعنا معهم على أننا بدأنا نشعر بالعبء ونحمله بشجاعة وإقدام .

أتينا بلادكم فقدمتم إلينا يدكم الكريمة فصافحناها وكانت هذه المصافحة أساساً لوضع صلات شعبية علمية وغير علمية سيظهر أثرها قريباً

وسيكون لنا وللأمم الشرقية جميعاً بناء قوي شامخ يتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

فالآن نقتصر على الاعتراف بأننا عائدون إلى قومنا نحمل شعوراً جميلا تقصر اللغة عن التعبير عنه ولا يسعنا إلا أن نقول شكرا وشكراً وألف شكر

أحمد أمين

فارقنا بغداد بليل نطوى الطريق عوداً على بدء ، ووقفنا قليلا على الرمادي والرطبة . وقد رافقنا حرس بغدادي فى سيارة مسلحة إلى الحدود السورية فجزى الله إخواننا خير الجزاء .

ونكرم جارنا مادام فينا وُنتبعه الكرامة حيث مالا

— ١٢ —

هذه تدمر والساعة سبع ونصف من المساء بعد ثمانى عشر ساعة من مفارقة بغداد . ألفينا هناك فندقا ضخما بين الأطلال ولكنه غير معد لإيواء أربعة وعشرين فافترقنا فنزل جماعة منا فى خان ونزل الآخرون فى الفندق وكانت ليلة ذكرتنا نعيم بغداد . وقد استرحنا قليلا فى مكان هناك لا أدرى أأسميه داراً أم فندقاً . ولقينا صاحبه مرحباً وسارع ، والتبعة على الراوى ، فذبح خروفاً بعد أن اتفق مع اسكندر أفندى يارد وكيل شركة السياحات الشرقية على أن يشترى نصفه لمشائنا . ومضت ساعات وساعات حتى مللنا ونمنا ، وليس عن الخروف خبر فقلنا : كان خروف الشحات افندى (١) على علاته أقرب إلى الحقيقة .

نعمت على عمرو فلما فقدته وجربت أقواماً بكيت على عمرو

(١) تقدم ذكره فى ص ٣٣ .



أحد المعابد القديمة فى تدمر

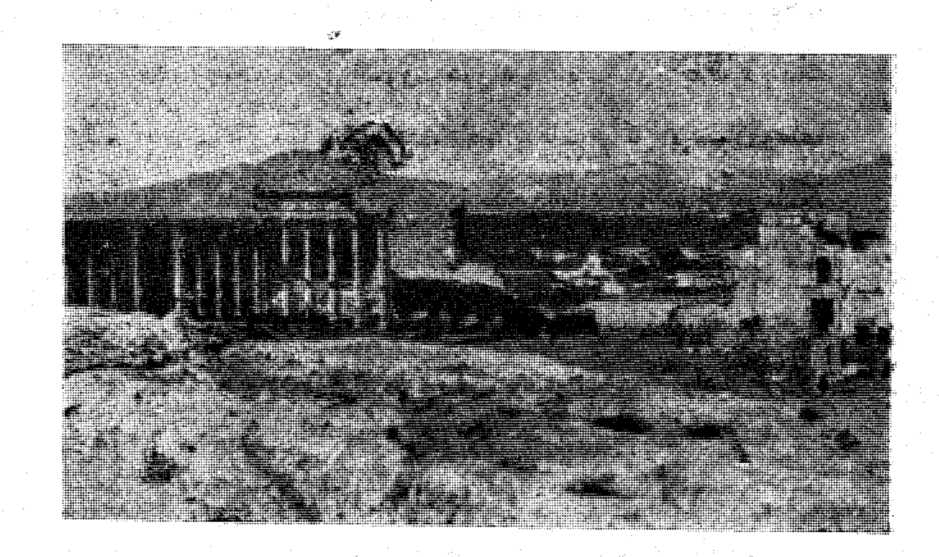
غلبنا اليأس والنوم ، فلما أصبحنا سمعنا أن أبطال الخروف صابروا اسكندر أفندى حتى رأوا اللحم عياناً وأكلوا منه ؛ والله مع الصابرين .

أصبحنا نقلب الطرف فى مدينة من الأطلال منثورة على مد البصر فهذه صفوف من العمد تتوالى مسافات بعيدة وكانت سوق المدينة . وهذه رسوم قصور وملاعب حول السوق. وهذا المعبد العظيم الذى يشبه معبد بعلبك الهائل، وهناك مقابر فيها تماثيل أحسنت فيها يد الصانع كل الإحسان وعليها كتابة باللغة التدمرية يُذكر فيها ، كما حدثنى القارىء ، اسم الزّبّاء ملكة تدمر . وعلى الرُبى التى تحد ساحة المدينة من الغرب قلعة تسمى قلعة ابن معين وأبنية مربعة عالية كالمآذن دخلناها فإذا هى طبقات بعضها فوق بعض . كانت توضع فيها نواويس الموتى . ولا تسل عن أكوام العظام التى كدسها الحافرون هناك .

ودفين على بقايا دفين فى قديم الأزمان والآباد

ولفت أنظارنا فى تدمر صباحة أهلها ونضرة وجوههم وصحة أبدانهم . وكأنهم أمة وحدهم فى هذه البقعة ورثوا الجمال منذ قرون عدة وحفظه عليهم هواء تدمر وماؤها .

تركنا تدمر بعد ظهر الثلاثاء ٣٠ رمضان (١٧ فبراير) ميممين دمشق فبلغناها والساعة سبع ونصف فاذا دار الحكومة فى حُلة من النور وكانت ليلة عيد الفطر . بكرنا إلى جامع بنى أمية فصلينا العيد ورأينا موكب رئيس الوزراء عائداً من المسجد . وكانت صلاة العيد بجامع دمشق أمنية



بقايا العمد فى سوق تدمر

يسرها الله . وبعد الظهر قصدنا بيروت مجتازين جبال لبنان نذكر قول المتنبي :

بيني وبين أبي على مثله   شم الجبـــال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها   وهى الشتاء ، وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها على مسالكي   فـكأنهـا ببيـاضها سوداء

لاحت قمم الجبال شامخة يتلألؤ فيها الثلج ناصع البياض فأشفقنا من مرآها الجليل الهائل . ثم دارت السيارات وتمعجت على السفح فاذا نحن فوق الثلج والسحاب وإذا أغوار هائلة بين الجبال تعلوها السحب ، وقباب عالية فى السحب تعلوها الجبال ، سرنا بين الخوف والرجاء . وسلى الدكتور حسن إبراهيم ! وأشرفنا على مشاهد جميلة رائعة واجتزنا قرى لبنان جميلة فى حداد الشتاء . فليت شعرى كيف هى فى بهجة الربيع ؟ أغطش الجو بالسحاب والليل ، والسيارات على شفا مهاو عميقة تخترق بأنوارها ثنايا الظلام متلوية صاعدة هابطة حتى من الله علينا بظهر الأرض. بلغنا بيروت والساعة ست من المساء وأصبحنا على عيد آخر يوم الخميس . فليت شعرى كيف اختلف العيد بين دمشق وبيروت ؟ ثم زرنا الجامعة الأمريكية فى حفاوة مديرها وأساتذتها ثم المدرسة اليسوعية — وكنا رأيناها العام الماضى — وليعذرنى أهل بيروت الكرام حين أضطر لطى الكلام والطريق عجلان إلى حيفا . قد خرجنا اليها من بيروت والساعة اثنتان بعد الظهر والناس فى عيدهم فبلغنا حيفا والساعة ست ونصف ونزلنا بفندق نصار. ثم أصبحنا إلى القطار فسار والساعة ثمان وما زال يضرب فى مروجه

ثم صحاريه حتى طلعنا مع المغرب على القنطرة .

هـذا ما وعته الذاكرة بعد شهرين من رحلة العراق الخالدة (١) ، وأنا أختم بإرسال أبلغ تحية ، وأوفر شكر وإجلال لحضرة صاحب الجلالة الملك فيصل الذى شرفنا برعايته ولرجال حكومته ولا سيما رجال المعارف ، ثم لأهل العراق جميعاً . وإني لأعتذر لمن ذكرت أسمـاءهم ولمن فاتنى ذكرهم ، معترفاً أنى لا أفى بحقهم ، وما أردت شكرهم هنا ولـكن حرصت على ألا تفوت رحلة العراق دون أن أكتب عنها على قدر ما يسع الزمان وتأذن الأعمال .

---

(١) كتب هذا الفصل بعد شهرين من رحلتنا .

وداع بغداد (*)

بغداد ! تاج الحقب الخوالى   ودرة المستقبل المكنون

دار السلام ! لا عداك المجد

وارفة ظلاله تمتد

ولا حدا نجمك إلا السعد

موصولة الآجال بالآجال   لابسة مجدد القرون

فكم لبست عمر الدهور

مالكة أزمة الأمور

وموئل الصعلوك والأمير

وموطن الجلال والجمال   والدين والعلوم والفنون

فرب يوم ضاحك الصباح

بين المياه والرياض ضاح

وهبته لشاعر صداح

منظم فى وصفك اللآلى   مطرب فى شعره مبين

(*) أنشدت فى حفلة الوداع بدار تحسين بك قدرى ليلة الرحيل ليلة الاثنين ٢٨ رمضان سنة ١٣٤٩ هـ

ورب يوم للندى جـواد
يفيض فيه بالعطاء النادى
وتشرق الامال بالأصفاد
يشهد فيه جيد المقال   مـذلة الألوف والمئن

ورب يوم ملؤه الوفود
يلوح فى غرته الرشيد
محـكما يبدىء أو يعيد
الظلم فيه ضيق المجـال   والعدل فيه مشرق الجبين

ورب يوم للوغى مشهود
بعثت فيه شهب الجنود
تزهاهم خفـاقة البنود
يذللون ثائر الأهوال   ويأسرون الأسد فى العرين

فى كل فج عـلم مطار
يغار منه الكوكب السيار
مشرقة فى حكمك الأمصار
الشرق والمغرب فى اختيال   بمجدك المؤثل الرصين

ومنهل يفيض بالعـلوم
يؤمه الطلاب ورد الهيم
ويصدرون حفل الحلوم

من كل حبر باحث جوال من مغرب الشمس لأرض الصين

الرأى فيـــه محكم وثيق

والقول فيه مرسل طليق

والعقل للدين به شفيق

يبعث فى الآفاق بالأقوال جوابة السهول والحزون

ومجلس بالبـاحثين حافل

يقرع فيه الحجة المجادل

يصول فى حلبته الفطاحل

الحق فيه مطلق المقال يختال حراً فى حمى المأمون

أبو العلاء(١) أزمع الرحيلا

إليك كيما ينقع الغليـلا

فصادف المشرع سلسبيلا

وسار عن مغناك غير سال يقطع الأوقات بالحنين

يشهد أن العلم فيك جار

كالماء فى خضارة الزخار

وكالحصى فى ساحة الجمار(٢)

(١) أبو العلاء المعرى أقام فى بغداد قليلا ثم اضطر إلى الرجوع إلى الشام ونظم قصائد كثيرة أثناء إقامته وبعد رحيله .

(٢) يقول المعرى : ووجدت العلم ببغداد أكثر من الماء بخضارة والحصى عند جمرة العقبة .

أبو العلاء كان لا يغالى　　وكان لا يرمى عن الظنون

* * *

سارت على هامتك الخطوب
عاتية صرصرها هبوب
شؤبوبها يتبعه شؤبوب
حتى لبست حلك الليالى　　تسلمك الشجون للشجون
فزلزلت صروحك العلياء
وصوحت جناتك الغناء
وأعقبت ضياءك الظلماء
من بعد ما قضت بك المعالى　　أوطارها ستا من القرون
حتى دهاك الجحفل الجرار
يرعد فيه الموت والدمار
وحل فى ساحتك التتار
لشد ما رميت بالأهوال　　ياسنة الستة والخمسين (١)

* * *

دجلة والفرات فى اطراد
ما غض منهما الزمان العادى
وفى بنيك السادة الأمجاد

---

(١) استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ

كل كريم قائل فعـال يبغى العلاء غير مستكين

هلم للمستقبل الـكريم
نبنى على تراثنا القـديم
إن العظيم كفؤ العظيم

بغداد ! لاح بارق الآمال ودارت الأيام لليمين

القلب من قريضـه خلى
للهم فى أرجائه دوى
ينفر منه الوزن والروى

بغداد فى الآلام والآمال أوحت لقلب جامد ضنين

أوحي الزهاوى لى القوافى
من بعد عهد بالقريض عاف
وهاج من أشجانى الرصافى

فانجابت الهموم كالرمال عن منهل مستعذب معين

أنات شعر ترجمت أشجانى
رديئهـا وجودها سيـان
تنطق بالآمال والأحزان

قول بدا مقطع الأوصـال ألف فى حب لـكم مكين

أخلس فيه الشطر بعد الشطر
وأ كره الفـكرة بين السفر
مشتت الفـؤاد لست أدرى

ماذا نظمته ولا أبالى بسالم الأوزان والمخبونه

يامى إن شط بى المزار
فاننى دان لكم وجار
أبوك لم تبعد به الديار
منعم فى قومه والآل وضاحك الفؤاد والجبينه

ياقومنا أعود من بغداد
مقسما بينكم فؤادى
ومبلغ سلامكم بلادى
تحية اليمين للشمال ووصلة الشمال باليمينه

أهل العراق ! شكرنا جزيل
وودنا المخلص لايحول
كيف يفى ثناؤنا الجميل
مكارماً فى الحل والترحال ؟ كيف نفى بها على السنين ؟

بين القـــاهرة وطوس

— ١ —

من القاهرة الى بغداد

أطوى حديث السفر بين القـاهرة وبغداد فقـد وصفت هذه المراحل من قبل حين تكلمت عن سفرتى إلى مدينة العباسيين . وليس فى هـذه المراحل من جديد إلا السيارات الضخام التى تعبر بادية الشام بين المدينتين الخالدتين : دمشق وبغـداد . أعدت شركات عربية ، وأخرى أوربية ، سيارات كباراً تسع واحدتها أكثر من عشرين راكباً على مقاعد وثيرة تريح المسافر صاحياً ؛ وتمـكنه من الإغفاء حين يغلبه النوم .ركبنا إحدى هـذه السيارات ، ففصلنا من دمشق صبيحـة الثلاثاء سـادس عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة (الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٣٤ م) وبلغنا بغداد والساعة تسع من صباح الأربعاء بعد ست وعشرين ساعة.

فهذه بغداد العظيمة فى جمالها وكبريائها ، تزدحم فيها حادثات التاريخ أكثر من ازدحام أهلهـا ، وتزخر فيها ذكرى الماضى أعظم من أمواج دجلتها . ولله بغداد ! مايستقر بها فكر زائرها حتى يحلق فى أرجاء العصور

وأجواء التاريخ أمداً بعيداً ، مايفتأ البصر يترامى بين الرصافة والكرخ » يبتغى أن يقع على موكب من مواكب الخلفاء ، أو مجلس من مجالس العلماء ، أو حفل للأدباء والشعراء ، فى كل نظرة ذكرى خليفة ، وفى كل فكرة حديث فيلسوف أو عالم أو شاعر .

ثم يقع الفكر وقوع الطائر بعد طول التدويم ، فيستريح من بغداد الحاضرة إلى أمة قد أخذت للمجد أهبتها ، وأعدت للمظائم عدتها ، وعرفت بين الأمم غايتها ، وشقت بين الخطوب سبيلها . فسارت فى مواكب من الهمة القعساء ، والعزة الشماء — وها عزة إسلامية ، وأنفة عربية . قد آلت لتسيرن سيرتها الأولى حتى تبلغ غايتها . وسيبر الله يمينها ويبلغها منيتها ، وسيعنو الزمان لها صاغراً ، ثم يتحدث عن العرب فاخراً :

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

ذلكم ماض مجيد يعد حاضراً مجيداً . ذلكم تاريخ يتدفق من قمم المجد الشاهقة فى مجرى العزمات الماضية إلى المستقبل الوضاء ، ومن ذا يصد السيل إذا هدر ؟ أو من ذا يرد على الله القدر ؟ بل من يسلسل البحر بأمواجه ، أو يرد الحر الأبى عن منهاجه ؟

سلام يادار السلام ، رعاك الله فى كل خطوة ، وخار لك فى كل عزمة :

دار السلام لاعداك المجد وارفة ظلاله عقد

ولا حدا نجمك إلا السعد موصولة الآجال بالآجال

لابسة مجدد القرون

إن حديث بغداد لا ينفد ، وحبها فى القلوب لا يحد ، وإنك أيها القلم لأعجز من أن تخط الزمان الماجد ، والتاريخ الخالد ، والخطوب والعبر ، والقضاء والقدر فى هذه الأسطر ، فحدث عن الرحلة إلى طوس ، وحسبك أن تحمل (الرسالة) هذه الرسالة (١)

— ٢ —

من بغداد الى قصر شيرين

لبثنا ببغداد من صبح الأربعاء إلى عشية السبت . فى حفاوة إخوان كرام ، وسرور بدار السلام . ويوم السبت ركبنا نحن والوفود التى قدمت بغداد فى طريقها إلى طهران ، قطار الليل نؤم خانقين ، والمسافة بين خانقين وبغداد زهاء مائة ميل . ولكن قطار خانقين المتمهل يقطعها فى عشر ساعات ، فيمكن المسافر أن ينام ملء جفونه حتى يصبح . برحنا بغداد والساعة ست مساء ، وودعنا على المحطة القائم بأعمال المفوضية المصرية حافظ بك عامر ، ووزير إيران فى بغداد ؛ وسافر معنا الأديب الفاضل أحمد حامد الصراف مندوب العراق إلى مؤتمر الفردوسى . وكان المندوب الثانى — الشاعر الكبير الزهاوى — قد سبقنا إلى خانقين فى سيارة . وصحبنا فى القطار إلى منتصف الطريق الأخ الهمام ، إبراهيم الواعظ المحامى ، وكان ذاهباً إلى كركوك ، فما زلنا فى إكرامه وإيناسه حتى افترقنا ، أهدى إلى وإلى رفيق الأستاذ العبادى ديوان السيد محمد سعيد حبوب النجفى فكان خير زاد للمسافر ، ولما وقف بنا القطار على محطة باب الشيخ ببغداد اشترى لنا قلة بغدادية روينا بها فى سفرنا ، وقلل بغداد نقية الطينة ، رائدة

(١) المراد مجلة الرسالة وكانت هذه الرحلة نشرت فيها .

تمنيت أن أحمل بعضها إلى مصر فلم يتيسر لى . وهى أمنية أعجزت الأستاذ الزيات من قبل (١)

بلغنا خانقين والساعة أربع من الصباح ، فبقينا فى القطار حتى أسفر النهار ، فنزلنا وحملنا أمتعتنا إلى حجرة من حجرات المحطة ، استبد بها الأديب الصراف فشاركناه فيها . ولبثنا ننتظر قدوم مندوبى الحكومة الإيرانية حتى جاء القنصل الإيرانى والسيد روشن المهماندار ، الذى كان طليعة ركبنا فى رحلتنا كلها . وعلمنا حينئذ أن موعد السفر غد ، أول تشرين الأول (أ كتوبر) فتفرقنا ، ذهب جماعة إلى دار القنصل وآخرون إلى منازل أخرى . ودعانا صديقنا الصراف إلى دار صديقه عبد القادر صالح معاون جمرك خانقين ، وكلمه بالتليفون فأرسل لنا سيارته ، فذهبنا إلى الدار فاذا فتى نبيل من فتيان العراق ؛ وكم فى العراق من فتى نبيل ؛ فلبثنا فى ضيافته إلى صبيحة اليوم الثانى ، وسعدنا بصحبته وصحبة موظفى خانقين الكرام ، وخانقين مدينة صغيرة على حدود العراق وعلى الجادة القديمة إلى خراسان ، يمر بها نهر ألوند (ألوندجاى) وهو نهر حلوان وفرع من نهر ديالى أحد روافد دجلة . وعند المدينة قنطرة كبيرة من آثار الساسانيين وقد وصفها ياقوت فى المعجم وكانت المدينة فى العصور الإسلامية

---

(١) قد ظفرت بما فاتنى حين رحلت إلى العراق سنة ٩٣٥ : فنقلت قللا من العمادية إلى حلوان وأحسبها أول نقلة إلى مصر فى تاريخ هذه القلل ، وأهديت إلى الزيات إحداها حين رأيت شغفه بها .

الأولى معروفة بالتمر والقمح ، ولا تزال كثيرة التمر . وقد مدح ابن المعتز نبيذها وقال عتبة بن الوعل التغلبي :

كأنك يا ابن الوعل لم تر غارة كورد القطا النهى الخفيف المكدار
على كل محبوك السراة مفزع كميت الأديم يستخف الحزورا
ويوم بباجسرى كيوم مقيلة إذا ما اشتهى الغازى الشراب وهجرا
ويوم بأعلى خانقين شربته وحلوان حلوان الجبال وتسترا

ويوم الإثنين اجتمع المندوبون عند محطة خانقين ، وجاء آخرون من بغداد منهم أستاذى السير دنسن رس ، والشاعر الإنكليزى درنكووتر ، وعبد الكريم أفندى الحسينى والدكتور نظام الدين مندوبا حيدر آباد . وتقسمنا السيارت ، فركبت أنا والأستاذ العبادى والأديب الصراف معاً . وكانت صحبة الصراف فألا سعيداً فى هذه السفرة فقد نعمنا بحديثه وإنشاده من الشعر العربى والفارسى . وكذلك لقينا هناك محمود بشير المدنى السائح الذى سميته من بعد السندباد . سرنا إلى الحدود فى طريق معبدة مقيرة ، فوقفنا قليلا . وجاء إلينا رسول إيرانى فرحب بنا وأعطانا دليلا مكتوباً بالفارسية والفرنسية فيه طرف من أخبار البلاد التى نمر بها بين خانقين وطوس . وهنا تركت الرفيقين الكريمين ، وركبت مع صديقى السيد عبد الكريم الحسينى مندوب حيدر آباد ، إذ كان فى سيارة وحده فأردنا أن نؤنسه فى السفر .

بلغنا قصر شيرين بعد نصف ساعة فتوقفنا لشرب الشاى على الطريق وقصر شيرين مدينة صغيرة على طريق خراسان ، وعلى نهر حلوان ، سميت

باسم القصر الذى بناه كسرى برويز (٥٩٠ — ٦٢٧ م) لامرأته شيرين .

ولا تزال أطلال قصور كسرى قائمة إلى الشمال والشرق من المدينة . وقد وصفها ياقوت فقال : « وفيه أبنية عظيمة شاهقة يكل الطرف عن تحديدها ، ويضيق الفكر عن الإحاطة بها ، وهى إيوانات كثيرة متصلة ، وخلوات وخزائن وقصور وعقود ، ومتنزهات ومستشرفات وأروقة وميادين ومصايد وحجرات ، تدل على طول وقوة » .

ولا تزال ذكرى كسرى وشيرين وعاشقها فرهاد الرائز [1] والمغنى بلهبذ تطيف بهذه الخرباب ، وأساطيرهم تسمع فى هذه الأرجاء .

وحلوان المدينة القديمة المذكورة فى الأخبار والأشعار قريبة من قصر شيرين . وكانت مدينة كبيرة عامرة ، ثم خربت منذ القرن الثامن عشر ، فلم يبق منها إلا أطلال دارسة . ونخلتا حلوان وقصصهما وما قيل فيهما من الأشعار أحاديث معروفة فى كتب الأدب .

وكانتا نخلتين على عقبة حلوان قال فيهما مطيع بن إياس .

أسعدانى يانخلتى حلوان وابكيا لى من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفرق بين الألاف والجيران
ولعمرى لو ذقتما ألم الفرقة قد أبكاكما الذى أبكانى
أسعدانى وأيقنا أن نحساً سوف يلقاكما فتفترقان الخ

ومن أجل هذا البيت الأخير تحامى الناس قطعهما ليفسحوا الطريق.

---

(١) الرائز رئيس البنائين (مهندس المبانى)

فتجنب قطعهما الخليفة المهدى العباسى . ويقال إن الرشيد احتاج إلى جمار وهو فى حلوان فقطعت إحدى النخلتين . فلما انتهى إلى العقبة نظر إلى النخلة القائمة وقد قطعت قرينتها ووجد عليها البيتين الأول والآخر من الأبيات المتقدمة فقال : يعز على أن أكون نحستكما . ولو سمعت بهذا الشعر ما قطعت هذه النخلة .

وقال حماد عجرد :

جعل الله سدرتى قصر شيرين فداء لنخلتى حلوان
جئت مستسعداً فلم تسعدانى ومطيع بكت له النخلتان

وقد كثر فيهما الشعراء من بعد .

— ٣ —

(من قصر شيرين إلى همذان)

سرنا من قصر شيرين تلقاء كرمانشاهان فمررنا بعد خمسين دقيقة بقرية ذهاب ، ثم أصعدنا فى جبل شامخ فسيح ، فلبثنا بين قممه وشعابه نصف ساعة ، وذلكم « كوه باطاق » أى الجبل ذو الطاق ، سمى بطاق قديم قائم فى منتصف هذه الطريق الجبلية ، ثم انبسط بنا السهل نصف ساعة إلى قرية كراند وهى قرية خضراء شجرة ، وبعد أربعين دقيقة

وقفنا فى شاه آباد . وهى قرية ذات بساتين فيها ضياع لجلالة الشاه وباسمه سميت . وله بها دار صغيرة نزلنا بها فاسترحنا قليلا وشربنا الشاى ، وأكلنا فاكهة طيبة ، فيها عنب صغير جيد . وكان ذلك أول ما طعمنا من فاكهة إيران .

ثم استمر بنا المسير فاجتزنا جبالا أخرى إلى كرمانشاهان فبلغناها بعد ساعة وثلث من شاه آباد ، وكرمانشاهان (قرميسين (مدينة عامرة فيها شوارع جديدة واسعة وأسواق كبيرة . وموقعها على درجة ٣٤ من العرض و٤٧ من الطول، فى بقعة طيبة الهواء يسقيها نهر قرهصو [١] . وهى على الجادة الكبرى من بغداد إلى همذان تبعد عن كل منهما خمساً وستين ومائة كيل : أنشأها الملوك الساسانيون ، وكانوا يقيمون بها أحياناً . ونزلها فى العصر الإسلامى الخليفة هارون الرشيد وعضد الدولة البويهى . ولم تبلغ مكانة عظيمة إلا فى القرن العاشر حين اتخذها الملوك الصفويون قاعدة لمحاربة الدولة العثمانية .

والمدينة فى وسط ولاية كرمانشاه . وهى الأرض التى قامت عليها الدولة الميدية القديمة . وفيها من المدن والقرى شيرين وكرند وأسد آباد ، وكنكاور أو كنكور (وكانت تسمى فى العصور الإسلامية الأولى قصر اللصوص) وبيستون ونهاوند وخرائب الدينور . وبها آثار من الأكمينيين والساسانيين . وهى من أغنى ولايات إيران .

---

(١) قره صو بالتركية : الماء الأسود . والأسماء التركية معروفة فى إيران . وقد تقدم الكرند ألوند (ألوند جاى) وجاى معناها نهر صغير بالتركية .

نزلنا من المدينة فى دار أحد كبرائها — معتمد الدولة . وهى دار جميلة ذات حديقة كبيرة . فيها بناء على يسار الداخل استرحنا به وغسلنا عن وجوهنا غبار الطريق . ثم سرنا فى الحديقة فى مستوى به حوض كبير فصعدنا درجات كثيرة إلى مستوى آخر فيه حوض يسيل الماء منـه إلى المستوى الأسفل، مترقرقاً على درجات السلم فيملأ العين رواء. وعلى المستوى العالى بناء آخر صعدنا إليـه درجات ، فاجتمعنا للغداء . وخطب معتمد الدولة مرحِّباً بنا وأجابه السير دِنسُنْ رُس . ثم أخذت صورتنا على الدرجات التى بين المستويين . ثم انتقلنا إلى دار أخرى فى أقصى المدينة لأحد الأعيان — أمير الـكل . وهى دار واسعة بها حديقة جميلة فيها أحواض ونافورات كثيرة . فتقسمنا حجراتها للمبيت . وهاتان الداران تشهدان بما لأهل إيران من كلف بالحدائق والمياه و براعة فى تنسيقها .

وخرجنا فى المساء لنرى آثار « طاق بستان » على أربعة أكيال (١) من المدينة فى لحف جبل شاهق مشرف على الجادّة . وهو طاق من آثار الساسانيين يقابل داخله تمثال فارس منحوت فى الصخر . وهو فيما يظن تمثال كسرى برويز على فرسه شبديز ، و بجانبه تمثال شيرين زوجه . وعلى جانبى الطاق نقش كثير يمثل الصيد فى اليبس والماء وغير ذلك . وفى أعلى الجانب الأيسر صورة فتح على شاه أحد الملوك القاجاريين ، وجماعة من رجاله منحوتة فى الحجر ؛ أراد ذلك الملك أن يزاحم كسرى برويز فى داره .

(١) ينبغى أن يعرب كيلو بحذف الواو فيقال كيل وأكيال .

والجبل فسيح وأرض الله واسعة . وشبديز، ومعناه هادى الليل ، فرس لكسرى برويز مشهور فى قصص الفرس وشعرهم وفى الشعر العربى أيضاً .
ومما يقص عنه ما رواه ياقوت فى المعجم :

« وكان سبب صورته في هـذه القرية أنه كان أذكى الدواب ، وأعظمها خلقة ، وأظهرها خلقاً وأصبرها على طول الركض . وكان ملك الهند أهداه إلى الملك أبرويز . فكان لا يبول ولا يروث مادام عليه سرجه ولجامه ، ولا ينخر ولا يزبد . وكانت استدارة حافره ستة أشبار. فاتفق أن شبديز اشتكى وزادت شكواه . وعرف أبرويز ذلك وقال : لئن أخبرنى أحد بموته لأقتلنه . فلما مات شبديز خاف صاحب خيله أن يسأله عنه فلا يجد بدا من إخباره بموته فيقتله . فجاء إلى البلهبذ مغنيه ، ولم يكن فيما تقدم من الأزمان ولا ما تأخر أحذق منه بالضرب بالعود والغناء — قالوا كان لأبرويز ثلاث خصائص لم تكن لأحد من قبله : فرسه شبديز ، وسريته شيرين ، ومغنيه بلهبذ — وقال اعلم أن شبديز قد نفق ومات ، وقد عرفت ما أوعد به الملك من أخبر بموته . فاحتل لى حيلة ولك كذا وكذا . فوعده الحيلة . فلما حضر بين يدى الملك غناه غناء ورّى فيه عن القصة إلى أن فطن الملك وقال له : ويحك ! مات شبديز . فقال : الملك يقوله. فقال : زه! ما أحسن ما تخلصت وخلّصت غيرك . وجزع عليه جزعاً عظيما . فأمر قنطوس بن سنمارّ بتصويره . فصوره على أحسن وأتم تمثال .

حتى لا يكاد يفرق بينهما إلا بإدارة الروح فى جسدها . وجاء الملك فرآه فاستعبر باكياً عند تأمله إياه الخ » .

ومما رواه ياقوت عن الهمذانى أن بعض فقهاء المنزلة قال : لو أن رجلا خرج من فرغانة القصوى ، وآخر من سوس الأبعد قاصدين النظر إلى صورة شبديز ما عنفا على ذلك » .

وأما أنا فلم أر التمثال من الإتقان والإحكام على النحو الذى وصفوا . ولا ريب أن الزمان قد ذهب برُوائه، وقد سقط رأس الفرس و بقى سائره .

وقد نظم خالد القناص قصة شبديز التى تقدمت . ومما قيل فى شبديز من الشعر قول أبى عمران الكردى :

وهم نقروا شبديز فى الصخر عبرة ... وراكبه برويز كالبدر طالع
عليه بهاء الملك والوفد عُكّف ... يخال به فجر من الأفق ساطع
تلاحظه شيرين واللحظ فاتن ... وتعطو بكف حسّنتها الأشاجع
يدوم على كر الجديدين شخصه ... ويُلفى قويمَ الجسم، واللون ناصع

وأحسن وصف لهذا التمثال فى قصيدة للقاضى الأرجانى

وعلى الجبل إلى يسار الطاق صور أخرى ساسانية ؛ منها صورة تمثل أردشير بن بابك مقيم الدولة الساسانية ، وقد داس عدوه أردوان، وصورة أخرى تمثل الملك سابور . وقد جثا أمامه أسيره الإمبراطور فلريان ٠

برحنا كرمانشاهان صباح الثلاثاء ، فنزلنا عند طاق بستان مرة أخرى

لنعيد النظر إلى برويز وشبديز وما هنالك من الصور . ثم استأنفنا المسير والساعة ثمان ونصف ، فوقفنا بعد نصف ساعة على آثار الملك دارا فى جبل بيستون . وهو جبل شاهق يكاد الطرف يعيا دون قمته ؛ وقد سويت فيه على ارتفاع عظيم صفحة صور فيها الملك دارا وأمامه وفود الأمم المغلوبة . وتحت الصورة نقوش كثيرة بالفارسية القديمة ، والأشورية . وكانت هذه النقوش مفتاح اللغة الفارسية القديمة ، كما كان حجر رشيد مفتاح اللغة المصرية . وعلى مقربة من هذه الآثار موضع فى الجبل منحوت يظن أنه أريد تسويته للنقش ثم عدل عنه . ولكن الروايات الفارسية تقص فى ذلك قصة عجيبة عن فرهاد عاشق شيرين الذى ذكرته آنفاً . وسأعود إلى هذه القصة حين أصف مرورنا بجبل بيستون ليلا ، ونحن قافلون من طهران .

— ٤ —

همذان الى طهران

ثم مررنا بكنكاور بعد ساعتين من كرما نشاهان ؛ وهى قرية صغيرة بها آثار معبد قديم . وبعد ساعة مررنا بقرية أسد آباد . وقد زعم بعض الرفاق أنها قرية السيد جمال الدين الأفغانى ، وبها بعض قرابته .

ويقول الأفغانيون إنه من أسد آباد القريبة من مدينة كابل . وكذلك أخبر السيد عن نفسه . ومهما يكن فقبيح أن تتنازع رجال الإسلام العظام عصبية الأقوام والبلدان . فقد كان المسلمون أمة واحدة لها موطن واحد هو دار الإسلام . والسيد جمال الدين عربى هاشمى حسينى ، ولكنه كما قال الشاعر :

أبى الإسلامُ لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم
فنحن بنو الإسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

فإن أراد المسلمون أن يفترقوا أقواماً وبلداناً وشيعاً؛ فلا يظلموا أسلافهم العظماء بزجهم فى هذا المعترك . فقد كانوا أعظم نفوساً وأسمى أفكاراً من أن تحيط بهم عصبيات اللحوم والدماء ، والأرض والبناء .

وأسد آباد قرية أسسها أسد بن ذى السرو الحميرى فى زعم الرواة . على مرحلة من همذان إلى الجنوب والغرب منها فى حضيض جبل ألوند :

(جبل أسد آباد) . وكانت منزلا كبيراً على الجادّة العظمى بين بغداد وهمذان . وكانت فى العهد الإسلامى إلى عصر المغول غنية رائجة التجارة كثيرة السكان . نشأت كثيراً من العلماء . وهى اليوم قرية صغيرة . وعندها كانت الموقعة الكبيرة بين السلطانين السلجوقيين محمود بن محمد ابن ملكشاه وأخيه مسعود سنة أربع عشرة وخمسمائة . وعلى ثلاثة فراسخ من أسد آباد أبنية ساسانية تعرف فى الكتب العربية باسم مطابخ كسرى.

ثم ارتقينا جبل أسد آباد . وهو جبل شامخ فسيح ، تتراءى بين قممه وأوديته مناظر جميلة جليلة ، محبوبة هائلة ؛ رأيناه وقد ذبلت أعشابه ورياحينه وأشجاره . وقيل لنا إنه فى الربيع يبدو فى حلل رائعة من الأزهار مختلفة الألوان ، لا يعرى منها مكان فى القمم والأودية. وترى الطرق جدائد على سفح الجبل ، تتمعج فيها السيارات صاعدة وهابطة . وقد عدّ سائقو السيارات فى بعض الطريق اثنتين وسبعين عطفة. فما ينعطف السائق إلى اليمين إلا لينعطف إلى اليسار ، وهكذا اثنتين وسبعين مرة أو أكثر . ولكن الطريق فى جملتها ممهدة واسعة مأمونة ، لم نشعر فيها بالخطر الذى أنذرنا به من قبل .

هذه همذان الجميلة ! فى حجر جبلها الأشم — جبل ألوند — تبدو فى زينة من أشجارها الباسقة ، وبساتينها الواسعة . هذه بلدة بديع الزمان

وأحمد بن فارس ، وابن الفقيه . هنا مرقد الشيخ الرئيس أبى على ابن سيناء ! ليت الوقت يتسع فنقضى بهمذان أياماً نتعرف حاضرها ونتلمس أعلام التاريخ من ماضيها !

همذان مدينة عظيمة قديمة ، ذكرت فى الآثار الفارسية القديمة باسم هكمتانه ، وهى فى التوراة أحمنتا ، وفى كتب اليونان أكبتانا . وقد لجأ إليها دارا بعد أن هزمه اسكندر فى موقعة « إربل » . وكانت واسعة العمران حتى قال ابن حوقل إنها كانت هى وأرباضها فرسخاً مربعاً . وصارت حاضرة لبعض دول السلاجقة .

وقد روى ابن الفقيه الهمذانى وياقوت كثيراً من أخبارها وما قاله الشعراء فيها . وبردها شديد جدا . وقد روى فى ذلك أن عبد الله بن المبارك قدمها فأوقدت بين يديه نار ؛ فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد ، وإذا سخن ظاهرها أصاب باطنها البرد . فقال :

أقول لها ونحن على صلاء أما للنار عندك حر نار ؟
لئن خيِّرتُ فى البلدان يوماً فما همذان عندى بالخيار

وقال آخر :

همذان متلفة النفوس ببردها والزمهرير ، وحرُّها مأمون
غلب الشتاء مصيفها وربيعها فكأنما تموزُها كانون

وقيـل لأعرابى : كيف رأيت همذان ؟ فقال : أما نهارهم فرقاص ، وأما ليلهم فجمال . » يعنى أنهم بالنهار يرقصون لتدفأ أرجلهم ، وبالليل يحملون ثياباً كثيرة .

دخلنـاها والساعة واحدة بعد الظهر ، فنزلنا فى دار بظاهرها اسمها باغ رئيس الإسـلام ، وهى دار جميلة ذات حديقة كبيرة وفيها مجلس واسع حول حوض عظيم . نزلنا بها فاسترحنا وتغدينا وجلسنا برهة وأخذت صورتنا .

وقـد رأيت صاحبنا السندباد الذى ذكرته آنفاً يرتب الحـاضرين لأخذ الصورة . فقلت : ياسندباد أنت فى كل مكان ولـكل عمل . إنك أبو الفتح الإسكندرى أو أبو زيد السروجى ، فقال الأستاذ منورسكى : هذا ابن بطوطة .

ومما أذكر من لطائف هذا المجلس أن أحد مندوبى الهند محمد إسحاق نظر إلى أشجار عنب قصار فسألنى ماهذا ؟ قلت : كَرم ولـكنه صغير ؛ فقال : إذاً ما كذب الثعلب فى حكايته المعروفة حين قال ، هذا حصرم ، فعنب هذا الـكرم فى متناول الثعالب .

ثم خرجنـا لزيارة قبر الشيخ الرئيس ، دخلنا الباب إلى رحبة تنتهى إلى بابين أيسرهما باب مكتبة صغيرة عامة ، والأيمن مكـتوب فوقه : (أرامكاه أبو على بن سينا) أى مرقد أبى على بن سينا ، دخلنا حجرة

صغيرة بها قبران متشابهان يغطى كلا منها صفيحة واحدة من الحجر عليها نقوش كثيرة ، ويحيط بهما سياج من حديد . فالقبر الذى يلي الباب قبر الشيخ الرئيس ، والذى إلى جانبه قبر رجل اسمه أبو سعيد . قال بعض أصحابنا : إنه أبو سعيد ابن أبى الخير الصوفى المعروف . وليس هذا مقبولا فابن أبى الخير مات فى خراسان .

ثم ذهبنا لزيارة مزار هناك يعظمه اليهود ويحجون إليه ، ومن أجله كثر عددهم فى همذان حتى صاروا زهاء ألفين — وهو في زعمهم قبر ايستر ومردخاى. وهما امرأة ورجل من اليهودلهما قصة فىالتوراة فى (سفرايستر) وخلاصة القصة أن ايستر كانت فى حضانة ابن عمها مردخاى فى مدينة سوس ، وأن ملك الفرس اخشويرش غضب على امرأته وشتى وأراد أن يختار غيرها ، فعرضت عليه فتيات مملكته فاختار ايستر اليهودية وحظيت عنده . وكان هامان وزيرالملك قد نقم علىمردخاى أنه لايسجد له كما يسجد الناس ، فأغرى الملك باليهود وأخرج أمره بقتلهم حيثما ثقفوا فى المملكة . وكاد مردخاى وايستر لهامان حتى أمر الملك بصلبهعلى الخشبة التى أعدها هو لصلب مردخاى . وكتب الملك إلى الولاة ألا ينفذوا أمره فى اليهود وأن يسلطوا اليهود على أعدائهم فيقتلوهم .

والقبران كبيران عليهما سياجان ، وهما فى حجرة ذات قبة لها مدخل

صغير واطي لا يدخله الداخل إلا راكعاً.

قضينا فى همذان ثلاث ساعات ونصفاً ثم برحناها والساعة أربع ونصف متوجهين تلقاء قزوين .

برحنا همذان وما قضت النفس منها لبانة .

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

و بعد ساعة نزلنا منزلا على الطريق اسمه رزان ، وقد أعد لنا الشاى والفاكهة والفستق والحمص واللوز الخ . فرأينا ضرباً من الحمص والفستق كبيراً لم نرمثله من قبل . وكان السير دنسن روس ، والشاعر الإنكليزى درنك ووتر قد سبقا إلى هذا المنزل ، إذ فارقا همذان قبل الركب دون أن يزورا قبرى ايستر ومردخاى فطال بهما الانتظار فى هذا المنزل . فلما بلغته أنا ورفيقى عبد الكريم الحسينى قابلنى أستاذى رس دهشاً يقول : لماذا تأخرتم ، هل زرتم إيستر ومردخاى ؟ قلت : نعم .قال : هل ألقى مينورسكى هناك محاضرة طويلة ؟ قلت: محاضرة قصيرة . قال: ذلك ما ظننت ، قد تأخرنا جدا وأظلم الليل .

ثم سرنا قبل أن يدركنا الرفاق فى طريق موحشة تتخللها قرى وضياع قليلة منها مكان اسمه آب كرم أى الماء الحار فيه حمة ، أى ينبوع ماء حار .

وقفنا للاستراحة قليلا ورؤية الينبوع ، فتركنا السيارة ومشينا

وراء رجل يحمل مصباحاً حتى أتينا النبع ، فإذا حجرة فيها حوض يفور منه الماء . فقلت لصاحبي : ما أحسنه حماماً لو هيىء له بناء . وكم في الشرق من معادن ومياه أغفلتها الأفكار والأيدي ! واستأنفنا السير وطال بنا السفر حتى لاحت قزوين تحت ظلام الليل ، فوردناها متعبين والساعة تسع ونصف من المساء . وقدم بقية الركب بعد ساعة . بتنا في دار جميلة بجانب كنيسة روسية . وقد وهبت الدولة الروسية هذه الدار والكنيسة وما يتصل بهما للدولة الإيرانية بعد الحرب العالمية .

قزوين بلد قديم ذكره بطليموس باسم قساپين . وهي على الجادة العظمى من بغداد إلى خراسان . وتلتقي عندها طرق القوافل الآتية من الشرق والغرب والشمال والجنوب . فمن أجل ذلك اتسع عمرانها في القديم وراجت تجارتها . وهي على مقربة من جبال ألبرز ، ويجرى عندها نهر صغير يفضي إلى نهر أبهر . وتبعد عن طهران مائة وخمسين كيلا.

وكانت قبل الإسلام وبعده ثغراً لمحاربة الديلم . وقد مصرها سعيد بن العاص بن أمية ، وجعلها مغزى أهل الكوفة . وأغزى الحجاج ابنه محمداً الديلم ، فنزل قزوين وبنى بها مسجداً سمي بعد مسجد النور . وبنى موسى الهادي مدينة بجوارها عرفت بمدينة موسى . وبنى المبارك التركي مولى المأمون أو المعتصم حصناً بها سماه المباركية . وروى ياقوت :

« اجتاز الرشيد بهمذان ، وهو يريد خراسان ، فاعترضه أهل قزوين ، وأخبروه بمكانهم من العدو ، وعنائهم فى مجاهدته ، وسألوه النظر لهم ، وتخفيف ما يلزمهم من عشر غلتهم فى القصبة فسار إلى قزوين ودخلها ، وبنى جامعها ، وكتب اسمه على بابه فى لوح حجر . وابتاع بها حوانيت ومستغلات ، ووقفها على مصالح المدينة وعمارة قبتها وسورها » .

وقد ذكرها بديع الزمان باسم الثغر ، فى المقامة القزوينية التى أولها : غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين . وروى بعض المحدثين أخباراً فى فضائل قزوين ، والحث على الإقامة بها لكونها من الثغور . وقد ذكرت فى الشعر العربى . ومن ذلك قول الطرماح بن حكيم :

خليلى مد طرفك هل ترى لى ظعائن باللوى من عوكلان

ألم تر أن عرفان الثريا يهيج لى بقزوين احتزانى

وقد نشأت قزوين جماعة من العلماء والأدباء ، منهم الرافعى صاحب كتاب التدوين فى أخبار قزوين توفى سنة ٦٢٣ هـ وزكريا بن محمد صاحب عجائب المخلوقات المتوفى سنة ٦٨٢ ، وحمد الله المستوفى المؤرخ صاحب تاريخ كزيده ونزهة القلوب فى الجغرافيا المتوفى سنة ٧٥٠ ، وأبو حاتم محمود بن الحسن الفقيه الشافعى أخذ عن الاسفرائينى والباقلانى ، وأخذ عنه الشيرازى وله كتب كثيرة ، منها كتاب الحيل فى الفقه وتوفى

سنة ٩٤٠ ، ومنهم الحكيم شاه محمد الذى أخذ عن جلال الدين الدوانى ، وذهب إلى مكة للمجاورة فدعاه السلطان بايزيد الثانى إلى استانبول فعاش فى رعايته ورعاية سليم وسليمان من بعده ، وكتب فى التفسير والعقائد والفلسفة وترجم حياة الحيوان للدميرى إلى الفارسية .

تركنا قزوين والساعة تسع ونصف من صباح الأربعاء ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (١٣ اكتوبر سنة ١٩٣٤) فبلغنا طهران بعدالظهر ، ونزل جماعة منا فى الفندق الكبير (جراند أوتيل) وآخرون في الفندق « النادري » .

— ٥ —

طهران ومؤتمر الفردوسى

استرحنا بقية اليوم وزرنا بالليل دار المفوضيه المصرية . ومر وزير المعارف فترك بطاقاته للمندوبين ، ووزع عليهم منهاج المؤتمر وأوراق أخرى فيها دعوات إلى حفلات كثيرة . وعرفنا من المنهاج أن أيام المؤتمر والحفلات خمسة عشر يوما من الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ (٣ أكتوبر سنة ١٩٣٤ — ١٢ مهرماه سنة ١٣١٣) إلى يوم الجمعة عاشر رجب . ومن ذلك ستة أيام فى طهران ، وثلاثة أيام فى مشهد ، وستة فى الطريق بين طهران ومشهد ذهاباً وأوبة . وقد سجل فى بيان أعضاء

المؤتمر اثنان وأربعون من ممثلى الأمم المختلفة ، ومثلهم من الإيرانيين . ومندوبو الأمم يمثلون ثمانى عشرة أمة بينها من أمم الشرق مصر والعراق وتركيا وأفغانستان والهند واليابان

وفى اليوم التالى بدئت أعمال المؤتمر بمدرسة دار المعلمين فى بهو فسيح صفت فيه مقاعد كثيرة ، صفوفها الأولى لأعضاء المؤتمر والأخرى للحضار من غيرهم . ووضع فى صدر المكان تمثال للفردوسي ، ومنصة للرياسة ، ومنصة الخطابة . واستمر اجتماع المؤتمر خمسة أيام . وكان الموعد من الساعة التاسعة صباحاً إلى الواحدة بعد الظهر . وزيدت جلستان فى مساء اليومين الثالث والرابع لكثرة مريدى الكلام من الأعضاء . وقد تكلم زهاء أربعين ، قليل منهم من الإيرانيين . وترك بعض الإيرانيين الكلام ليفسحوا مجال القول لضيوفهم .

افتتح المؤتمر فروغى خان رئيس الوزراء ، ولجنة الآثار القومية ، فشكر الوفود باسم الأمة الإيرانية والحكومة ، ولجنة الآثار على ما أجابوا الدعوة وتحملوا مشاق السفر ، وأبلغهم سرور جلالة الشاه بقدومهم ، وأنه سيقابلهم فى طوس وقال :

يقول الشيخ سعدى : « إن السفر لايطول على قاصد الحبيب[١] » وإنما أجاب السادة الفضلاء دعوة الفردوسى . وإذا كان الداعى هو

---

(١) سفر دراز نباشد بباى طالب دوست

الفردوسى أمكن أن نقول« ليس فى السفر الروحى بعد المنازل [١] »
ونحن ، مواطنى الفردوسى الذين عهد إلينا شرف الترحيب بكم نيابة عنه
نعرف أنكم كنتم على يقين مما تلقون من المشقات الجسمانية ، ولكن
أرواحكم الكبيرة الكريمة قلبت المشقة راحة بهمتها العظيمة ، وأولت
إيران يداً لاتنسى . أجل قد حملتمونا المنن العظيمة ، ولكن كان لكم
الحق فيما حملتم أنفسكم من مشقة ، فان الفردوسى إن تعلق بإيران جسما
فهو ابن الإنسانية روحاً ، بل أقول إذا أذنتم لى : إنه من آباء الإنسانية ،
وبعد فقبيح أن يتصدى جاهل مثلى تعريف علماء أمثالكم بالفردوسى .
فمن الخير ألا أشغل أوقاتكم النفيسة، وأن أفسح المجال لأعمالكم المفيدة»

ثم أعلن افتتاح المؤتمر ، وأخبر أن « على أصغر حكمت» كفيل
وزارة المعارف [٢] سيتكلم بالفرنسية لأن بعض الحاضرين لا يعرف الفارسية
فتكلم كفيل المعارف مبدياً سرور الإيرانيين وشكرهم للعلماء الذين وفدوا
للمشاركة فى حفلات الفردوسى ثم قال :

« إن اجتماع هذا العدد من العلماء على اختلاف الأوطان دليل قاطع
على ماقيل من أن العلم والأدب لاوطن لهما . فحيثما لمع نور هذه الموهبة
الالهية اتجهت اليه النفوس المستعدة والأرواح المشتاقة كالفراش ؛ فيرون

---

(١) بعد منزل نبود درسفر روحانى
(٢) كفيل الوزارة هو القائم بأعمالها

أنفسهم فى هذه المرآة المشتركة بينهم ويقولون : كنا متحدين ، كناجوهراً واحداً ، كنا بغير أجسام ورءوس ، كنا جوهرا وضاء كالشمس ، وكنا صافين كالماء ، فلما تصور هذا النور الجميل ظهرت أعدادنا ظهور ظلال الشرفات .(١)

إن اهتمام الأمم العظيم بعيد الفردوسى الألفى واحتفاءها به فى بلادها ، وإرسال فضلائها إلى قبر شاعر إيران برهان على أن الأمم لاتختلف في الحقائق على رغم ظواهر الأمور . إن بين الأمم اختلافا فى السياسة والاقتصاد ، والتجارة والمعيشة والآداب والعادات — اختلافاً جعل العالم الحاضر ملؤه الشرور والآفات ، ولكن كلما لاحت للناس الأمور المعنوية والفوائد العلمية والأدبية امحت هذه الاختلافات وتجلى الوفاق والوئام . »
ثم بين كفيل المعاوف أن الاشتراك فى مثل هذه الأمور أحسن وسيلة إلى التقريب بين الأمم ، وقال : لذلك أفتخر بأن أقول إن اهتمام الامة الإيرانية بعيد الفردوسى ودعوة الأمم إلى المشاركة فيه يعد فى الحقيقة خطوة إلى التفاهم الحقيقى بين الأمم وإن يكن فى ظاهره ذا مقصد أدبى وتاريخى »

---

(١) هذه ترجمة أبيات صوفية أظنها من المثنوى وهى :

متحد بوديم ويك جوهر همه — بى تن وبى سر بديم آن سر همه
بك كهر بوديم همجون آفتاب — بى كهر بوديم وصافى همجو آب
جون بصورت آمد آن نور سره — شد مدد جون سابه‌هاى كنكره

وبعد فراغ وزير المعارف من كلمته دعى الحاضرون إلى انتخاب مكتب المؤتمر فكانت نتيجة الانتخاب :

الحاج محتشم السلطنه اسفندياري	رئيس
الأستاذ كريستنسون الدانمركي	نائب الرئيس
الأستاذ زاره الألمانى	نائب الرئيس
الأستاذ هنرى ماسي الفرنسى	منشى (سكرتير)
الدكتور عبد الوهاب عزام	»

ثم تلا الرئيس رسائل كثيرة من الحكومات والجامعات تبين عن مشاركة الإيرانيين في الحفاوة بشاعرهم . ثم تكلم بعض المندوبين كلمات قصيرة أبانوا فيها عن سرورهم بالمشاركة فى هذا الاحتفال .

وكان من المتكلمين الأستاذ عبد الحميد العبادى فتكلم بالعربية عن فضل الفرس على الأدب العربى ، وألقى الشاعر الكبير الزهاوي قصيدة فارسية

ثم بدئت المحاضرات على ترتيب حروف الهجاء اللاتينية فكان أول المتكلمين الأستاذ العبادى فتكلم عن الاخلاق فى الشاهنامه واستمرت كلمته خمساً وعشرين دقيقة وتلقاها الحاضرون بالاستحسان ، واقتبس منها بديع الزمان أحد أدباء إيران حينما تكلم عن الشاهنامه من بعد

وفى اليوم التالى تكلم سفير الروس ، وترجمت كلمته إلى الفارسيـة ، وأهدى عن دولته كتباً وصورا فارسية قيمة . ثم خطب سفير الألمان وقدم هدايا من الـكتب منها فهرست للشاهنامه ، وأعلن منح بعض الجامعات الألمانية لقب رئيس وزراء إيران دكتوراه فى الآداب؛ وانتخاب وزير المعارف عضوا فى جمعية المستشرقين الألمانية . ثم تكلم آخرون وانتهت الجلسة بإنشاد الشاعر الـكبير الزهاوى قصيدة عربية (نشرت فى الرسالة حينئذ)

وفى اليوم الثالث كانت جلستان فى الصباح والعشى ، وتكلم ثمانية . وكنت ثانى المتكلمين فى الصباح فألقيت بالفارسية كلمتى «مكانة الشاهنامه» فى آداب الأمم » فى عشرين دقيقـة . وقد تفضل الحاضرون فأحسنوا استقبالى حينما قمت للـكلام ، وأحسنوا الاستماع إلى ،ثم أبدوا استحساناً عظيما حينما فرغت وإنى أدع للجرائد الإيرانية الـكلام، فإن القارىء المصرى يهمه أن يعرف ماقالت جرائد إيران فى ذلك .

قالت جريدة اطلاعات :

« ثم ألقى الدكتور عبد الوهاب عزام معلم الأدب الفارسى والعربى بالجامعة المصرية ، خطبة بالفارسية موضوعها « مكانة الشاهنامه فى آداب الأمم » وقد بدأ كلامه بقوله : أنا لا أحسن التكلم بالفارسية ، ولكنى لا أريد فى حضرة هذا الشاعر الكبير (وأشار إلى تمثال الفردوسى) أن أتكلم إلا بلغة الشاهنامه »

ولخصت الجريدة المحاضرة ، ثم قالت : » وفى نهاية الخطبة أبدى سروره بمشاركته هو وزميله فى عيد الفردوسى باسم الأمة المصرية والحكومة . وقدم إلى رياسة المؤتمر نسخة نفيسة من الشاهنامة العربية التى أخرجها الدكتور عزام أخيرا بعد أن صححها وعلق عليها وقدم لها مقدمة نفيسة جامعة . وطلب أن ترفع هذه النسخة إلى الحضرة الهمايونية الشاهنشاهية . وكذلك قدم نسخة إلى حضرة رئيس الوزراء ، وأخرى إلى كفيل وزارة المعارف ؛ وكانا حاضرين ، وقد قوبلت خطبته وعمله بتصفيق شديد . وحينئذ تقدم إلى منصة الخطاب السيد حكمت كفيل وزارة المعارف ، وشكر الدكتور عزام على ماأظهر من عواطف المودة وقال :

« أشكر الدكتور عبد الوهاب عزام من جهتين : الأولى أنه تحمل مشقة فى ترجمة الشاهنامة وتصحيحها والتعليق عليها . والثانية أنه تكلم بلغة الشاهنامة يقول حافظ الشيرازى : إن الترك المتكلمين بالفارسية يهبون لى الحياة [1] وأنا أقول إن العرب المتكلمين بالفارسية يهبون لى الحياة . والحق أن لسانى قاصر عن الشكر ، والأستاذ عزام من أدباء الشرق الذين درسوا الفارسية برغبة وعشق وكلف خاص . وإنى أختم شكرى بهذين البيتين للشيخ سعدى :

قلت لقلبى : إن الناس يجلبون السكر من مصر فيهدونه إلى الأحباء

---

(١) تركان پارسى گو بخشند گان عمرم

فان تكن يدى خالية من هذا السكر فعندى كلام أحلى من السكر [١]»

ولمـــا جلس الدكتور عزام فى مكانه من منصة مكتب المؤتمر قال له الرئيس : « لقد أردت أن تثبت أنك أستاذ الأدب الفارسي بحق « أهـ . »

ثم توالى المتكلمون فى اليومين الرابـع والخامس ، وأنشد الشاعر الإنكليزى درنكووتر قصيدة . ثم ترجمها نظما وأنشدها فى المؤتمر من بعد الشاعر الفارسي بهار الملقب بملك الشعراء .

وتكلم فى اليوم الأخـير الاديب أحمـد حامد الصراف أحد مندوبى العراق فألقى بالعربية كلمة قصيرة بليغة تكلم فيها عن :المودة بين العراق وإيران .

وكانت هذه الأيام الخمسة مزدحمة بحفلات الغداء والعشاء ، ومشاهـد التمثيل والألعاب الرياضية ومشاهدة الأماكن العظيمة فى طهران .

---

(١) بدل كنم أز مصر قند آورند   بردوسنان أرمغاني برند
مرا كة تهى يود أزين قندست   سختهاى شيرن ترأز قندهست



تلقينا يوم قدومنا طهران دعوات كثيرة إلى حفلات رتبتها الحكومة — دعوات باسم رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية والخارجية والمعارف ، ولجنة الآثار القومية ، ونادى (إيران جوان) . وكانت دعوة رئيس الوزراء إلى العشاء فى قصر كلستان ، والدعوات الأخرى إلى الغداء فى دار البلديةونادى إيران . وقد دعت لجنة الآثار إلى شهود التمثيل مرتين فى مسرح (سالن نيكوئى) ، وإلى شهود لعب الجوكان ، وألعاب أخرى فى ميدان سلطنت آباد .

تعشينا الليلة الأولى فى القصر الملكى : (قصر كلستان) . وهو بناء جميل يرى الداخل إليه حديقة فيها أحواض ماء كبيرة ، وقدرأينا على حافة الأحواض شموعاً كثيرة توقدت فيرى للألائها على صفحة الماء رواء جميل .

وصعدنا إلى بهو فسيح غشيت جدره وسقفه بالمرايا وقطع البلور — وهذه زينة شائعة فى إيران رأيناها في أمكنة كثيرة — وصفت في جوانب المكان خزائن ذخائر الملوك السالفين فيها قطع كبيرة من الأحجار النفسية ، وسيوف وخناجر وتروس ، وأدوات للزينة ، وأباريق وطسوت . كل ذلك محلى بالماس والياقوت ، والعقيق والفيروز . وفى صدر

المكان عرش محلى بالأحجار الثمينة له مسند على صورة ذنب الطاووس ، ويسمى عرش الطاووس ، وكذلك رأينا كتباً قديمة فيها عجائب الخط والنقش والتجليد وآيات الصناعات الإسلامية . أمتعنا النفس برؤية هذه الأعلاق ، ثم تعشينا ، وشهدنا بعد العشاء ألعاباً نارية كثيرة .

ومن الأبنية الفخمة التى رأيناها فى طهران : مسجد سپاهسلار ، وهو مسجد كبير فيه مدرسة تسمى الآن : مدرسة المعقول والمنقول ، ولها مكتبة بها مخطوطات قيمة . ومساجد إيران كلها متشابهة فى قيامها على عقود كبيرة وقباب ، وفيما يجللها من الكاشانى والخط الجميل .

وزرنا مجلس الشورى الملى (مجلس النواب) ، وهو بناء جديد رائع ، تناولنا الشاى فى الطبقة الثانية منه فى حجرة غشيت جدرها وسقفها بقطع البلور ، يتخللها ضوء النهار ، أو ضوء الكهرباء ليلا فإذا حجرة من النور يحار فيها الطرف .

وكذلك رأينا مدرسة الصنائع المستظرفة : (الفنون الجميلة) . وهى مدرسة ناشئة ، يرجى لها فى الاحتفاظ بصنائع إيران مستقبل عظيم .

وزرنا مصيف جلالة الشاه : (قصر سعد آباد) . وهو بناء جميل فى سفح جبل شمران شمالىّ طهران ، يحلق على منظر رائع من الأشجار الممتدة على السفح وتنحدر إليه المياه متدفقة من الجبل . والقصر بناء صغير به بضع حجرات ، وقد بنى كله بأحجار ذات ألوان طبيعية مختلفة جلبت إليه من أرجاء البلاد . ومن حجراته واحدة فيها مكتب جلالة الشاه .



في قصر سعد آباد

من اليمين : الدكتور عبد الوهاب عزام ، على حكمت وزير المعارف ، الأستاذ عبد الحميد العبادى ، وخلفهم الأستاذ أحمد حامد الصراف مندوب العراق .

وقد لفت الأنظار إليه جمال صنعه ، وصورة مدفع صغير فوقه ، ومقلمة لها سياج من رصاص البنادق . تناولنا الشاى فى حديقة نسقت بها الأزهار تنسيقاً رائعاً . ثم انصرفنا حين أشفقنا من برد العشى .

وشهدنا التمثيل مرتين : مثلت فى الليلة الأولى ثلاث قطع من الشاهنامة وفى الليلة الثانية سهراب من قصص الشاهنامة أيضا .

وشهدنا يوم السبت ١٤ مهرماه (٦ أكتوبر) فى ميدان سلطنت آباد على مقربة من المدينة لعب الجوكان (جوكان بازى) وألعابا رياضية أخرى (نمايشات زورخانه) .

والجوكان لعب الكرة والصولجان على متون الخيل . وكان لعباً شائعاً في العالم الإسلامى ولا سيا إيران . ويذكر كثيراً فى الشعر الفارسي . وأخذت منه فى اللغة كنايات كقولهم : « كوى برد » أى أخذ الكرة ، بمعنى حاز قصب السبق فى اللغة العربية يقول الشيخ سعدى :

« فسحت ميدان إرادت بيار تازندمرد سخنكوى كوى »

وترجمته : أفسح ميدان الإرادة ليضرب الرجل المنطيق الكرة أى أحسن الاستماع ليستطيع الفصيح أن يتكلم . وكان بجانبي وقت اللعب ملك الشعراء بهار فقلت : كم قرأت عن (أخذ الكرة) فى الشعر الفارسى وما فهمته حقا إلا الآن .

والألعاب الأخرى ، وتسمى : (نمايشات زورخانه) ضروب مختلفة من إظهار القوة : ضرب الطبل فجاء جماعة يلبسون سراويلات من الجلد ،

وسائر أجسامهم عار ؛ ونزلوا إلى حفرة مستديرة قريبة الغور . وجلس على مقربة منهم رجل على منصة يدق الطبل وينشد شعراً من الشاهنامة وغيرها . شرعوا يرقصون على هذه الأنغام ، ثم لعبوا ألعاباً مختلفة : يدور واحدهم على نفسه مسرعاً باسطاً يديه أو يحمل سلسلة ثقيلة دائرة يرفع بها يديه واحدة بعد الأخرى . أو يستلقى على ظهره ثانياً رجليه ، ويأخذ بكل يد قطعة من الحديد مبسوطة لها مقبض فى وسطها ، فيرفع بها يداً بعد أخرى مائلا على جانبيه ، أو يقوم ممسكاً بيده حديدتين ثقيلتين يحركهما حركات مختلفة ، وهكذا . وهى ألعاب قديمة تدل على القوة والمران .

* * *

أمضينا فى طهران خمسة أيام . وطهران مدينة حديثة ، كانت قرية صغيرة بجانب مدينة الرى الكبيرة ثم بنى لها الشاه طهماسب الصفوى سوراً عظيما . ثم اتخذها آغا محمد خان القاجارى دار ملك ، فشرعت تعظم وتتسع .

من طهران الى نيسابور

ويوم الثلاثاء ٣٠ جمادى الثانية (٩ أكتوبر — ١٧ مهرماه) برحنا طهران مبكرين متوجهين تلقاء مشهد . وبين المدينتين ٨٩٧ كيلا قطعناها فى ثلاثة أيام ؛ وكان جلالة الشاه قد سار إلى مشهد قبلنا بيومين .

اجتزنا جبال فيروز (فيروز كوه) . وهى جبال وعرة مديدة تجهد فيها السيارة صاعدة وهابطة ثلاث ساعات ؛ وبلغنا مدينة سمنان بعد الظهر فنزلنا داراً بظاهر البلد فى فناء مصنع كبير حديث لغزل القطن ونسجه ، وفى الفناء حوض واسع ، جلسنا على حافته فرحضنا عن الوجوه وعث السفر ،

استرحنا وتغدينا ، ثم استأنفنا المسير فقطعنا إلى دامغان ١٣ : كيلا ، واخترقنا البلد ولم نقف به .

وسأتكلم عن سمنان ودامغان حين أصف عودتنا من مشهد إلى طهران.
وقطعنا من دامغان إلى شاهرود ٦٧ كيلا . وبلغنا المدينة بعد الغروب ، وقد زين شارعها بسجاجيد كثيرة ، فنزلنا بدار كبيرة خارجها ؛ نزل بعضنا فى حجراتها ، وآخرون فى خيام ضربت فى الحديقة وفرشت فرشاً حسناً . وقد شعرنا بالبرد الشديد فى هذا البلد ، وأصابنى به برد لازمنى حتى عدت إلى طهران . فنغص على السفر قليلا وأفاتنى بعض المشاهد . فلها فى سفرنا ذكرى لا تنسى :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما   يرجى الفتى كيما يضر وينفع

وشاهرود قرية فى غربى خراسان على مقربة من حدود ولاية استرآباد طولها ٥٢ درجة وعرضها ٣٦ وارتفاعها ١١١٠ أمتار .

وهى مكان تجارى على الجادة من طهران إلى مشهد ، ويذهب منها طريقان إلى استرآباد ، وفيها مجرى ماء عذب ، وبساتينها كثيرة وإلى الشمال منها بسطام بلد الصوفى الكبير أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ ، وبها قبره . وقد تحولت التجارة عنها إلى شاهرود فى القرن الماضى فتضاءلت حتى صارت قرية صغيرة . وقد بنى بها ألجايتوخان من السلاطين الايلخانية مسجد أبي يزيد والمسجد الجامع . حرصت على زيارة أبى يزيد فقيل لى سنزوره فى عودتنا من مشهد . ثم لم يتيسر لنا هذا حينما رجعنا إلى

شاهرود قافلين إلى طهران لضيق الوقت وتعلل سائق السيارة بوعورة الطريق . وأنا أنقل هنا ما كتبه ياقوت وقد زارها قبل سبعة قرون .

فاتنى أن أرى الديار بعينى فلعلى أرى الديار بسمعى

قال ياقوت : « وقد رأيت بسطام هذه ، وهى مدينة كبيرة ذات أسواق ، إلا أن أبنيتها مقتصدة ليست من أبنية الأغنياء . وهى فى فضاء من الأرض ، وبالقرب منها جبال عظام مشرفة عليها ، ولها نهر كبير جار ، ورأيت قبر أبى يزيد البسطامى رحمه الله فى وسط البلد فى طرف السوق ، وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان الزاهد البسطامى » .

وبسطام ودامغان كانتا من مدن قومس المعروفة فى التاريخ الإسلامى .

تركنا شاهرود صباحاً ونحن ننشد ماقاله أبو تمام حين اجتاز بقومس وهو يؤم عبد الله بن طاهر فى نيسابور :

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت منا السرى وخطى المهرية القود

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

ونذكر ما قاله يحيى بن طالب الحنفي :

أقول لأصحابى ونحن قومس ونحن على أثباج ساهمة جرد

بعدنا، وبيت الله، من أرض قرقرى وعن قاع موحوش وزدنا على البعد

وقال الجوهرى صاحب الصحاح وهو فى قومس :

يا صاحب الدعوة لا تجزعن فكلنا أزهد من كرز

فالماء كالعنبر فى قومس من عزه يجعل فى الحرز

فسقنا ماء بـلا منــة وأنت فى حل من الخبز

فصلنا من شاهرود والساعة ثمان إلا ربعاً من صباح الأربعاء ومررنا بعد نصف ساعة بقرية قفر اسمها خير آباد. قال سائق السيارة : هذه قرية هاجت بساكنيها العقارب حتى تعذر عليهم الإقامة بها فهجروها . ونزلنا بعد ساعة وعشر دقائق فى منزل على الطريق اسمه : (باغ زيدر) . فشربنا الشاى على جدول عليه أشجار جميلة ، وسلكنا طريقاً موحشة ذات تلال ومحان كثيرة . قال محدثنا : كانت طريقاً مخوفة لا يفارقها خطر التركمان . ورأينا هناك قلاعاً قديمة مشرفة على الطريق . ونزلنا وقت الظهر فى قرية اسمها داورزن فى خان ضربت فيه خيام كبيرة فاسترحنا وتغدينا . ثم ركبنا بعد ساعة ونصف نؤم سبزوار . وهى كاسمها فى إقليم مخضر ، كثير البساتين فيه مجرى ماء ؛ وكانت مدينة عامرة ، قامت فيها فى القرن الثامن الهجرى (٧٣٥ — ٧٧٣) إمارة عرف أمراؤها باسم السربدارية (سربداران) . وأولهم : خواجه عبد الرازق أحد رجال السلطان أبى سعيد آخر ملوك الدولة الايلخانية . ودامت الإمارة خمساً وثلاثين سنة تداول فيها الأمر المضطرب اثنا عشر أميراً حتى قضى عليهم تيمور لنك .

وسبزوار الآن بلدة صغيرة لا يبدو عليها غنى ولا جمال . دخلنا وقد زين شـارعها سموط من مصابيح الـكهرباء فنزلنا بها وأوينا إلى خان واسع ذى طبقتين ، فرشت حجراته فرشاً حسناً من أجل وفود الفردوسى وبتنا ليلتنا مسرورين على ما صحب بعضنا من برد شاهرود .

ونحن الآن على مائة كيل من نيسابور العظيمة .

— ٧ —

نيسابور

برحنا سبزوار والساعة ثمان من صباح الخميس ثانى رجب سنة ١٣٥٣ (١١ أكتوبر سنة ١٩٣٤) . فضربنا فى السهل صوب الشرق نصف ساعة . ثم ارتقينا جبلا هبطنا منه إلى سهل فسيح ، وهكذا رأينا إيران ما بين قصر شيرين وطوس : سهولا تحيط بها جبال ، فما يزال المسافر على جبل أو فى سهل يفضى فيه النظر إلى جبل حيثما توجه . هبطنا سهلا كثير الشجر والزرع ، قد انتثرت القرى فى أرجائه تحيط بها الأشجار الباسقة ، ورأينا زروعاً شتى منها البطيخ والقطن . ورأينا لوز القطن قد تفتح ، ولما تعد الأعواد ذراعاً .

وبعد مسيرة ساعة وربع من سبزوار ، نزلنا بقرية على الطريق اسمها شوراب ؛ فأكلنا من عنبها واسترحنا قليلا . ثم استأنفنا السير تلقاء نيسابور والقلوب يملؤها الشوق ، والفكر يستجمع ماوعى من أحاديث التاريخ عن المدينة العظيمة ذات المياه والقرى والأشجار ؛ المدينة ذائعة الصيت فى العلم والأدب التى نشأت علماء يفتخر بهم المسلمون على الأدهار ، بلد مسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح ؛ والحاكم المحدث الكبير ، وأبى القاسم القشيرى صاحب الرسالة ، ومحيى الدين النيسابورى الفقيه ، وفريد الدين العطار ، وعمر الخيام ، المدينة التى يقول فيها الخيام :

شراب نشابور وآب دبير جوانى كند كرخورد مرهپير

(شراب نيسابور وماء دبير : يردان الشيخ إلى شبابه)

ويقول الأنورى :

حبذا شهر نشابور كه دربشت زمين

كربهشت است همين است وكرنه خودنيست

(حبذا مدينة نيسابور ! إن يكن على ظهر الأرض جنة فهذه ، وإلا فلا جنة)

نيسابور مدينة أزلية ، يروى الفرس أن بانيها طمهورث ثالث الملوك البيشداديين ، وأن إسكندر الكبير خربها ثم عمرها شابور الملك الساسانى فسميت باسمه ! وقد عرفها اليونان القدماء وسموها نيسوس . ويقال إنهم باسمها سموا باكوس إله الخمر « ديونيسوس » أى إله نيسابور .

وقد تعاقب عليها البناة من الساسانيين والعرب والغزنويين والسلاجقة كما توالت عليها النوائب من الزلازل والغارات فى عصور شتى : أصابها زلزال عظيم سنة نيف وخمسمائة من الهجرة وسنة ٦٦٦ وسنة ٨٠١ ودمرها الغز سنة ٥٤٨ حين غلبوا السلطان سنجر السلجوقى وأسروه . وهى المصيبة التى نظم فيها الأنورى الشاعر الفارسى قصيدته المعروفة « دموع خراسان » ولكن المدينة على رغم هذه المصائب كانت فى معظم العهد الإسلامى قبل التتار عامرة مزدهرة حتى سميت أم البلاد وقبة الإسلام

وقد رووا فى عمرانها ونضرتها مايستبعده العقل ؛ فمن عجائبها الاثنى عشرية أنه كان بها اثنا عشر معدناً للفيروز والنحاس والمرمر وغير ذلك ؛

واثنا عشر نهراً تنحدر من الجبال . واثنا عشر مائة مدرسة (أى ألف ومائتان) ، واثنا عشر مائة قرية ؛ واثنا عشر ألف قناة تجرى من اثنى عشر ألف ينبوع ،

قال ياقوت ، وهو ممن أدركوا غارات التتار :

« وأصابها الغز فى سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر خراسان، وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا ؛ واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف ؛ وخربوها وأحرقوها . ثم اختلفوا فهلكوا . واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر . فنقل الناس إلى محلة منها يقال لها شاذياخ وعمرها وسورها ، وتقلبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلا وأموالا ، لأنها دهليز المشرق ، ولا بد للقوافل من ورودها » وقال يصفها قبيل غارة التتار : « وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات » وقال : « لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها » .

ثم كانت القارعة التى دمرت حضارة الإسلام ، كارثة التتار ، فكانت كما قيل بالفارسية : « آمدندو كشتندوسوختستند و كندند وبردند ورفتند» أى جاءوا وقتلوا وأحرقوا وهدموا ونهبوا وذهبوا .

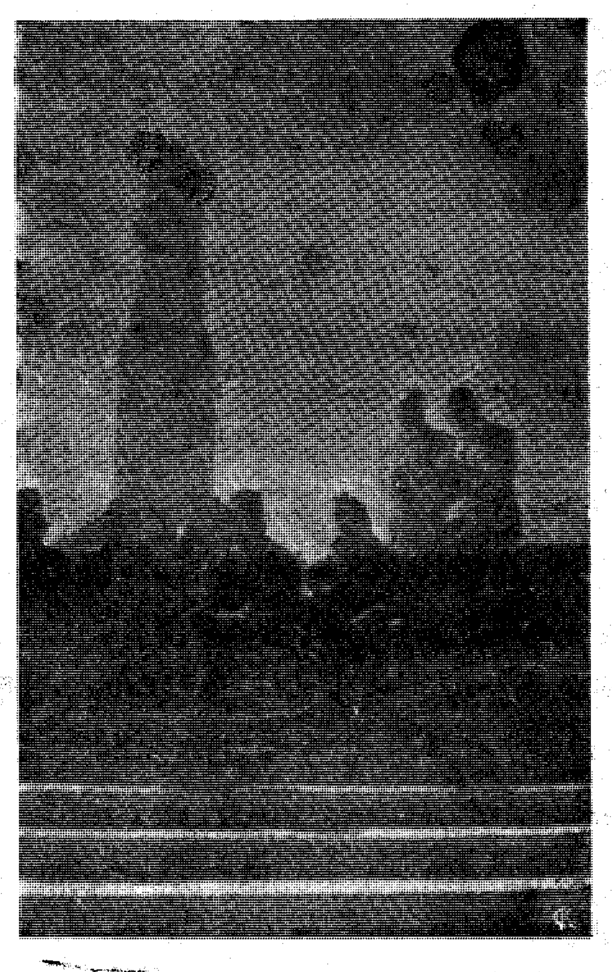
ولم تنسها المصائب من بعد ، فقد أغار عليها الأزبك وغيرهم فى عصور مختلفة .

ذكرنا هذه الخطوب ونحن قادمون على نيسابور ، ولكن خيال المدينة الكبيرة المزدهرة المزدحمة بمساجدها ومدارسها كان يغلب علينا فنمني النفس برؤية نيسابور فى زينتها وجلالها .

وردناها والساعة عشر وثلث ، فأبصرنا إلى يسار الجادة قرية هى بقية الأحداث من نيسابور ، كما يبقى من الجنة الناضرة عود يابس ، أو من الرجل العظيم قبر دارس .

ماتت المدينة فلم يبق إلا أن نزور قبرها فيما بقى من قبور أبنائها ، فهانحن أولاء نسرع المسير إلى قبر عمر الخيام . وقفت بنا السيارات بعد قليل على حديقة بعيدة من البلد فدخلنا بستانا كبيراً تتوسطه طريق واسعة فهبطنا درجات إلى مستوى سرنا به خطوات ، وهبطنا إلى مستوى آخر ، وبجانبنا قناة تنحدر إلى المستوى الأسفل فتفضى إلى حوض . وتنتهى الطريق إلى مسجد صغير جميل نقشت على بابه آيات من القرآن ، واسم الشاه طهماسب الصفوى الذى بناه . وفى المسجد ضريح لأحد أبناء الأئمة من آل البيت النبوي رضي الله عنهم ، واسمه محمد المحروق ، وينتهى نسبه إلى زين العابدين على بن الحسين .

وإلى يمين المسجد دكة لها درجات قليلة ، ولها سياج من الرخام ، وفى وسطها عمود كتب على أوجهه أبيات من الشعر . فهذا قبر عمر الخيام وقد سمعت ممن زاروا القبر قبلا أنه كان فى طاق فى جدار المسجد (وفى جدار المسجد على جانبي الباب طاقان) ثم نقل إلى هذا الموضع .



النصب الذى على قبر الخيام
والجالسون على الدرج من اليمين : نظام الدين مندوب الهند
والصراف (العراق) والعبادى وعزام ، والحسينى (الهند)

قلت لوزير المعارف : « كان ينبغى أن تكون بجانب القبر أشجا تتهدل أغصانها عليه . وتنثر الأزهار فوقه كما وصف الخيام قبره قبل موته فيما حكى نظامى ، العروضى وكما رآه نظامى نفسه بعد موت الخيام فوجده مصدقاً لما قال » .

كتب على صفحة من العمود : « الحكيم عمر الخيام — وفاة الحكيم سنة ٥١٧ — » وفوق ذلك رباعية من نظم ملك الشعراء بهار وترجمتها :
« اجلس الى قبر الخيام ، واقض الوطر ، وابتغ فراغ ساعة من غم الأيام » .
إن تسأل عن تاريخ بناء مرقده ؛ فهو : « اطلب سر القلب والدين من قبر الخيام » ، (رازدل ودين زقبر خيام طلب)

وفى الصفحة الثانية رباعيتان للخيام ترجمتهما :

« عاد السحاب يبكى على الشعب الأخضر ، فلا ينبغى العيش بغير الشراب الأحمر . هذا المرح مسرح أبصارنا اليوم ؛ فليت شعرى من يسرح بصره فى أعشاب قبورنا غدا .

نحن لعب ، والفلك بنا لاعب ؛ حقيقة لامجاز فيها ، كنا لاعبين على نطع هذا الوجود ؛ فعدنا إلى صندوق العدم واحداً بعد آخر (١) »

وعلى الصفحة الثالثة رباعيتان :

« ظهر بحر الوجود من الخفاء وما استطاع أحد أن يثقب جوهرة الحقيقة

---

١) إشارة إلى لعبة الشطرنج ورقعة الشطرنج تسمى نطعا .

هذه ، كل تـكلم بما يهوى ، وما قدر أحد أن يبين عن السر .

ليس عندنا يقين ولا حقيقة ، ولا يستطاع تزجية العمر كله فى رجاء هـذا الشك ، هلم نأخذ أقداح الصهباء بأيدينا لا نضعها ، ما فرق الصاحى والسكران فى هذه الجهالة ؟ » .

وعلى الصفحة الرابعة رباعيتان :

« أولئك الذين كانوا بحار الفضل والآداب ، وصاروا فى كمالهم مصابيح الأصحاب ، لم يجدوا للخروج من هذا الليل المظلم طريقاً ، فحدثوا بالأساطير ثم أخذهم النوم .

إن هـذا الدوران الذى يتجلى فيه مجيئنا وذهابنا ، لايستبين له بداية ولا نهاية ، ولايستطيع أحد أن يخبر صادقاً من أين جئناوإلى أين نذهب » .

ووراء قبر الخيام مزهرة جميلة [1] كتب على أرضها بألوان النبات : « حكيم عمر خيام » . ورأينا بجانب القبر حبا ، كأن واضعيه رأوا مناسبة بينه وبين قبر الشاعر الذى كان مستهتراً بالخمر . وقرأت على هـــذا الحب أنه وقف على مسجد إمام زاده محمـد المحروق . فقلت : قد وضع فى غير موضعه ، وقرن بما هو منه براء .

مد وراء قبر الخيام رواق كبير نظم فيه مجلس ومدت فيه موائد الطعام.

استراح الوافدون قليلاً ، واحتسوا ما شاءوا من أصناف الشراب . ثم وقفوا يشربون على ذكر الخيام . قلت : بئس ما ذكرتم صاحبكم ! وانتبذت أنا وزميلى الأستاذالعبادى جانباً وتركنا القوم وخيامهم . وقلت لبعض رفقائنا

---

(١) مزهرة : موضع أزهار . وهى كلمة اســتعملتها فيما يقابل كلشن وكلستان بالفارسية .

الإيرانيين : أين قبر العطار ؟ فلابد لقادم نيسابور أن يزوره . فيسر لنا المسير إليه . فذهبت أنا وبعض الحاضرين إلى قبر العطار . سارت بنا السيارات فى طريق غير معبدة . فانتهينا إلى حديقة ذابلة الشجر والزهر ، وفى وسطها بنية ثمانية عليها قبة . ولجنا الباب خاشعين إلى قبر عال عليه كسوة خضراء ، وإلى رأسه عمود أسود أطول من القامة قليلا عليه آية الكرسى ، وأبيات فى مدح الشيخ فريد الدين العطار .

لبثنا برهة فى حضرة شيخ الصوفية الجليل ، والشاعر المفلق المكثر الذى نظم زهاء ثلاثين منظومة فيها أكثر من ألف ألف بيت ، ناظم منطق الطير وإلهى نامه ، وأسرارنامه ، وجوهر الذات ... الخ . ومؤلف تذكرة الأولياء .

ثم بؤنا بغير ماباء به أصحاب الخيام ، والقلب خاشع ، والذكرى الجليلة آخذة على النفس آفاقها .

وهنا قصة ممتعة لا يسعنى إهمالها :

بينما أخرج من حديقة العطار أحسست بوخزة فى كفى فظننت زنباراً لسعنى ، فأخبرت رفيقى الشاعر النابغة رشيد الياسمى . فضحك وقال : قبلت الزيارة . قلت لاغرو أن تكون وخزة من العطار ينبهنى بها من الغفلة . ألم يقل معاصرو العطار : « أن شعره سوط السالكين ؟ » . قال : بلى . ثم ارتجل بيتاً فارسيا :

نيش عطار است أين زنبور نيست   كر تحمل ميكنى زو دور نيست

(هذه وخزة العطار لا حمة الزنبار . فإن تحملت الألم ففى سبيله) فأجبته :

لسع الزنبار كفى عادياً ودواء كان شعر الياسمى

ولما قدمنا مشهداً جاء إلى شاعرنا النابغة ، وقد نظم أبياتاً كثيرة فى هذه الواقعة أترجمها نثراً فيما يلى معتذراً إليه من هذه الترجمة المرتجلة التى لا تفى بشعره السلس ، ومعتذراً إلى القراء عما فيها من مدح :

جاء عزام من أرض مصر المختارة ، إلى نيسابور من أرض إيران ، فأراد أن يقبّل تربة العطار إذ ملأت محبته روحه : وذهب إلى مرقد الخيام فرآى مكاناً ناضراً زاهراً ، وسمع صيحات الطرب ، ورنات الكؤوس من كل جانب ، ورآى القلوب تفور بنار الصهباء . قال عزام : أيها القلب دع بساط الشراب والسرور ، واعجل إلى العطار ذلك الشيخ الوقور ، فسلك الصحراء رجل الطريق [1] حتى رآى قبراً عليه حجر أسود ، فلثم سُدة العطار وطاف فى هذه البقعة المباركة . ثم صاح بغتة وقال مضطرباً : قد أصاب كفى زنبار . قال له الياسمى : يا عالم مصر ! بل يا أيها الدر المتلألىء فى ذلك البحر

هذه حمة العطار ، لا لسعة الزنبار ؛ فإن تتحمل الألم ففى سبيله . حمة العطار توقظك حتى لا تخلو لذة من ألم (٢) . إن تبتغ الحبيب فلا بد من السعى الجاهد ، وأن ترد اللذة (نوش) فلا بد من الحمة (نيش) إن تكن ذقت حلاوة الخيام ، فوخزة العطار خير يا عزام .

---

(١) الطريق هنا : طريق الصوفية .

(٢) فى الأصل : « نيش ونوش » . أى الوخزة واللذة ، وهما كلمتان مقترنتان فى الأدب الفارسى لتقارب اللفظين .

من يخزك يوقظك من الغفلة ، ومن ينعمك يدعك فى غمرة . الوخزة توقظك من الرقاد ، واللهو ينآى بك عن السداد .

وانبعثت حينئذ منهذا الضريح صيحة بينة مفصحة وعتها أرواحنا :

يا من اختلط وجوده بالعدم ، وامتزجت لذته بالألم ! إذا لم يتداولك الهبوط والصعود ، فكيف تعرف نفسك فى هذا الوجود (١) » .

وقد وعدت الأستاذ الياسمى أن أجيب قصيدته بعد العودة إلىالوطن ثم مرت الأيام وحالت المشاغل ، حتى قدم الأستاذ فى الصيف الماضى فى وفد المصاهرة الملكية فأجبته بأبيات نشرتها فى جريدة البلاغ (٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ — ١٩ يونية سنة ١٩٣٨) :

يا رشيدٌ والليالى حِوَل	قل فى أحداثها من يَصِل
أذكرت العهد إذ كنا معاً	بعُلى شاعركم نحتفل
يقطع التاريخَ والأرضَ بنا	سفرٌ من عزمنا متصل
بين طهران وطوس مسرح	يتمادى سهله والجبل
ولنيسابور وافى ركبنا	ولدي الخيام كان النزل
ننشد الأشعار فى ساحته	ومن الذكرى لدينا مُثل
وتركنا الصحب فى محفلهم	سيرة الخيام فيهم مثَل
وأممنا بقعة ميمونة	للهدى والشعر فيها منزل
غبرت للناس فيها عِبرة	وثوى للخُلد فيها بطل

(١) هذان بيتان للعطار نفسه :

قد أنار القلب بالشعر كأن ... هو بالشعر نبيّ مرسـل
ذلك « العطار » من خلده ... « منطق الطير [١] » ونعم الرجل
عطر الآفاقَ طرا شعـره ... وأنار الأرض منه شعَل
فأطفنـا بضريح رائع ... عالم مد عليه جنـدل
وقضينا حقـه فى زروة ... مثلَ ما يقضى حبيبٌ عجل
ولدى البـاب أحست راحتى ... وخزة للـكف منها وجل
قلتُ : ما هـذا ؟ أراها نحلة ... لا أرى النحلة ، هذا معضل !
قلتَ :— والشعر موات طيع ... تتروى فيـه أو ترتجل — :
« وخزة العطار هذى ، فاصبرن ... إنما مثلك من يحتمل . »
قلتُ : « شعر الياسمىّ المرتضى ... بلسم تبرؤ منه العلـل »

***

وحثثنا السير نبغى « مشهداً » ... وإليها تستحب الرحل
وحططنا رَحلنا عند الرضـ [٢] ... والرضا غاية من يرتحل
ثم بكرت إلينـا حاملا ... روضة فى ورق تنتقل
فإذا الزهرة روض مزهر ... ناضر تختال فيـه المقل
وإذا القصـة نظم رائع ... لفنون السحر فيه حيل
فى قريض مثنوىّ مبـدع ... وزن الأنغام فيه الرمل [٣]
قلت: « هذا الشعر قرض رَجْعه ... فى ديارى ، إن يمد الأجل »

---

(١) منطق الطير كتاب منظوم العطار
(٢) على الرضا بن موسى الكاظم أحد الأئمة الاثنى عشر .
(٣) كانت الأبيات من بحر الرمل

ثم ديوانك أهديت . به نفحة الروض وزهر خضل
فإليك الآن منى باقة يزدهيها فى يديك الجذل
باقة تهدى لروض ناضر أتراها من رشيد تقبل ؟
مرحباً أهلا وسهلا مرحباً فى قلوب لا ديار تنزل

* * *

مرحباً بالوفد جاءوا إخوة رسلا للخير . نعم الرسل
قد نهجتم للمعالى سبلا وهدت للرشد هذى السبل
مرحباً بالوفد يبغى وصلة لبلاد الشرق فيها أمل
مرحباً بالوفد لم يغتربوا إنهم فى أهلهم قد نزلوا
مرحباً(خوش آمدى)إن أقبلوا و (خدا حافظ)إما قفلوا (١)

* * *

رجعت من مزار العطار إلى قبر الخيام وأنا أنشد قول حافظ الشيرازى « جاء مرشدنا البارحة من المسجد إلى الحانة (٢) ... »

ولما رجعنا إلى قبر الخيام قال بعض الحاضرين من الشرقيين : كيف تركتم الخيام إلى العطار ؟ قلت : لكل رجل وجهته ، وإن لم يكن من القياس بد فصاحبنا أعظم من صاحبكم ، وأكرم حياة ، وأجل أثراً . فانصرف ثم عاد وهو يقول : ليس أحد من المتأدبين فى الشرق والغرب يجهل الخيام . وهذا أحد الوافدين من الأوربيين يسأل : من العطار ؟

(١) كلمتان تقالان بالفارسية للترحيب والتوديع .
(٢) شب أز مسجد سوى ميخانه آمد بيرما .

فهذه حجة لى . قلت : دعنى فإنى لا أقيس عظماءنا بمعرفة الأورو بيين وجهلهم ، ومدحهم وذمهم . . الخ .

دعينا إلى الموائد فطعمنا ، وتكلم الشاعر الإنجليزى درنكووتر عن الشعراء ومذاهبهم فى الحياة وقال : إنه لا ينبغى أن يفضل شاعر على غيره بصواب رأيه ، وسداد طريقته ، بل بمقدار إبانته عما أحسه فى هذه الحياة وأدركه فى هذا المعترك ؛ نحن لا نستطيع أن نقتدى بالخيام فنمضى أوقاتنا بين امرأة جميلة وكأس وعود ، فإن علينا فى هذه الحياة واجبات تأبى ذلك ، ولكننا لا نغض من قدر الخيام فقد أبان عن رأيه بهذا الأسلوب الشعرى الجميل ... الخ

ثم أنشد قطعاً من رباعيات الخيام كما ترجمها فيتز جرالد : وأنشد أحمد الصراف مندوب العراق بالفارسية بعض الرباعيات. وتكلمت فقلت بالفارسية : إننا مغتبطون بقدومنا مدينة نيسابور العظيمة ، ذات الذكرى العظيمة فى الحضارة الإسلامية . وها نحن أولاء بجانب الخيام الفلكى الشاعر الكبير ، فإلى روحه الطاهرة منا تحية ودعاء . ولا ننسى أن نرسل تحيتنا إلى الشاعر العظيم ، والصوفى الجليل فريد الدين العطار ، ذى المآثر الخالدة فى الشعر والتصوف .

و إنا لنرجو أن تعود هذه البلاد سيرتها الأولى فى العلم والأدب ، وأن ييسر الله لها السير فى سبيل الرشاد فى ظل صاحب الجلالة الشاه المعظم » .

فقام الأديب سيف آزاد صاحب مجلة إيران باستان(إيران القديمة) فتكلم وحيّا صاحب الجلالة ملك مصر ، وقال إنه قد ساءه أن سمع اليوم بمرض جلالته . وطلب من الحاضرين أن يدعوا له بالشفاء والعافية .

وألقى الأديب رشيد الياسمى قصيدة من الضرب الذى يسمى فى عرف أدباء الفرس غزلا . وهى مردوفة القافية . والرديف فى الشعر الفارسى أن تكرر كلمة بعينها آخر كل بيت ، ويُبنى الروى على الكلمة التى قبلها والرديف فى قصيدة الياسمي كلمة « رو » بمعنى الوجه . وهذه ترجمة القصيدة نثراً :

« قد استتر وجهك فى كمال الظهور ، وصار من التجلى فى حجاب من ذلك النور .

لا يرى أحد فى العالم وجهك ، وإن كان العالم مرآة لك .

إنى أدعوك حبيب الروح ، إذ لا يتجلى وجهك إلا فى عالم الأرواح .

ولّ وجهك شطرنا ، نُحوِّلْ عن الكون والمكان وجوهنا .

أيها الربيع لا تستر من العندليب خدك ، فقد جعل وجهه كورق الخريف هجرك .

فلا حرارة فى هذا القلب المتوقد ، ولا بسمة فى ذلك الوجه المورد .

لقد أمضيت العمر فى انتظار وحسرة ، وآمل أن يلوح وجهك لى مرة .

أيتها الشمس إنى من الشوق إلى شعاعك الوضاء ، أقلب كالهلال وجهى فى السماء .

أبتغى أثراً من هذا الوجه ، ولا أثر ، كما ابتغى إسكندر ماء الحياة فلم يظفر .

إن تبشرنى بوجهك يوماً واحداً ، وضعت وجهى على عتبتك أبدا .

إن تطلب يا رشيد الكنز فانصب ، فإن السعادة لا تسفر لمن لم يتعب » .

قدمنا الساعة خمساً وعشرين دقيقة ، وهي فرق ما بين وقت طهران ونيسابور ، وركبنا والساعة ثلاث وربع بعد الظهر متوجهين تلقاء مشهد وبينها و بين نيسابور ١١٦ كيلا ، فسرنا صوب الشرق والشمال فى سهل كثير الشجر ، فبلغنا قرية اسمها قدمكاه أى موضع القدم ، وسأذكرها فى الأوبة من مشهد . ثم اجتزنا بشريف آباد وعندها انعطفت الجادة صوب الشرق فارتقينا جبالا ضربنا فيها أربعين دقيقة ثم هبطنا إلى المشهد المقدس ، فدخلناه بعد مغرب الشمس .

افترق الركب فنزل جماعة بفندق هناك ، ونزل آخرون فى دار أحد الكبراء خليل بك نصير زاده ، وكنت وزميلى الأستاذ العبادى ممن شرفوا بالنزول فى هذه الدارالمعمورة ، فلقينا من الحفاوة والرعايةمالا ينسي .

مدينة المشهد

في عام اثنين وتسعين ومائة سار هارون الرشيد إلى خراســان لحرب رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وكان قد ثار بخراسان وأعيي الولاة ؛ وفي صفر من سنة ثلاث وتسعين اشتد به المرض وهو بجرجان فســار عنها إلى طوس ، ونزل بضيعة اسمها سناباذ في دار الجنيد بن عبد الرحمن ؛ فلما أحس أجله أمر فحفروا له قبراً في بستان الدار ، وأمر جماعة فنزلوا فيــه وقرأوا القرآن . وتوفى نصف الليل ، ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة ، ودفن في القبر الذي أعده .

وفي سنة ثلاث ومائتين كان الخليفة المأمون بن هارون قافلا من خراسان إلى العراق ، وقد ثار عليه عمه إبراهيم بن المهدى . فلما بلغ سناباذ نزل عند قبر أبيه أياماً . وكان معه على الرضا بن موسى الكاظم ولى عهده فمات الرضا في ذلك المكان في شهر صفر ، فدفن إلى جانب الرشيد . وفي هذا يقول دعبل بن على الخزاعى فيما يزعم الرواة :

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هـذا من العجب

اشتهرت قرية سناباذ وسميت «سناباذ المشهد » ، ثم سميت «المشهد» ، وبهذا الاسم ذكرها المقدسي . وسماها ابن بطوطة مدينة مشهد الرضا واتسعت المدينة ونسيت على مر الزمان مدينة « نوقان » التي كانت بجانب سناباذ وصارت محلة في المدينة الجديدة . ونافست مدينة المشهد مدينة طوس في إقليم خراسان حتى أخملتها . ثم اختفت طوس حين حاصرها ميرانشاه ابن تيمور وفتحها فأخربها عام ٧٩١ .

وقد لقيت المدينة من غير الزمان سعادة وشقاوة . وتقلبت بها أحوال مختلفة ؛ ولكن شأنها كان يزداد نباهة على مر العصور . وعنى عظماء المسلمين منذ القرن الرابع الهجرى بمشهد الرضا والمدينة التى نشأت حوله . قال ابن الأثير فى أخبار السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى : « وجدد عمارة المشهد بطوس ، وكان أبوه سبكتكين خربه . وكان أهل طوس يؤذون من يزوره فمنعهم من ذلك . وكان سبب فعله أنه رآى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى المنام وهو يقول له : إلى متى هذا ؟ فعلم أنه يريد أمر المشهد فأمر بعمارته . ثم بنى ابنه السلطان مسعود سوراً حول المشهد ليقيه غارات القبائل المجاورة . وفى القرن السادس الهجرى استولى الغز على المدينة ونهبوها ولكنهم أبقوا على مشهد الرضا وكذلك نهبت فى القرن الثامن فى عهد السلطان محمود غازان من الملوك الايلخانيين .

وأعظم الملوك عناية بالمشهد قبل عهد الصفويين السلطان شاهرخ ابن تيمورلنك (٨٠٩ — ٨٥٠) وزوجه جوهر شاد ؛ وسنذكرها حين الكلام على مسجدها العظيم .

وكان عهد الصفويين عهد نماء وازدهار للمدينة ؛ فقد تنافس الملوك الصفويون فى تعمير المشهد وتجميله ، وتعمير المدينة كلها ، ولا سيما الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ — ٩٤٨) والشاه عباس الكبير (٩٩٥—١٠٣٩) ولكن عناية الصفويين لم تكفها الغارات والنهب ، فقد غصبها أمراء الأزبك والشيبانية ثلاث مرات على رغم الصفويين ، وسيطروا عليها أزمنة مختلفة . وكذلك استولى عليها الأفغان حينما استولوا على إيران . ثم جاء

البطل الكبير نادر شاه ، فأكثر الإقامة فيها واختط قبره بها . وبنى فى المشهد الرضوى أبنية رائعة . ثم عادت إلى الأفغان حينما زلزلت دولة نادرشاه بتنازع خلفائه على العرش . وتداولتها حوادث أخرى حتى استولى عليها آقا محمد خان القاجارى ، وقتل سلطانها شاهرخ الأفشارى فى سنة ١٢١٠ . وفى العصر الأخير ثار بها على القاجاريين بعض الثائرين فتذرع الروس بهذا إلى الاستيلاء عليها . فأطلقوا مدافعهم على المدينة فى ٢٩ مارس ١٩١٢ م . وهى الآن تنال نصيبها من العمران والطمأنينة السائدين فى إيران اليوم .

والمدينة على ارتفاع ٩٣٩ متراً وطولها ٥٩ وعرضها ٣٦ ، فى وادى كشف رود (نهر كشف) الذى ينبع على عشرين كيلا إلى الشمال الغربى من طوس ويسمى أحياناً آب مشهد (نهر مشهد) ويصب فى نهر هراة (هرى رود) على ١٥٠ كيلا إلى الجنوب الشرقى من مشهد ، وتبعد المدينة عن شاطئه سبعة كيلات إلى الجنوب ويبلغ ارتفاع الجبال عندها ثلاثة آلاف متر ، فهى باردة الشتاء جيدة الهواء . ونهر كشف لا يسقى المدينة ، بل يأتيها الماء من عين اسمها جشمه كلاس عند منبع نهر كشف فى قنوات طولها ٣٤ كيلا جرها إليها الوزير الكبير ، والأديب العظيم والشاعر المفلق على شير نوائى وزير السلطان حسين بن منصور ابن بايقرا من أحفاد يتمور لنك (المتوفى سنة ٩١٢ هـ) .

ومشهد أكبر مدن خراسان اليوم ، وتسمى أحياناً خراسان . وسكانها زهاء سبعين ألفاً وتجارتها رائجة ؛ ولكنها ليست كمهدها الأول ، فقد

كانت ملتقى طرق القوافل قبل أن يستولى الروس على التركستان و ينشئوا سكة الحديد القزوينية .

و بالمدينة شارعان عظيمان مشجران يخترقانها . وكان بها فى عهد نادر شاه ستون ألف دار وسكانها الآن زهاء ثمانين ألفاً . وهى كثيرة المساجد والمدارس بها زهاء عشرين مدرسة للعلوم الدينية ، أقدمها المدرسة التى أسسها شاهرخ بن تيمور فى سنة ٨٦٣ و يقصدها الطلاب من أرجاء إيران ومن أفغانستان والهند ، فيحصلون العلوم الدينية بها تسع سنين . ومن شاء أن يزداد علماً توجه إلى النجف الشريف .

ويحج إلى المشهد كل عام آلاف كثيرة يختلف التقدير فيها من ثلاثين ألفاً إلى مائة ألف . و بها مقابر كثيرة يحرص الشيعة على أن يدفنوا بها ، فتنقل جثثهم إليها من الأقطار البعيدة ، وتختلف قيمة القبور بها على قدر قربها من الحرم و بعدها .

وهى عند علماء الشيعة فى المنزلة السابعة بين الأماكن المقدسة مكة فالمدينة فالنجف فكربلاء فسامرا فالكاظمية فالمشهد . وفى رواية أخرى أن الترتيب بعد كربلاء هكذا : الكاظمية فالمشهد فسامرا فهى السادسة . ولكنها من حيث كثرة الزائرين واتساع المسجد وضخامته تعد بعد مكة والمدينة وقبل المزارات الأخرى فيما أظن .

* * *

يرى الوافد على مدينة المشهد قبة عالية مغشاة بالذهب ومنارتين مذهبتين رفيعتين . فهذا أول ما يسر البصر من مسجد الإمام على الرضا .

فإذا ذهب إلى المسجد الذى يسمى الحرم الرضوى أو العتبة المقدسة (آستانه مقدس) رأى أبنية جميلة شامخة واسعة رائعة لا يستطيع المشاهد أن يعرف خططها ويدرك أقسامها إلا بعد تأمل طويل وزيارات كثيرة .

إذا دخل القادم المدينة من غربيها فسار فى الشارع الكبير تلقاء الشرق انتهى إلى أبواب ضخام وراءها طريق مبلط ينتهى إلى مدخل الحرم الرضوى فيلجه إلى الصحن القديم (صحن كهنه) وهو فناء واسع تجرى فى وسطه قناة ماء ويحيط به مساكن لطلاب العلم وغيرهم . وإنى أشفق على القارىء من تفصيل الكلام فى وصف هذا الحرم العظيم الذى توالت عليه الأيدى بالتشييد والتزيين قروناً كثيرة . فحسبي أن أقول إن فى وسط الحرم قبة الإمام الرضا وأروقة متصلة بها ويمتد الصحن القديم شمالي هذه الأبنية ، والصحن الجديد شرقيها ، ومسجد جوهر شاد جنوبيها . ويحار الطرف في جمال القبة وزينتها وفيما فى المسجد كله من الكاشانى والبلور والذهب الخالص . وتحت القبة قبر الإمام الرضا وهو فى جانب منها ، ويظن أن قبر هرون الرشيد فى وسط القبة ولكن لا يرى الزائر منه أثراً .

أقدم ما فى هذه الأبنية يرجع إلى سنة ٥١٢ وهو بناء السلطان سنجر السلجوقى وقد توالى الملوك والكبراء من بعده على البناء والتنافس فيه ، ومن هؤلاء السلطان ألجايتو ، من الملوك الإيلخانية وشاه رخ ابن تيمور لنك وزوجه جوهر شاد ؛ وعلى شير نوائى وزير السلطان



المشهد فى موسم الزيارة

حسين بايقرا ، ثم الملوك الصفويون ولا سيما طهماسب وعباس الكبير ، ومن القاجاريين فتح على شاه وناصر الدين شاه . كل هؤلاء بذلوا جهدهم فى أن يؤثروا فى المشهد الرضوى أثراً خالداً يكسف آثار من سبقهم فتركوا هذا البناء الجليل الذى يعجز القلم عن تصويره للقارىء .

وقد ذكرت آنفا جوهر شاد الأميرة الخيرة ومسجدها العظيم . وهو مسجد يمتد جنوبى المشهد الرضوى من الشمال إلى الجنوب طوله خمسة وتسعون متراً وعرضه أربعة وثمانون . وأعظم أواوينه الإيوان الجنوبى ، وهو عقد هائل ارتفاعه خمسة وعشرون متراً غشى كله بالكاشانى الجميل وعلى حافته آيات من القرآن بأحرف كبيرة جميلة كتبها بخطه الأمير بايسنقر ابن شاه رخ بن تيمورلنك . وذلك ، إلى آثار أخرى ، دليل على عناية أمراء المسلمين بالفنون الجميلة ولا سيما الخط .

وفى هذا الإيوان كرسى من الخشب يقال إن المهدى سيجلس عليه أول ما يظهر للناس ؛ وفى وسط المسجد مصلى يسمى مسجد بيرزن (مسجد العجوز) وفيما يلى المشهد الرضوي بنية اسمها دار الحفاظ، وتصل المسجد بالمشهد الرضوى أبواب صغيرة .

زرنا المسجد الرضوى صبيحة الجمعة ثالث رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وألف فرأينا أفواجاً من الزائرين والزائرات متزاحمين بين مصل ومسبح وداع وباك ومقبل للأعتاب ومطيف بالضريح المقدس . ولهذا الحشر دوى يملأ القلب خشوعاً ورهبة وسار بنا الدليل إلى بناء فى ناحية

من الحرم اسمه حجرة التشريفات ، فصعدنا إلى حجرة كبيرة بها جماعة من القُوّام على الحرم فأحسنوا لقاءنا وقدموا إلينا الشاى ، وتحدثوا معنا بالعربية والفارسية معلنين سرورهم واغتباطهم ، متحدثين عن الأخوة الإسلامية التى تجمعنا وإياهم . ثم انصرفنا شاكرين آملين أن نعود إلى الزيارة مرات حتى تقضى النفس لباناتها من مشاهدة هذا الجمال والجلال .

ويوم الأحد التالى زرت المكتبة الرضوية وهى فى الصحن الجديد فى الطبقة الثانية ، وقد اطلعت فيها على مصاحف يحار الإنسان فى مرآها ويعجز عن وصفها . وحدثنى قيم المكتبة أن بها آلافاً عدة من المصاحف المخطوطة : رأيت قطعة من مصحف بخط كوفى آخرها : « كتبه على بن أبى طالب » ، ومصحفاً كاملا بخط كوفي فى آخره : « كتبه الحسن بن على ابن أبى طالب » ، ورأيت مصحفاً وقفه إبراهيم قطب شاه سنة ٩٧٠ فيه ٣٣٩ ورقة ، وفى كل اثنا عشر صفحة سطراً محلى بالذهب والمينا ، وطول الصفحة ٥٦ قيراطاً وعرضها ٣٧ ، وفيه من بدائع الصناعة ما يجل عن الوصف . فما يزال الناظر فيه حائر القلب والطرف . ومصحف آخر وقفه السيد محمد جعفر خان سنة ١١٤٨ فيه ٦٠٦ ورقات كل ورقة لها نقش خاص يخالف نقش الورقات الأخرى . وفى هذه المصاحف من عجائب النقش والوراقة والتجليد ما لا يدركه إلا الرائى . وقد قيل لى إن بعض الأوربيين بذل فى جلد مصحف منها مئات الجنيهات فلم يظفر به . ورأيت ورقة

واحدة من مصحف،في طول قامة الرجل الطوال ، و بها سبعة أسطر بخط الأمير بايسنقر .

وعلى مقربة من أحد أبواب مشهد الرضا حجرة فى السوق فيها قبر الشيخ الكبير بهاء الدين العاملى أحد أعلام العلماء فى القرن الحادى عشر الهجرى وهوصاحب المؤلفات الكثيرة فى التفسير والحديث والعلوم العربية والحساب والفلك ومؤلف الكشكول والمخلاة.وقد ألف الكشكول في مصر وفيها يقول .

يا مصر سقيا لك من جنـــة قطوفها يانعة دانيــــــة
ترابهـا كالتبر في لطفــه وماؤها كالفضة الصافية

توفى بأصفهان سنة إحدى وثلاثين وألف ونقل إلى مدينة المشهد فدفن في داره

وقد شهدنا فى مدينة المشهد افتتاح مستشفى الشاه رضا. وهو مستشفى كبير مجهز بأجهزة حديثة . وشهدنا معرض صناعات خراسان؛ ورأينا ألعاباً رياضية كالتى رأيناها فى ميدان ساطنت آباد بطهران وقد وصفتها آنفاً ، وكانت حفلات للغداء والعشاء دعا إليها رئيس الوزراء ومتولى الحرم الرضوى ألقيت فيها خطب كثيرة . وزرنا مدفن نادرشاه ، وهو البطل الكبير الذى رفعته همته من رّعى الغنم إلى رعاية الأمم ، والذى أخرج الأفغانيين من إيران ، ودبّر الأمور باسم الصفويين حيناً ، ثم استبد بالأمر وتسمى نادر شاه ، ثم فتح أفغانستان والبنجاب وغنم كنوزاً لا تحصى من دهلى ،

واضطر الدولة العثمانية إلى مصالحته على ما أراد لدولته ، وتوفى سنة ١١٦ بعد أن سيطر على إيران عشرين سنة — دخلنا حديقة واسعة فى وسطها بناء مرتفع قليلا يشتمل علي حجرات عدة ، دخلنا واحدة منها فقيل هنا دفن نادر شاه. وسيشاد له قبر.

— ٩ —

طوس

على خمسة وعشرين كيلا إلى الشمال من مشهد ، آثار المدينة الكبيرة التى كانت من أعظم مدن خراسان ، والتى نشأت جماعة من كبار العلماء والأدباء : مدينة طوس . وطوس اسم إقليم فى خراسان كان فيه مدينتان كبيرتان : طابَران ونُوقان . فأما طابران فقد اتسعت ونبهت حتى سميت طوسَ باسم الإقليم كله ، وبقى اسم طابران على إحدى محلاتها. وأما نوقان فكان علي مقربة منها قرية سناباذ التى دفن فيها الرشيد العباسي والرضا العلوى فنمت حتى صارت مدينة المشهد الحاضرة واتصلت أبنيتها بنوقان ونسخت اسمها . وقد اشتبه أمر طوس ونوقان علي بعض الجغرافيين فقالوا إن مدينة طوس مدينتان : طابران ونوقان ، قال ياقوت عن طوس : « وهى مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين يقال لإحداهما (طابران) وللأخرى (نوقان) » والحق أن لإقليم طوس مدينتين كبيرتين هما طابران التى سميت طوسا ونوقان التى اندمجت

فى مشهد كما قدمت . وكان لطوس شأن فى التاريخ الإسلامى ، تقلبت بها الغير حتى أخربها ميرانشاه ابن تيمور لنك سنة ٧٩١ ه وينسب إلى مدينة طوس الإمام الغزالى ، ونصير الدين الطوسى ، وغيرهما من العلماء. وقد مات الغزالي بها ودفن بالطابران إحدى محلاتها ، رابع عشر جمادى الآخره سنة ٥٠٥ ، ورثاه الأبيوردى فقال :

بكى على حجة الإسلام حين ثوى　　من كل حى عظيم القدر أشرفه
وما لمن يمترى فى الله عبرته　　على أبى حامد لاح يعنفه
تلك الرزية تستهوى قوى جلدى　　والطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة فى الزهد منكرة　　ولا له شبه فى الخلق نعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به　　من لا نظير له فى الخلق يخلفه

وينسب إلى طوس كذلك الشاعر الفارسى «أبو القاسم الفردوسى» صاحب الشاهنامه المتوفى سنة ٤١١ . وبها مات ودفن على مقربة من باب رزان أحد أبواب المدينة ، فى سورها الشمالى الشرقى .

وقد زار نظامى العروضى قبر الفردوسى سنة ٥١٠ وقال : « وكان داخل الباب بستان للفردوسي فدفن فيه وهو اليوم هناك » . وقال دولتشاه السمرقندى المتوفى سنة ٨٩٣ : « وقبره فى طوس بجانب مزار العباسية ومرقده الشريف معروف اليوم يزوره الناس » . ويقول القاضى نور الله فى أواخر القرن العاشر الهجرى إنه زار قبر الفردوسى .

وقد رآه بعض سياحى أوربا أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

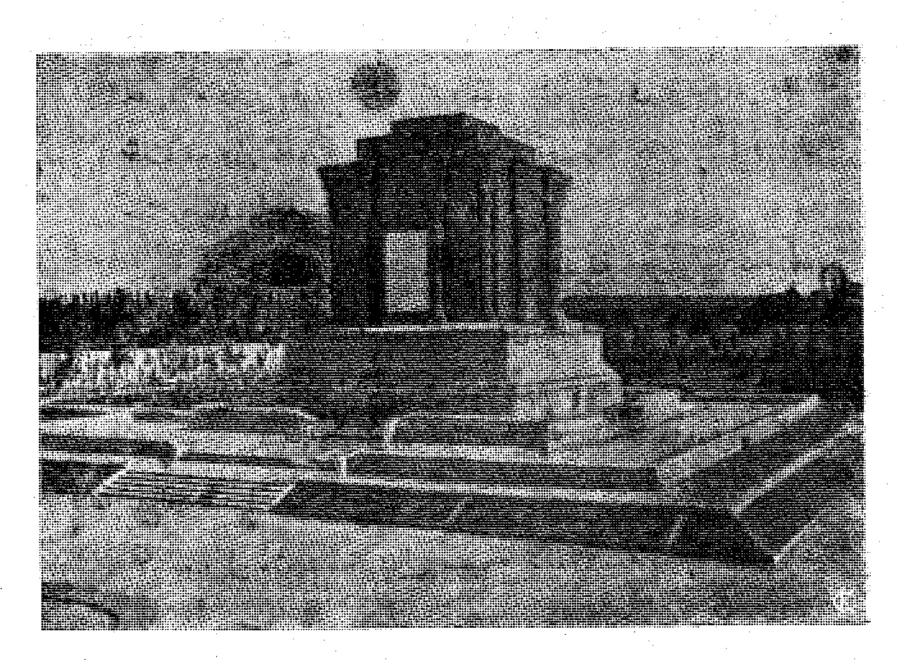
وقال خانيكوف سنة ١٨٥٨ : إن البناء الصغير الذى كان يميز قبر الفردوسي قد اندثر .

وقد اجتهد أدباء إيران حتى عرفوا بالقرائن مكان القبر فشادت الدولة عليه بناء فخماً يرى القارىء صورته بعدُ .

سرنا إلى طوس عشية يوم الجمعة ثالث شهر رجب : (١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٥ — ٢٠ مهرماه سنة ١٣١٣) فبلغناها بعد نصف ساعة . فلنا إلى الشرق ، واجتزنا نهر كشف فى جادة واسعة تفضى إلى حديقة الفردوسى فرأينا بستاناً كبيراً يتوسطه حوض واسع ، ووراءه بنية جميلة رائعة . وهى دكة واسعة مربعة يتوسطها بناء مربع القاعدة يرتفع زهاء أربعة أمتار كتب على أربعة أوجهه أبيات من الشاهنامة ، وزيد على الوجه الأول كتابة تبين عن عناية جلالة الشاه رضا بهلوى بالفردسى ، وأمره بتشييد البناء فى التاريخ المبين بها .

وللبناء باب صغير على جانبيه نقوش تمثل حوادث فى الشاهنامة . ويفضي الباب إلى حجرة في وسطها قبر عليه صفيحة مربعة من المرمر نقش فيها كلمات معناها أن أدلة كثيرة تثبت أن هنا قبر الفردوسى ونقش عليها تاريخُ مولد الشاعر ووفاته . وفى الجدار المقابل للباب كوّة. والبناء فى جملته جميل رائع .

جلسنا فى سرادق ضرب هنالك ، فلما اقترب مَقدم جلالة الشاه ، سرنا إلى النصب فوقفنا على سجاجيد فرشت بين الحوض والبناء ؛ وقف



قبر الفردوسي

الوفود وحدهم ، وأغلب الإيرانيين وحدهم . ثم أقبل جلالة الشاه ، فسلم على الوافدين واحداً واحداً ، يعرّفه بهم رئيس الوزراء ووزير المعارف . ثم ارتقى جلالة الشاه النصب ، ووقف يقرأ كلمة يفتتح بها البناء المشيد لذكرى الفردوسى . ثم قطع بمقراض الشريط المحيط بالنصب ودخل فرآى قبر الشاعر . ثم دعى الوفود فدخلوا. ثم وقف جلالة الشاه فى ناحية من الحديقة يتحدث مع وزرائه ، ثم ركب سيارته . وبقينا زمناً نمتع العين بما نرى ، ونأخذ بأطراف الحديث .

ورأيت على يسار الجادة المفضية إلى حديقة الفردوسي بناء له قبة قد تهدمت أعاليه . فقال من كان معنا من أهل مشهد انه قصر بناه الرشيد وقال بعض المستشرقين إنه قبر الغزالى ، وإنه بنى على نسق مرقد السلطان سنجر فى مرو ، وعلى نسقه بُنى مرقد السلطان أُلجايتو فى السلطانية . وإنما العلم عند الله .

رجعنا إلى مشهد فبقينا إلى صبيحة الاثنين . ثم أخذنا طريقنا عوداً إلى طهران .

- ١٠ -

من طوس إلى طهران

برحنا المشهد عائدين إلى طهران والساعة عشر إلا ربعاً من صباح يوم الاثنين سادس رجب (١٥ أكتوبر) . فمررنا بقرية اسمها قدمكاه:

(موضع القدم) . وقد ذكرتها فى سيرنا من نيسابور إلى مشهد ، وأرجأت الـكلام عنها إلى الإياب إذ لم نعرّج عليها فى الذهاب .

وقفت السيارة فنزلنا وملنا ذات اليسار . فدخلنا ساحة بين جدارين فيها طاقات لا أبواب لها . بناها بعض السلاطين ليأوى إليها المسافرون . ثم صعدنا إلى مستوى ينحدر منه مجري ماء . فانتهينا إلى شجرات عادية بجانبها حجرة كبيرة . ولقينا قيم المـكان فقال أنا كشيش قدمكاه : قلنا يا صاح إن الـكشيش رجل الـكنيسة وأنت رجل مسلم . فقال : أنا خادم القدم المبارك . ولجنا الباب فرأينا على يسارنا بنية فيها حجر بركانى أسود فيه صورة قدم . قال : دليلنا هذا قدم الإمام على الرضا . ثم خرج بنا إلى حجرة أخرى فى وسطها بركة صغيرة مستديرة بها ماء صاف يشف عن سمكات صغيرات يُجلن بين سطحه والقاع . قال : هذه عين الإمام الرضا فاشربوا . فغسلنا أيدينا داعين منشدين : وعين الرضا عن كل عيب كليلة .

نزلنا سائرين إلى الجادة فشربنا الشاى وقوفاً ، واستأنفنا المسير إلى نيسابور . ونزلنا فى الخيام التى ضربت لنا من قبل عند قبر الخيام . فاسترحنا وطعمنا .

وينبغى أن أذكر هنا بالحمد الطبيب الفاضل نجم آبادى . صحبنا بين طهران والمشهد ذهاباً وإياباً وعنى بى وبغيرى ممن وعكوا فى السفر ، وقد سألنى ونحن فى نيسابور عند قبر الخيام أن أكتب تذكاراً فى دفتره فكتبت

قد عرانى على الطريق سقام ولنعم الطبيب نجم آبادى .

قــد نعمنا بخلقه ودواه   وشكرنا له جميل الأيادى.

وخرجنا من نيسابور والساعة ثلاث بعد الظهر ، فوردنا سبزوار سناً إلا ثلثاً ، فأوينا إلى النزل الذى وصفته من قبل . و بعد العشاء اجتمع بعضنا فى حجرة الأستاذ العلامة كو بر يلى زاده محمد فؤاد مندوب الحكومة التركية . وجاء مغنون من أهل القرية فغنوا من رباعيات الخيام وغيرها ضار بين على التار (آلة تشبه العود) . فطر بنا لهذا الغناء وهـذا المجلس الذى جلس فيه علماء من أمم شتى دون ترتيب ولا تـكلف ، بعضهم على السرر والآخرون على الأرض ، فأخذنا نوقع بأيدينا على نغمات التار .ولا أنسى الأستاذ كريستنسون الدانمركي ، وقد مد رجليه وأمسك عود الدخان (البيبة) بفمه ونشط للصفق على أنغام الموسيقى .

برحنا سبزوار والساعة تسع ونصف فبلغنا داورزن بعد ساعة ونصف ونزلنا بهـا منزلنا الأول فاسترحنا وتغدينا . ثم فارقناها والساعة واحدة ونصف نؤم شاهرود ، وكان بردها لا يزال عالقاً بى . فقلت لأصحابى : سأترك فى شاهرود العلة التى أخذتها منها . قال الأديب رشيد الياسمى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . و بعد ساعة وقفنا على قرية اسمها عباس آباد . فجاء شــبان يعرضون علينا من صنعة القرية مسابح

وأزراراً وأشياء أخرى مصنوعة من حجر أزرق ضارب إلى السواد فاشترينا منها للذكرى . ثم سرنا فمررنا بزيدر فنزلنا بها ربع ساعة فشربنا الشاى عند شجيرات وقناة هناك . وأسرعنا السير ليتسنى لنا أن نعرج على بسطام فنزور أبا يزيد قبل الغروب . فاختلت سيارتنا على مقربة من شاهرود ، وذهبت فضلة الوقت فى إصلاحها . فاضطررنا أن نعدل عن بسطام إلى شاهرود . فوردناها بعد المغرب ونزلنا فى دارين داخل البلد استبدلتا بالدار التى بظاهر البلد بعد الذى أصابنا من بردها فى الطريق إلى المشهد . وبكرت أنا والأستاذ عبد الحميد العبادى والأديب أحمد الصراف، آملين أن نزور بسطام ونرجع قبل أن يتأهب أصحابنا للسفر . فما زلنا ننتظر سيارتنا حتى فقدنا الرجاء فى زيارة أبى يزيد . فسرنا مع الركب آسفين مرسلين للشيخ الصوفى تحيتنا على البعد .

سرنا من شاهرود والساعة سبع ونصف من صباح الأربعاء مزمعين أن نبلغ طهران عشية اليوم . وبين شاهرود وطهران أربعمائة كيل وثلاثة . وردنا دامغان بعد ساعة ، فرأينا أن نتلبث بها لنرى بعض مشاهدها . ولم نكن وقفنا بها فى ذهابنا إلى المشهد .

كانت دامغان مدينة قومس ، وهى اليوم من ولاية طبرستان وتبعد ٦٤ كيلا من استرآباد جنوبى جبال البرز ، على حدود العراق العجمى وخراسان . ويقال إنها فى موضع مدينة هكتمبيليس إحدى المدن العظيمة

فى مملـكة الاشكانيين القديمة ، وأن اسكندر المقدونى أدرك دارا الثالث قتيلا على مقربة منها .

قال ياقوت راويا عن مسعر بن مهلهل : « الدامغان مدينة كثيرة الفواكه ، وفاكهتها نهاية ، والرياح لاتنقطع بها ليلا ونهاراً ، وبها مقسم للماء كسروى عجيب يخرج ماؤه من مغارة فى الجبل ، ثم ينقسم إذا انحدر منه على مائة وعشرين قسما لمائة وعشرين رستاقاً لا يزيد قسم على صاحبه ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة وهو مستطرف جداً ما رأيت فى سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه » .

قال ياقوت : « قلت أنا جئت إلى هذه المدينة فى سنة ٦١٣ . مجتازاً بها إلى خراسان ، ولم أر فيها شيئاً مما ذكره لأنى لم أقم بها » .

وأنا أقول قول ياقوت ، وأزيد أن هذا المقسم تهدم ابان الغارة الأفغانية فيما يقال .

وإلى الشمال الشرقى من المدينة ينبوع عظيم يسمى جشمه على (ينبوع على) يزوره الناس ، ويزعمون أنه يفيض على حجر به أثر من حافر فرس الرسول صلوات الله عليه . وقد بنى حوله فتح على شاه سنة ١٢١٧ .

وقال ياقوت : « وبينها وبين كرد كوه قلعة الملاحدة يوم واحد ، والواقف بالدامغان يراها فى وسط الجبال » .

سألنا عن الآثار الساسانية التى بدامغان فقيل لنا إنها بعيدة عن البلد وطريقها غير معبدة ، وهى ليست ذات خطر . ثم هدينا إلى بناء إسلامي

قديم ، فدخلنا إلى فناء فيه قبور لاطئة بالأرض ، ينتهى إلى حجرة كبيرة فى وسطها قبر كبير عليه سياج من الخشب ، وعليه كتابة قديمة كثيرة . وإلى يسار الداخل قبر صغير لا سياج له . فأما الضريح فقيل انه لأحد أبناء الأئمة العلويين ، وأما الذى إلى يسار الداخل فقيل انه لشاهرخ . ورأينا حجرة أخرى مغلقة كتب عليها : أمر بعمارة هذا البناء شـــاهرخ . وقد ظننت أنه شاهرخ بن تيمورلنك، وعجبت كيف دفن هنا وقد مات فى الرى ثم تذكرت شاهرخ حفيد الملك نادر شاه ، الذى أسره أغا محمد القاجارى فى دامغان ، وما زال يعذبه ليسلم إليه خزائن جده نادر شاه حتى مات سنة ١٢١١ . فقلت هذا قبر الأمير الضرير المنكود الطالع .

بلغنا سمنان والساعة إحدى عشرة وربع فنزلنا منزلنا الأول فى المصنع الذى بظاهر البلد . وقلت للأستاذ العبادى : لا يفوتنا اليوم أن نرى مسجد الجمعة في سمنان فقلنا للأديب سيف آزاد صاحب مجلة « إيران باستان » فرافقنا ، وصحبنا فى الطريق أحد ضباط الشرطة ، ودخلنا من باب كبير تزينه نقوش وتماثيل وكتابة فيها اسم ناصر الدين شاه إلى طريق على جانبيها أبنية للجند ، وخرجنا من باب آخر فمررنا فى شارع مشجر وأزقة ضيقة . ثم ترجلنا وتركنا السيارة ، وتخللنا الطرق حتى انتهينا إلى مسجد صغير جميل ، فرأينا فيما عليه من كتابة اسم الشاه طهماسب الصفوى .

ثم ذهبنا إلى مسجد الجمعة وهو قديم عظيم . وأقدم ما فيه منارته . وهى فيما يظهر بقية مسجد كبير بناه السلاجقة ثم هدمه التتار فأقيم المسجد

الحاضر على جانب من عرصته ثم زاد فيه إيواناً كبيراً أحد وزراء السلطان شاهرخ بن تيمور لنك سنة ٨٢٨ .

وخرجنا من مسجد الجمعة فمشينا فى سوق طويلة مسقوفة تنبىء بعظم المدينة فى الماضي . وقد أنشدنى الأديب سيف آزاد فى مسجد سمنان بيتاً معناه :

« وا أسفا على المسجد الذى فى سمنان ، إنه يوسف فى سجن[١] »

اجتمعنا على الغداء في سمنان، ونحن نعلم أن الركب سيتفرق فى طهران فلا يجتمع . فتكلم بعض الوافدين شاكراً حكومة إيران ، والموظفين الذين رافقونا فى مسيرنا إلى طوس وإيابنا . وأجاب السيد ابتهاج ، والأديب رشيد الياسمى، معربين عن سرورهم وافتخارهم بمصاحبة الضيوف ...الخ وأرسلنا برقية إلى وزير المعارف نبلغه والحكومة الإيرانية شكرنا . وكان الوزير قد تخلف في المشهد هو والوزراء الآخرون ليصحبوا جلالة الشاه في سفره إلى جرجان

ركبنا السيارات والساعة اثنتان وربع بعد الظهر ، فجد بنا المسير حتى نزلنا فى فيروزكوه فاسترحنا وشربنا الشاى فى مطعم هناك. ثم ركبنا فمازلنا فى فيروزكوه (جبل فيروز) قممه وشعابه وأوديته حتى عيل الصبر ، وأظلم الليل ، ورهقنا الإعياء . ثم دخلنا طهران والساعة ثمان من المساء فأوينا إلي الفندق بشِقِّ الأنفس .

---

(١) حيف بر مسجد كه در سمنان بود ، يوسف حسنى كه درزندان بود

— ١١ —

طهران الى قم وأصبهان

أوى الركب إلى الفندق متعباً ، وجمعت التعب والمرض . وكان وزير المعارف والعلامة بديع الزمان قد كلمانى والاستاذ العبادى فى القاء محاضرة فى مدرسة سبهلار بعد الاياب من مشهد ؛ فعدنا إلي طهران وإذا رقاع الدعوة قد أرسلت واذا الجرائد تخبر بأنى سألقى محاضرة فى مدرسة سبهلار والساعة ست من يوم الخميس . فأصبحت فى شغل من هذا الأمر أجهد للوفاء بالوعد ، فاذا جسم عليل وصوت مبحوح . فكلمت الأستاذ البديع معتذراً . فجاء إلى الفندق هو ورئيس المدرسة ؛ وطلبا من الأستاذ العبادى أن يقول كلمة ، فوعدهما . ووعدتهما أن أكون طوع أمرهما إن رزقت العافية ، وإلا أرسلت كلمة تقرأ على الحاضرين [1] فلما دنا الموعد أجاب الأستاذ العبادى الدعوة وأرسلت كلمتى مع السيد صالح الشهرستانى مكاتب البلاغ فى طهران ، فقرأها على الجمع . وكان موضوعها موقف المسلمين من مدنية أوربا ، وما يلزمهم من الاستمساك بسننهم ، وأخذ الحذر أن يفتتنوا فيقلدوا فيضلوا . وتكلم الأستاذ العبادى في العلائق التاريخية بين مصر

---

(١) لما بلغت بالكتابة هذا الموضوع وأنا فى دارى بحلوان دق التليفون فقلت : من قال السندباد . والسندباد اسم سميت به السائح محمود بشير المغربى الذى صحبنا فى أسفارنا بايران وتخلف عنا فى طهران . فقلت : أهلا وسهلا بالسندباد البرى ... فقال والبحرى والهوائي . وأحسب السندباد سيطوف العالم قبل أن أنتهى من كتابة رحلتى بين القاهرة وطوس ...

وإيران . وقد قرأت فى الجرائد الايرانية بعد العودة إلى مصر وصف الاحتفال وترجمة الكلمتين ؛ وخطبة الاستاذ بديع الزمان فى مكانة اللغة العربية بين الفرس ، وقد نشرت جريدة البلاغ الخطب الثلاث كما نشرت بياناً وافياً عن حفلات الفردوسى كلها .

وكان فى خطة وفود الفردوسى الذهاب إلى أطلال مدينة الرى ، وهى على مقربة من طهران ، فتخلفت مكرها أسفاً . ويوم الجمعة جلنا فى المدينة فاشترينا من الكتب والاسطوانات (والايرانيون يسمونها الصفحات وهى تسمية أقرب إلى الحقيقة واللغة) ، وزرنا المفوضية المصرية مودعين ثم خرجنا إلى دار على أصغر خان المعروف فى طهران باسم المصرى ، وهو أخو حسن بك اليزدى التاجر الكبير بالقاهرة وكان يحتفل بختان أنجاله فجلسنا فى جماعة من الفضلاء ، واستمعنا للمرة الثانية الى غناء المطربة ملوك خانم ، واقترحت أن تسمعنا الأغنية المطربة « مرغ سحرنا له سركن » لنودع طهران على هذه النغمات الحزينة . ثم تحدثت المغنية ، فإذاهي تعرف أم كلثوم ؛ ومحمد عبد الوهاب ، وتدلى برأيها بينهما ، قلنا هذا كلام ملوك قالت نعم : وكلام الملوك ملوك الكلام . فانظر كيف يعنى الإيرانيون نساء ورجالا باللغة العربية عناية آبائهم من قبل . ثم استأذنا فى القيام لنأخذ أهبتنا للسفر الباكر صباح الغد .

برحنا طهران والساعة عشر من صباح السبت حادى عشر رجب (٢٠ أكتوبر) أنا والأستاذ العبادى فى سيارة مفردة ، وهو أول سفر لنا

فى إيران منفصلين عن وفود الفردوسى ، سافر جماعة من طريق الشمال ، وآخرون أخـذوا طريق بغداد أدراجهم ، وجماعة آثروا المقام فى طهران يوماً أو يومين . وكانت نيتنا أصيهان وبينها وبين طهران تسع ساعات بالسيارة ، وقد تقدمنا بمدة يسيرة الشاعر الانكليزى درنك ووتر

وقفنا بعد أربعين دقيقة على قرية ، فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها. وكذلك طلبت الجوازات فى كل مدينة مررنا بها ، حين ندخلها وحين نخرج منها حتى رجعنا إلى همـذان على طريقنا الأولى من بغـداد إلى طهران ، فأعفيـنا من اخراج الجوازات. وذلك أن هـذه الطريق كانت طريق الوفود فى ذهابهم وإيابهم فيسر لهم السير وأعفوا من مراسيم السفر فى إيران

وبعـد الظهر بقليل نزلنا فى محطة علي الطريق اسمها منظرية فدخلنـا بستاناً فيه أشجار رمان فأ كلنا واسترحنا ساعة ؛ ثم سرنا حتى بلغنا مدينة قم والساعـة اثنتان وثلث . فدخلنا ونحن نذكر قصة الصاحب بن عباد وقاضى قم ، كتب إليه الصاحب :

أيها القاضى بقم ‏ قد عزلناك فقم

فكان القاضى يقول إذا سئل عن سبب عزله : أنا معزول السجع من غير جرم ولا سبب

قم مدينـة فى العراق العجمى علي الجادة بين طهران وأصبهان ، وعلى ١٢٠ كيلا الى الجنوب الغربى من طهران . يشقها نهر يأتى من جرباذقان قرب همذان ، وفا كهتها كثيرة منها الرمان والتين والبطيخ والفستق

قال ياقوت : وهى مدينـة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها ، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعرى. وكان بدء تمصيرها فى أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ » . والظاهر أنها قديمـة كانت قبل الاسلام، ثم عمرت فى الاسلام ومصرت . وقد قال دعبل بن على فيها :

تلاشى أهل قم واضمحلوا ... تحل المخزيات بحيث حلوا
وكانوا شيدوا فى الفقر مجدا ... فلما جاءت الأموال ملوا

ظلت بقم مطيتى يعتادها ... همان : غربتها وبعد المداج
مابين علج قد تعرب فانتمى ... أو بين آخر معرب مستعلج

* * *

وأهلها عرفوا بالتشدد فى التشيع قبل أن يعم التشيع إيران . وقد روى ياقوت فى ذلك حكاية ظريفة قال : « ومن ظريف مايحكى أنه ولى عليهم وال ؛ وكان سنيا متشـددا . فبلغه عنهم أنهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر . فجمعهم يوما وقال لرؤسائهم: بلغنى أنكم تبغضون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكم لبغضكم إياهم لاتسمون أولادكم بأسمائهـم . وأنا أقسم بالله العظيم إن لم تجيئونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر . ويثبت عندى أنه اسمه لأفعلن بكم . ولأصنعن ، فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا إلا رجلا صعلوكا حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظرا ، اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك . فجاؤا به فشتمهم وقال : جئتمونى

بأقبح خلق الله تتنادرون على وأمر بصفعهم.فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ما شئت فإن هواء قم لا يجيء منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم »

وقم تلى المشهد الرضوى بين مزارات الشيعة فى إيران ؛ بها حرم السيدة فاطمة بنت موسى الكاظم وأخت على الرضا وتلقب المعصومة . ولذلك دفن فيها كثير من العلماء والصالحين والملوك . وقد روى الشيعة فيها عن جعفر الصادق : ألا إن لله حرماً وهو مكة . ألا إن لرسول الله حرماً وهو المدينة . ألا إن لأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة ، ألا أن حرمى وحرم ولدى بعدى قم . ألا إن قم الكوفة الصغيرة . ألا أن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها تفضى إلى قم تدفن بها امرأة هى من ولدى واسمها فاطمة بنت موسى . ويدخل بشفاعتها شيعتى الجنة بأجمعهم » اه

لما اقتربنا من المدينة رأينا قبة المعصومة أخت الرضا تبص في الهواء فى حلتها الذهبية . ولما دخلنا المدينة وقفنا على مخفر الشرطة فرأوا جوازات السفر . وقال سائق السيارة لشرطي : هذان من المستشرقين يريدان زيارة الحرم فاصحبهما . فسار الشرطى أمامنا فى رحبة تملؤها أنقاض دور مهدمة ، وبصرنا بنهر صغير سريع الجرية . قال الشرطى: طغى الماء على المدينة منذ أشهر فخرب مئات من دورها . ثم عبرنا الماء على خشبات ممدودة عليه فرأينا ماء ضحضاحا يخوض فيه الناس والدواب . وسرنا فى شارع به دكاكين وفنادق صغيرة ، فانتهينا إلى باب المسجد . رأينا صحناً رحباً ينتهى إلى بناء

عالٍ مقبب ولقينا شيخ فتقدمنا فدخلنا إلى مرقد السيدة فاطمة . وهو ضريح كبيرعليه سياج من الفضة كثير الحلى . فوقف الشيخ يدعو بالعربية دعاء طويلا ذكر فيه الأئمة العلويين . ثم ملنا ذات اليسار إلى حجرة بها قبر كبير مربع لا سياج له ولا زينة . قال هذا قبر الشاه عباس . ثم ولجنا باباً إلى حجرة أخرى بها قبران أحدهما للشاه حسين آخر الصفويين. والآخر للشاه طهماسب، فيما أذكر. فهؤلاء ثلاثة من الملوك الصفويين دفنوا فى جوار المعصومة . ثم خرجنا إلى الصحن فرأينا حجرات فيها قبور للملوك القاجاريين و بنيهم ؛ رأينا فيها قبر محمد قاجارو فتحعلى شاه وعليهما صفيحتان من المرمر الشفاف عليهما صور ملائكة ذات أجنحة، وعلى قبر فتحعلى صورته منحوتة فى المرمر . وقد رأينا من قبل فى النجف الأشرف فى مسجد الإمام على قبراً آخر للقاجاريين على هذه الشاكلة .

ولست أعرف فى القبور الإسلامية قبوراً عليها صور غير هذه القبور . ومررنا إلى يسار الداخل إلى الصحن فاذا باب يفضي إلى صحن آخر فسيح. وهذا المسجد معهد للدراسة الدينية يقيم به الطلاب .

قال الشرطى وهو يحدثنا : فى قم أربعة وأربعون وأربعمائة وأربعة آلاف من بنى الأئمة الطاهرين قتلهم الظالمون .

ركبنا السيارة والساعة ثلاث وعشر نسير صوب الجنوب نؤم أصبهان .

أصفهان «نصف جهان[1]»

خرجنا من قم والساعة ثلاث بعد الظهر ، سائرين إلى الجنوب تلقاء أصفهان . و بين قم وأصفهان ٢٨٢ كيلا . فما زلنا نضرب فى سهوب مترامية تعمرها قرى قليلة ، حتى قطعنا ٩٢ كيلا فى ساعتين ، فبلغنا قرية دليجان وهى قرية كبيرة على الجادة يبدو عليها الفقر ، و بيوتها كغيرها من قرى إيران ، مسنمة السقوف ، مطينة الجدُر . وقفنا فى القرية على بناء كتب عليه بالإنكليزية أنه مطعم ومشرب شاى . وهو طبقتان فى كل واحدة حجرتان ، وللطبقة العالية سلم من اللبن يهبط إلى الطريق .

دخلنا فقدم لنا الشاى والبطيخ ، واسترحنا قليلا . ثم ركبنا سيارتنا وقد كادت الشمس تغرب . قلنا : كم بيننا و بين أصفهان ؟ قيل أربع ساعات . و بين دليجان وأصفهان ١٩٠ كيلا. وقال سائق السيارة لصاحب المطعم سنمر بك بعد غد فهيىء لنا دجاجة وحساء قال: نعم وكل ما تشتهون.

ضربنا فى أرض بَلقع يتخللها عُمران قليل ، حتى بلغنا بلداً اسمه شاه عباس ، بينه و بين أصفهان خمس وعشرون دقيقة بالسيارة ، فتغير مرآى الأرض ، و بدت لنا الأشجار والزروع والمياه . وما زلنا فى أرض مخصبة مخضرّة حتى دخلنا المدينة والساعة تسع وخمس دقائق من مساء السبت حادى عشر رجب (٣٠ أكتوبر)

---

(١) يقول الفرس أصفهان نصف جهان . أى أصفهان نصف العالم .

أصفهان : مدينة العراق العجمى ، على ٤٣١ كيلا إلى الجنوب من طهران ، وعرضها ٣٢ درجة وطولها ٤٩ وارتفاعها ١٣٤٤ وهى فى سهل واسع خصب ، حسن الهواء كثير الماء والشجر ؛ قال ياقوت : « وكانت مساحة أصبهان (أى الإقليم) ثمانين فرسخاً فى مثلها ، وهى ستة عشر رستاقاً كل رستاق ستون وثلاثمائة قرية قديمة سوى المحدثة »

ولا ريب أن فى رواية ياقوت غاوا تابع فيه الأقوال الشائعة ، وقد قال هو عن أصفهان : « مدينة عظيمة مشهورة ، من أعلام المدن وأعيانها ، ويسرفون فى وصفها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد »

وقد أدى إلى إغراق الناس فى وصف أصفهان وإقليمه استبحارُ العمران هناك ، وكثرة القرى ، والمياه والزروع . وقد حدثنى مهندس ألمانى فى مدينة أصفهان أن من بقاع أصفهان بقعةً يسير فيها السائر خمسة عشر كيلا بين الأشجار .

ويُنبت الإقليمُ القطنَ والتبغ والبطيخ وكثيراً من الفاكهة .

والمدينة على نهر زنده رود (النهر الحى) ، ويسمى اليوم زاينده‌رود (النهر الولود) ؛ حدِّثت أنه سمى بهذا لانبجاس مياهه من الأرض فى مواضع كثيرة . قال ياقوت : « زنده روذ نهر مشهور عند أصبهان ، عليه قرى ومزارع ؛ وهو نهر عظيم أطيب مياه الأرض وأعذبها » وقال فى موضع آخر : وقد وصفه الشعراء فقال بعضهم :

لست آسى من أصفهان على شىء   ســـوى مائها الرحيق الزلال

ونسيم الصبا ومنخرق الريـ ح وجوّ صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل المـا ذِيّ والصافناتُ تحت الجلال »

وكذلك قال الحجاج لبعض من ولاه أصبهان : قد وليتك بلدة حجَرها الكحل ، وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران .

وقال آخر :

لست آسى من أصبهان على شى أبكّى عليه عند رحيلى
غير ماء يكون بالمسجد الجا مع صاف مُروَّق مبذول . اه

ولعل قول كل من هذين الشاعرين « لست آسى الخ » لما تحدث به القدماء من وصف أهل أصبهان بالبخل . وقد حكى عن الصاحب بن عباد أنه كان إذا أراد الدخول إلى أصبهان قال : من له حاجة فليسألنيها قبل دخولى إلى أصبهان ، فإننى إذا دخلتها وجدت بها فى نفسى شحاً لا أجده فى غيرها . وقد روى ياقوت بيتين كتبا فى بعض الحانات التى فى طريق أصبهان:

قُبِّح السالكون فى طلب الرز ق على أيذج إلى أصبهان
ليت من زارها فعاد إليهـا قد رماه الإله بالخذلان [(١)]

وعلى نهر أصبهان اليوم ثلاث قناطر من عجائب الآثار ، أكبرها قنطرة « الله وردى خان » أحد قواد الشاه عباس ، وتسمى اليوم « پل سى وسه جشمه » ، أى القنطرة ذات الثلاث والثلاثين عيناً . وهى مبنية بالحجارة الضخمة، تسير فوقها طريق واسعة لها جداران عاليان .

---

(١) وأنا أعتذر إلى الصديق ميرزا مهدى بك وإخواننا الأصفهانيين بمصر من هذه الروايات فسخاؤهم يكفى لدحضها .

والنصف الأسفل من عيونها يسد بالخشب إذا أريد حبس الماء . وعلى جانبي العيون فى قاع النهر سنادان من الحجر يسير عليهما الناس حين انخفاض الماء .

ومدينة أصبهان قديمة ذكرها بطليموس . وكانت ذات مكانة عظيمة قبل الإسلام ؛ ولم تزل فى الإسلام معدودة من أمهات المدن الفارسية .

وقد تقلبت بها غِيَر كثيرة، واهتمت بالسيطرة عليها كل الدول الإسلامية الشرقية ؛ فتولى أمرها السامانيون والبويهيون والغزنويون والسلاجقة . وكان السلطان ملكشاه السلجوقى يُحبّ المقام بها . ولما سالت على المسلمين كوارث التتار ساروا إليها سنة ٦٢٥ فدفعهم عنها البطل العظيم جلال الدين خوارزمشاه . ولما كانت الدولة التيمورية ثار أهل أصفهان على الجبّار تيمورلنك سنة ٧٩٠ فقتلهم حتى قيل إنه جمع سبعين ألف رأس فبنى بها أهراماً .

وأمجد عهود أصفهان عهد الدولة الصفوية ، ولا تزال آثارها ناطقة بما كان لها من جلال وجمال فى ظلّ هذه الدولة ، وقد بلغ سكانها فى ذلك العهد ستمائة ألف . وكان بها ثمانية وثلاثون ألف دار ، واثنان وستون ومائة جامع ، وثمان وأربعون مدرسة ، وثلاث وسبعون ومائتا حمام ، وثمانمائة وألف خان (كاروانسراى) وكان محيطها فيما يقال أربعة وعشرين ميلا .

ولما أغار الأفغانيون على إيران وقضوا على الدولة الصفوية؛ ثم صارت طهران دار الملك تناقص عمران المدينة ودالت دولتها، وسكانها اليوم

ثمانون ألفاً ، ومحيطها ميلان ، ولكن لها شأناً عظيما فى التجارة والصناعة .

دخلنا المدينة ليلا فأوينا إلى فندق اسمه (فندق الفردوس) . وكان يسمى الفندق الأمريكى . وهو فى شارع واسع مشجر قديم يقال إن أشجاره من عهد الشاه عباس الكبير ، وهو أعظم شوارع المدينة . وجاءنا بعد قليل رئيس البلدية فحيانا وقال إنه يود أن ننزل داراً خاصة فى ضيافة الحكومة فشكرنا له وللحكومة هذه الحفاوة ، وآثرنا أن نبقى في الفندق ، فأبلغنا دعوة الحاكم إيانا إلى العشاء فى داره غداً .

لم يمكنا الإعياء من التجوال فى المدينة تلك الليلة ، ولكن نعمنا بمرآى أشجار الحور الباسقة تنثر على الأرض ضوء القمر ، كما تتناثر فى خيالنا ذكرى الماضى المجيد من هذه البلدة الخالدة ، التى نشَّأت من علماء الإسلام الأعلام أمثال أبى الفرج الأصفهانى ، وداود بن على صاحب المذهب الظاهرى ، وأبى نعيم صاحب الحلية ، وحمزة المؤرخ .

وكنا نسمع فى الحين بعد الحين جلجلة الأجراس فى أعناق الإبل أو الثيران السائرة فى المدينة . وهذا صوت مطرب فى جوف الليل ولكنه يذهب بالنوم . وغدونا إلى دار الحكومة فقابلنا حاكم أصفهان وهو أحد الوزراء السابقين ورجال الصحافة القدماء . وكان له جريدة تسمى صور إسرافيل فغلب اسمها عليه فهو اليوم يسمى قاسم صور إسرافيل ، ويتسمى هو بهذا الاسم ويكتبه على بطاقته . وكذلك جاء إلى دار الحكومة نفر من الألمان ، منهم الدكتور شميت الصحافى الذى ينشر جريدة فى أنقرة

الآن ، وكان مندوباً إلى مؤتمر الفردوسى ولكنه تأخر عن المؤتمر .

* * *

خرجنا لرؤية آثار أصفهان الرائعة ؛ وإنى أشفق على القارىء أن أصف المساجدوالقصور التى رأيناها وصفاً مفصلا .

وفي المدينة ميدان كبير قال لنا مهندس ألمانى . إنه أكبرمن ميدان الكنكورد فى باريس ومن كل ميدان فى مدينة ، وهذا الميدان للعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل (الجوكان) ، ولا تزال فيه العمد الخشبية التى تعلم غاية الملعب . وفى وسطه حوض كبير تنبجس منه نافورات قوية ، وهى من آثار الصفويين ، وقد عمرت أخيراً ، ويحيط بالميدان آثار الصفويين ، مسجد الشاه ومسجد الشاه لطف الله والباب العالى والسوق :

مسجد الشاه من أجل مساجد المسلمين ، بل من أعظم آثار العالم قاطبة ، بناء ضخم وهندسة محكمة ، وصنعة الكاشانى والكتابة والنقش لم تدع مزيداً لصانع أو ناظر . ولا يوجد مقدار شبر فى جدر المسجد أو إيواناته أو قبابه خالياً من هذه الصنعة فقد أفرغ الجمال على هذا المسجد كتابة ونقشاً وتلويناً .

وفوق إيوان القبلة قبة شاهقة تعلوها قبة أخرى ، وبينهما ستةعشر متراً فاذا وقف الإنسان فى مركز القبة وصفق بيديه صفقة خفيفة أو تكلم بصوت خافت ، أو حك الأرض برجله انبعث الصوت عالياً مدوياً مردداً فى القبة أكثر من عشر مرات.

ومسجد الشاه لطف الله أصغر من هذا ، ولكن فيه من الفنون

دقائق عجيبة ، وفيه طبقة تحت الأرض للصلاة فى الشتاء!

والباب العالى بناء ضخم قسمه الأمامى ايوان عال يمسك سقفه الرفيع ثمانية عشر عموداً ، مشرف على الميدان ، ووراء الإيوان بناء ذو طبقات ست وسلالم ضيقة ، وفى كل طبقة حجرات قليلة صغيرة . وهذا البناء كان كله لجلوس السلاطين مشرفين على اللعب فى الميدان ولاستقبال الوفود أحياناً ، وكان بابه العظيم مفتوحا ليل نهار يأوى إليه أصحاب المظالم فترفع إلى الشاه ظلاماتهم .

ومن الآثار التى رأيناها المسجد الجامع ، وهو من أكبر المساجد سعة رقعة وضخامة بناء ، وقد كمل بناؤه الحاضر فى عهود مختلفة ، [وهو أقدم مساجد أصفهان . إيوان القبلة له قبة عالية ضخمة مبنية بالآجر ؛ وإلى الغرب إيوان صغير جميل أظنه من آثار الصفويين ، ووراءه مصلى كبير يؤخذ مما كتب على قبلته أنه بني سنة عشر وسبعمائة ؛ ووراء هذا مصلى كبير لا نوافذ له ؛ وفى سقفه كوى ينفذ ضوؤها من أحجار من المرمر شفافة .

وفى المسجد إيوانات أخرى ومصلى له قبة صغيرة زعم بعض الأدلاء أنه كان بيت نار ، وأن القبة الكبرى كانت كذلك ، وذلك زعم لا يصدقه التاريخ وفن البناء . وقصارى القول أن المسجد الجامع بأصفهان من عجائب الأبنية ، وأن فيه للتاريخ وفن العمارة درساً طويلا .

وأكبر الظن أن هذا هو الجامع الذى وصفه مفضل بن سعد بن الحسين

المافروخى فى كتابه «محاسن أصفهان» حيث يقول: «والجامعان: الكبير العتيق البديع الأنيق ، بنى أصله القديم عرب قرية طبران وهم التيم .. ثم أعيد فى أيام المعتصم سنة ست وعشرين ومائتين . ثم زاد فيه أبو على ابن رستم فى خلافة المقتدر ، فصار أربع أدور يماس كل حد من جماعتها رواقا . يلاصق كل رواق منه أسواقا . . وهو منذ اتخذ يطن بالتهليل والتحميد ، ويحن بالتسبيح والتمجيد . لا ينظم لإحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل ، وتحت كل أسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس ، تزين بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ، ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين، وملازمة المتكفين ، إلى ما يتصل به من خانكاهات قوراء مرتفعة ، وخانات عامرة متسعة ، وقد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء ، والمساكين والفقراء ، وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها الخ » .

والباب العالى الذى ذكرته آنفاً كان يؤدى إلى حدائق واسعة فيها قصور كبيرة رائعة ، رأينا منها قصر « جهل ستون » أى قصر الأربعين عموداً الذى بناه الشاه عباس واحترق فعمره الشاه سلطان حسين وهو ، كما رأيناه اليوم ، بناء وسط حديقة واسعة ، ومقدم البناء رواق رفيع واسع يقوم بسقفه عشرون عموداً رفيعاً كل عمود قطعة واحدة من خشب الدلب ، وكان مكسواً بالمرمر تعلوه قطع المرايا على الأسلوب المألوف فى البلاد الفارسية ،

وللبناء على الجانبين رواقان آخران صغيران ، ووراء الرواق الأكبر الأمامى مدخل يفضى إلى قاعة كبيرة وراءها حجرات ، وفى رواق الجانب الأيمن نقوش كثيرة ، بعضها يصور زمراً من الموسيقيين والمغنين ، وبعضها يمثل جماعة من سفراء دول أوربا الذين وفدوا على الملوك الصفويين ، وفى القاعة الكبرى صور كثيرة تمثل الملوك الصفويين مستقبلين ضيوفهم أو محاربين أعداءهم ، وهى صور تذكر بصور قصر فرسايل فى فرنسا

وأمام البناء كله حوض كبير على حافته نافورات،ينعكس فيه مرآى الرواق الأمامي . قال محدثنا : للرواق عشرون عمودا وهذه مثلها فى الماء فمن أجل هذا سمى قصر الأربعين عمودا

والحق أن آثار الصفويين فى أصبهان على مانالها من عوادى الزمان تشهد بما كان لهم من الغنى والأبهة ، وبما كان فى الدولة من العمران والصناعات ، والنبوغ فى العمارة والنقش

ورأينا آثارا أخر يطول وصفها ، ثم أوينا إلى الفندق وفي خيالنا جلال الماضى وجماله ، وأمام أعيننا ما كان من تبدل وتحول

عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حال بعد حال

خرجنا العشية فجلنا فى أطراف المدينة، ورأينا القناطر المشيدة على نهر زند رود ورأينا مصنعاً كبيراً لآل اليزدى ينسج فيه الصوف ، ثم ذهبنا إلى السوق ، وسوق أصفهان من أعظم الأسواق فى الشرق ؛ فرأينا بدائع صناعة أصفهان ؛ واشترينا منها ثم رجعنا إلى الفندق.

ولما حان موعد العشاء خرجنا إلى دار الحكومة إجابة لدعوة الحاكم؛ فنعمنا هناك زمناً بحديث السيد الهمام قاسم صور اسرافيل ورئيس البلدية؛ والشاعر الإنكليزى درينكووتر والدكتور شميت الألمانى، ثم عدنا إلى الفندق نمشى فى القمراء وقد هود الليل؛ فقلت حبذا لو امتد بنا المقام بكرنا إلى الرحيل ونحن نذكر قول أبى عبد الله الحسين النظرى:

حوت أصفهان خصالاعجابا بها كل ماتشتهيه استجابا
هواء منيراً وماء نثيراً وخيراً كثيراً ودوراً رحابا
وترباً ذكيا ونبتاً رويا وروضاً رضيا يناغى السحابا
وفاكهة لاترى مثلها نسيما وطعما ولوناً عجابا
تفيد الأعلاء برءاً كما يفيد الربيع الرياض الشبابا
وزاد محاسنها زنرود مياها كطعم الحياة عذابا. الخ

— ١٣ —

من أصفهان إلى سلطان آباد

فارقنا أصبهان والساعة ثمان وربع من صباح الإثنين ثالث عشر رجب (٢٢ أكتوبر) عائدين أدراجنا تلقاء قم، ومن أصفهان إلى كرمانشاهان طريق تسير شطر الغرب لاتمر بقم. وهناك طريق أخرى إلى سلطان آباد فى العراق العجمى، ولكن سائق سيارتنا، وهو خبير بالطرق، أبى إلاأن يسلك طريق قم إلى سلطان آباد فهمذان فكرمانشاهان لأنها طريق معبدة مطروقة معروفة، ومررنا والساعة تسع ونصف بقرية صغيرة اسمها مورجه خورد (النملة أكلت) قال السائق هذه قرية دعا

رسول الله صلوات الله عليه أهلها إلى إطعام بعض الفقراء فأخفوا ماعندهم من طعام ، فدعا الرسول عليهم فأكلت النملة ماادخروه من قوت .

ووردنا دليجان والساعة اثنتا عشرة فوقفنا موقفنا الأول على المطعم الذى وصفته آنفاً ، فجاء صاحبه وقال قد هيأت لكم الطعام . قلنا : أعددت دجاجة ؟ قال : نعم وغيرها ، فصعدنا إلى الطبقة العليا فاسترحنا ثم جاءنا الطعام فأكلنا مسرورين فكهين .

واستأنفنا المسير والساعة واحدة وأربعون دقيقة ، فلقينا على الطريق زميلنا فى المؤتمر الدكتور نظام الدين الهندى فوقفنا نجدد العهد به ثم سرنا قليلا فاذا ثلاثة من أعضاء المؤتمر : أغا أوغلو التركى ممثل جامعة ماتشيجان بأمريكا وآخران ألمانى وأمريكى ، فتحدثنا قليلا ثم افترقنا وكان هؤلاء يؤمون أصفهان فشيراز

بلغنا قم والساعة أربع فلم ندخلها ، بل ملنا عنها شطر الغرب نريد سلطان آباد ونزلنا بعد نصف ساعة ببناء عند أشجار على مقربة من نهر قم قلت للسائق : أى موضع هذا ؟ قال : تخت شير (تخت الأسد) شربنا الشاى وطلبنا شمامة (جربوزه) فجاء رجل بشمامة ومطيخة . قلنا هذه البطيخة قديمة ، فما رأيك فى الشمامة ؟ قال : حلوة جدا قلنا : شققها فاذا الشمامة غير ناضجة ؛ فقمنا نندب أملا ضاع بين قدم البطيخ وحداثة الشمام . ولم أنس من بعد تخت شير وشمامته ؛ وكان سيرنا فى أرض عامرة تبدو فيها القرى والزروع والأشجار ؛ والبيادر ليست كالطريق بين طهران وأصفهان . ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلا لا يفوتنا أن نأكل

من عسل هذه البلدة فهو حديث الركبان . ثم دخل بنـاء إلى جانب الطريق ، وعاد بقليل من العسل والزبد والخبز . وقـد صدق الخبر خبر صاحبنا فقد وجـدنا عـسلا صافياً بارداً فقلنا : قد أبدلنا الله بشمامة تخت شير عسل راهجرد ، وتمـادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها إبراهيم آباد فعلمنا أننا على مقربة من غايتنا . وبعد نصف ساعة وقفنا فى مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساء بعد أن فصلنا من أصبهان بعشر ساعات ونصف ، فرآى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة .

— ١٤ —

من سلطان آباد إلى بغداد

سلطان آباد حاضرة ولاية فى إيران تسمى العراق ، وهى فى الجنوب الغربى من سهل فراهان ، بناها منـذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الـكرجى وجعلها مربعة الشكل ؛ وسورها وحصنها . وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع فيها زهاء ٦٨٠ قرية وسجاجيدها مشهورة .

وعلى مقربة من هـذه المدينة كانت مدينة الـكرج فى الإقليم الذى كان يعرف باسم كرج أبى دلف ؛ وقد ذكره الشعراء فى مدائحهم .

دخلنا المدينة ليلا فسرنا قليلا فانتهينا إلى ميدان فسيح فيـه حديقـة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لإصـلاح المدن الإيرانية فى السنوات الأخيرة

وقف بنا السائق على فندق (مهمانخانه) فى هذا الميدان فدخلنا إلى فناء

واسع للسيارات ، وصعدنا فى سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة . فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ليس فى المدينة سواها ، فاتخذنا حجرة لا بأس بها فى مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلا . ثم خرجنا نجول فى البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة.

برحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همذان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لندرك قافلة السيارات التى تبرحها إلى دمشق صباح الخميس

بلغنا فخر آباد والساعة تسع وراقنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنه معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول : إن لله دواء من العسل (مستعيذين من المثل القديم : إن لله جنودا منها العسل). ثم وقفنا على ملابير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد مائة كيل . وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همذان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا فى شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا ، ثم أوينا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ، والأرمن فى إيران قومة الفنادق تلقاهم فى كل مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقا أو مطعما على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنيا .

وأعجلنا السفر عن الإقامة فى همذان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت في كرمان شاهان . ونحن الآن على طريقنا التى سلكناها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا .

لما شرعنا نفرع الجبال جنوبى همذان أصاب مصدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسى : « عيد الفردوسى » . وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر فى حفلات الفردوسى. فوقفنا ، ونظر سائق السيارة فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس ، كما يأتى . واجتزنا جبال أسد آباد ، وبلغنا كنكاور والساعة خمس وربع من المساء وقد ذكرت هذه البلدة فى طريقى إلى طهران ؛ أزيد هنا أننا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاى ، وأكلنا البطيخ . وهو فى إيران كثير لا يعدمه السائر حيثما سار . وخرجنا نمشى على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته فإذا جماعة جالسون فى عريش على جانب الجادة ، فتقدم كبيرهم فحيانا وقال : إن فى البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟

وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد . فسرنا لنرى الآثار . وصحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين . فرأينا بلداً صغيراً فقيراً فى وسطه أحجار ضخام ، وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور . فقيل هذا أثر معبد قديم واخترقنا بعض الدور وسرنا بضع دقائق . فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه . وكان معبد للإلاهة ناهيد (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء ،

بناه لها الاشكانيون وهي كوكب الزهرة . وكان البلد أيام الفتح العربى مأوى اللصوص وقطاع الطريق . فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص .

قال ياقوت فى المعجم : « قال صاحب الفتوح لمافتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همذان فنزلوا كنكور . فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص و بقى اسمه إلى الآن ... وقال مسعر بن مهلهل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جدا ، وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تتحير فى بنائه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل أبرويز ومسكنه ومتنزهه لكثرة صيده وعذوبة مائه ، وحسن مروجه وصحاريه »

تركنا كنكاور والساعة ست . فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته فسرنا فى جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق . وقد ذكرته من قبل وذكرت قصة فرهاد وشيرين التى لايزال صداها طائراً فى أرجائه .

ولما لاحت ذروة الجبل فى ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :

لعل شيرين نصيب خسرو شعر   سنك بيهوده مى كند فرهاد

وترجمته

« بشيرين كان لخسرو الظفر   وكان لفرهاد نحت الحجر »

فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم كرفت بارانم   أكرغلط نكنم آب حشم فرهادست

وترجمته

« صاب فوق ببيستون سماء   ليت شعرى أدمع فرهاد هذا ؟ »

ثم قال السائق : أتعرف قصة شيرين وفرهاد ؟ فأحببت أن أسمعها منه فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبرويز فرآى يوماً شيرين امرأة برويز فهام بها حبا ، وكان يظنها إحـدى إماء الملك . ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد : إن شئت أن أمنحك شيرين فانحت فى الجبل قناة يسيل منها اللبن من المراعى إلى القصر . فشق فى الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد : بقى أن تبنى لى قصراً عظيما . فنحت الأحجار و بنى القصر . فلما خشى الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لمشيريه : كيف الخلاص من فرهاد ؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة . قال : ماخطبك ؟ قالت ماتت شيرين فغشى عليه ومات لساعته . وخلصت شيرين لبرويز » .

والقصة ذائعة فى الأدب الفارسى ، وقد نظمت مراراً و بلغ بها الشعراء آلاف الأبيات .

فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد فى هذا الجبل ؟ قال : إنه عال ، ولا يرى بالليل .

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همذان ١٩٠ كيلا . وأوينا إلى فندق اسمه (مهمانخانة بزرك) أى الفندق الكبير وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن سائق السيارة أن يتأخر قليلا غدا ريثما يصلح سيارته ثم انصرف .

وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشى فى المدينة .

ثم ذهبنا إلى دار البريد فأبرقنا إلى وزير المعارف نشكر له مالقيناه من حفاوة ، قبل أن نجتاز حدود إيران • ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق وذهبنا نفتش عنه فى الخانات حتى عثرنا عليه مكبا هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر . فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجد بنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل فنزلنا فى فندق صغير فاسترحنا وطعمنا ونشط أصحاب الفندق من الأرمن فى خدمتنا . فاستأنفنا السير بعد ساعة ، ومررنا بكرند وكوه باطاق ، وسر بل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود العراق .

بلغنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس ؛ فلقينا الموظفون مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل . فسرنا إلى خانقين فعرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى .

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأمامنا صحراء مشتبهة الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا على منتدى فى الطريق ونزلنا فاذا صورة أم كلثوم فى صدر المكان . ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون سارع فأسمعنا غناءها . فشعرنا ونحن فى العراق أن مصر قريب .

ثم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادى أن الطريق غير بينة فاحملونى لأدلكم . قلنا : لاحاجة اليك . وأدركنا فارسان من العسس فقالا . أمامكم صحراء لاتهتدون فيها إلى طريقكم .فخير لكم أن تبيتوا هنا وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلا . وهذا الشاب إن حملتوه معكم لايستطيع أن يهديكم الطريق . فاقسم الشاب أنه بها جد خبير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان فى السيارة فركب على الرفرف .

وسرنا فإذا الطريق واسعة لاحبة لاتحتاج إلى دليل قلنا للدليل : أكذلك طريقنا إلى بغداد ؟ قال : لا . فسرنا لانستهديه ولا نبالى به إلا سؤالا فى الحين بعد الحين : « هل نمت ؟ » . فيقول : لا . فنقول : احذر أن تنام أو تقع فنضل فى هذه الصحراء • فنعم الدليل أنت ! لولاأن من الله علينا بك لهلكنا • ولسنا ننكر على دليلنا أنه كان حديثا ممتعا فى الصحراء ؛ سميناه الدليل النائم ، واهتدينا به إلى الفكاهةوإن لم نهتد به إلى غاية !

بلغنا مدينة السلام منتصف الليل فأوينا إلي الفندق وانصرف دليلنا ثم جاء صبحاً يطلب أجره • فضحكنا وقلنا لخادم الفندق : أبلغه أننا وهبنا له أجرة الركوب بماله من أجر الهداية فليذهب مأجوراً • ثم نزلنا لنلقاه فنمازحه ونعطيهأجره ولكنه ذهب فلم يعد ولم نجد إليه دليلا فأسفنا أسفا شديداً •

بغداد إلى الاسكندرية

أقمنا ببغداد أربعة أيام ، فأحدثنا العهد ببعض مشاهدها ، وزرنا مرقد الملك فيصل رحمه الله : رأينا في العراء على مقربة من دار البرلمان مقصورة من الخشب ترتفع عن الأرض درجات ، وعلى بابها جندي شاهر السلاح . ففتح لنا الباب إلى ضريح مغطى بالورد والزهر : هنا بقية الجهاد من النفس الطامحة ، هنا حلقة يصلها النسب والمجد والتاريخ بسيد المرسلين وخاتم النبيين . غاية تنقطع دونها الأعناق ، ويعيا بمرامها كل سباق . أترى هذا المصحف على حافة الضريح ؟ هذا كتاب الله يشهد للسلف بما قدم ، ويدعو الخلف إلى أن يمضي قدماً على سنة الآباء وسنن المجد وهدى الإسلام . فيا بني العرب والإسلام احذروا غضب الله ، وسخط الآباء ، ولعنة التاريخ ، وسيروا بالراية إلى الغاية ، وتبوأوا مكانكم في جبهة الخطوب وصدر الزمان .

فإنا أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وقفنا للفكر حيناً ثم قرأنا الفاتحة وخرجنا نقول : رحم الله فيصلا !

وفي اليوم الثاني شرُفنا بالمثول بين يدي جلالة الملك الشاب غازي بن فيصل ! اقتربنا من الحجرة الملكية فرأينا جلالته واقفاً ؛ فلما ولجنا الباب تقدم إلينا فحيانا تحية العربي الكريم ضيفانه ، وتلقانا كما يتلقى الأخ العظيم إخوانه .

وجلسنا فسألنا كيف صحة جلالة ملك مصر ؟ وسألنا عما رأينا في سفرنا وما لقينا في حلنا وترحالنا ؟ وكيف رأينا تقدم العراق بعد زورتنا الأولى ؟ ثم كانت أحاديث ملؤها الأمل والطموح في مستقبل العراق والعرب . قلنا : وإنا لندعو الله أن ييسر للملك الهاشمي المظفر السير على سنن آبائه ، ويرعاه قرة عين للعرب والمسلمين . ثم خرجنا فرحين مغتبطين فقلنا قد رأينا في فيصل صفحات من مجد الأمس ! وهذه صفحات من مجد الغد .

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

صدّق الله آمالنا ، ومهد لنا طريقنا ، ويسر لنا غايتنا .

***

وزرنا مسجد الإمام أبي حنيفة والمدرسة الأعظمية ودار الكتب . وزارنا في الفندق كثير من إخواننا البغداديين ، وتنافسوا في دعوتنا إلى ضيافتهم ؛ ولكن ضاق الوقت عن إجابة الدعوات ، إلا دعوتين سبقتا قبل سفرنا إلى طهران من الأستاذ الفاضل أبي خلدون ساطع بك الحصرى مدير كلية الحقوق ، والأديب الهمام رفائيل بُطي مدير جريدة البلاد ، فذهبنا إلى حفلتين نعمنا فيهما بلقاء جمع من زعماء العراق وعلمائه وأدبائه ، وسعدنا بأحاديث في الأخوة والمودة ، والسياسة والعلم والأدب .

وفي اليوم الأخير كانت حفلة الوداع في دار المفوضية المصرية ، إذ دعا الأستاذ حافظ بك عامر القائم بأعمال المفوضية جمعاً من أعيان بغداد ومن المستشرقين الذين رافقونا في حفلات الفردوسي ، وسفير إيران ببغداد وغيرهم

إلى مأدبة شاى ، ولم تــكن هذه أول حفاوة حافظ بك والأخ حسين أفندى منصور سكرتير المفوضية.

برحنا بغداد بكرة يوم الإثنين فى ســيارة جديدة من سيارة شركة (نيرن) ذات عشر عجلات ، طولها خمسة وعشرون متراً ؛ وهى نمط جديد مركب من جزأين : القاطرة والعربة . وقد أريد بفصل القدم من سائر العربة تخفيف الارتجاج . فالسيارة تسير رهواً فى الطريق غير المعبدة . وقفنا قليلا فى الرمادى فرأينا سيارة كبيرة تقل نفراً من الإنــكليز ، فيهم أطفال ونساء ، وقد كتب عليها ما يدل على أنها سائرة من الهند إلى لندرة سألت بعضهم : متى فصلتم من الهنــد ؟ قال : منذ شهر . قلت : ومتى تبلغون لندرة ؟ قال : بعد شهر ونصف ، لأننا سنتلبث فى القسطنطينية وبعض البلاد . فهانت علينا الشقة بين طوس والقاهرة ، وأكبرنا هذه العزائم السيارة :

بعيد مناط الهم فالغرب مشرق إذا ما رمى عينيه والشرق مغرب

وبلغنا الرطبة بعد الغروب فلبثنا ساعتين ؛ جلسنا فى فندق هناك نستمع إلى الغناء المصرى ونأكل ما تيسر من الزاد . ثم مشينا فى أطراف الصحراء فرأينا مجرى وادى حوران الذى يسيل من حوران إلى وادى الفرات ، ولم يكن به يومئذ ماء . ورأينا هناك آباراً يستقى منها الأعراب الضاربون فى تلك النواحى ؛ وقد جاء إلينا أطفال الأعراب فسألهم أحد الرفاق عن أسمائهم فلم يجيبوا . فقلت : إن ابن البادية يتحرز من ذكر اسمه

واسم قبيلته حتى يأنس . فلما استأنسناهم بالحديث والعطاء صرحوا بالأسماء .

طلعت الشمس ونحن فى أرباض دمشق ؛ فدخلنا فى نضرة الصباح وأشعة الشمس تموج على ذوائب الغوطة الفيحاء . وما دخلت دمشق قط إلا خفق قلبى لها سروراً وحبا .

أوينا إلى فندق أمية ، يحببه إلينا هذا الاسم العربى ، ولبثنا يومين . ووجدنا خدام المائدة هناك من النوبيين فرحبوا بنا وبالغوا فى إكرامنا .

وهنا لطيفة أضن بها على الترك : جلست أنا ورفيق الأستاذ العبادى للإفطار ؛ فلما قدمت إلينا ألوان الطعام طاف بنا طائف من الشعر ؛ فقال الأستاذ:

وقوم فى أميـة ينزلونا   من العسل المصفى يشربونا

فقلت : ولو علموا مكانتهم لكانوا   بصحن بنى أميـة ينزلونا

قال : ما صحن بنى أمية؟قلت صحن الجامع الأموى . قال : إن النزول به شرف . قلت : هذا أردت . والله أعلم بذات الصدور .

بادرنا بعد أن استرحنا إلى زيارة الأستاذ محمد كرد على بك كما فعلنا حينما وردنا المدينة فى طريقنا إلى طهران . ومن فاته مجلس الأستاذ كرد على فى داره المعمورة فقد فاته خير كثير . وكنا نعمنا المرة الأولى بليلة غوطية قمراء سمرنا بها مع الأستاذ والأمير مصطفى الشهابى والأستاذ خليل مردم . وهم كما قال الحريرى :

« فى رفقة غُذوا بلبان البيان ، وسحبوا على سحبان ذيل النسيان »

ما فيهم إلا من يحفظ عنه ولا يُتحفظ منه ، ويميل الرفيق إليه ولا يميل عنه » .

ويوم الأربعاء زرنا الجامعة السورية فاذا كلية الآداب قد ألغيت . ولقينا الأستاذ مدير الجامعة فطاف بنا فى حجرات الكيمياء والطب ، ثم دعانا إلى غرفته فتحدثنا فى الاصطلاحات العلمية وتوحيدها فى البلاد العربية ، ثم خرجنا شاكرين . وذهبنا إلى المتحف العربى لنرى الأمير جعفراً الجزائرى فاذا المتحف مغلق وإذا المكتبة التى أمامه مغلقة .

وهنا أقول إن دار المتحف العربى هى دار المدرسة العادلية لا دار الحديث الأشرفية كما ذكرت خطأ فى حديثى عن الشيخ الخالدى الذى نشر فى مجلة الرسالة ، وأنا أعترف بأن الغلط كان منى لا من الشيخ ، وأنه نبهنى إليه حينما قرأ المقال وهو بمصر . وهذا لا يُقل شكرى للأديب برهان الدين محمد الداغستانى الذى نبه إلى هذا الغلط فى مقال بمجلة الرسالة

وفى المساء ذهبنا إلى الصالحية فزرنا قبر الشيخ عبد الغنى النابلسى ولم نكن زرناه . وقفت بنا السيارة على حارة هناك فترجلنا ومشينا بجانب بناء قديم مهجور فقيل : هذه المدرسة العمرية التى بناها أبو عمر بن قدامة . وفى هذا الحى مدارس كثيرة كانت مباءة العلم والعلماء فى العصور الخالية . وتقدمنا قليلا ثم ملنا ذات اليمين فهبطنا مسجداً صغيراً مشرفاً على دمشق . ثم ولجنا باباً إلى اليمين فاذا مصلى واسع ، فلما اتجهنا شطر القبلة رأينا فى الجدار الذى إلى اليسار مقصورتين عليهما شبابيك الحديد إحداهما مرقد الشيخ الصوفى العالم المتفنن عبد الغنى النابلسى ، والأخرى قبر أحد أقاربه

وقد رأيت على باب المصلى الذى فيه الضريح هذين البيتين :

زان سورية الوزير نظيفٌ بنظام يفوق عقـداً نظيما
لمقام الولى عبـد الغنى مذ شاد أرَّخت «نال أجراً عظيما»

ومعنى ذلك أن والى سورية نظيف باشا ، عمر هذا المكان سنة ١٣٠٧

ثم ذهبنا إلى دار العالم الفاضل الأمير مصطفى الشهابى إجابة لدعوته ، وهى فى أعلى الصالحية تشرف على دمشق كلها . فتمشينا وسمرنا مع جماعة من الفضلاء ، ثم هبطنا بعد هدأة من الليل فمشينا إلى الفندق ، وسار معنا الإخوان مودعين فختمت إقامتنا بدمشق على أحسن ذكرى .

* * *

وأصبحنا نتأهب المسير إلى بيروت فبلغناها ظهراً .

وجُلنا فى المدينة حتى أرست الباخرة الرومانية « شارل الأول » فوضعنا أمتعتنا بها ثم نزلنا فجلنا جولة فى المدينة ورجعنا إليها والساعة إحدى عشرة . وفى منتصف الليـل سارت الباخرة . فلما أصبحنا رأينا أسباط بنى إسرائيل الذاهبين إلى حيفا مزدحمين فى أرجائها وقد راجت سوق الملابس بينهم ، هذا يعرض وهذا يساوم ، وهذا يشترى وهذا يأبى . فقلنا لله در القوم !

وقفت الباخرة على حيفا صبحاً ، وقد صارت حيفا ميناء كبيراً منذ العام الماضى ؛ فنزلنا إلى المدينة وصعدنا فى جبل الكرمل وهو جبل عال مزدان بالدور والأشجار مشرف على البحر . ومررنا بقبر الباب صاحب الدعوة

البابية ، وقبر عبد البهاء عباس أفندى زعيم البهائيين السابق . وهما فى بناء جميل تحيط به حديقة منضدة ينحدر الجبل منها طبقة بعد أخرى حتى يفضى إلى شارع واسع يستقيم من سفح الجبل إلى البحر .

وسارت السفينة بالعشى فما زالت فى بحر رهو حتى أقبلت على الإسكندرية المحبوبة قبل الظهر يوم السبت ثالث نوفبر . خفقت قلوبنا فرحاً بالأوبة إلى الوطن ، وقذيت عيوننا بالمرائى الأجنبية المتزاحمة فى الثغر وزادها قذى منظر زورق الشرطة تعلوه راية كتب عليها من الجانبين polies كأن البلد لا يعرف اللغة العربية . وبينما تكفهر حولنا هذه المناظر المخزية وقع بصرى على كلمة « زمزم » الكلمة العربية الوحيدة فى مئات الأسماء المحيطة بنا ؛ هذه زمزم إحدى بواخر بنك مصر ! هذا كوكب يلوح فى هذا الظلام الدامس ! هذا برق من الرجاء يشق هذا الليل اليائس ! هذه فاتحة المستقبل الوضاء . فاصبرى أيتها النفس فان مع العسر يسراً .

خاتمة

لم يتيسر لنا المقام فى إيران حتى نعرف من أحوالها ودخائلها وسير العلم والأدب بها ، وحتى نستقصى آثارها ومشاهدها ، وإنما هو السفر العجلان الذى لا يقف ببلد إلا ليسير عنه . فهذه المقالات جهد النظرة العاجلة ومبلغ الأيام القليلة التى قضيناها طائرين من مدينة إلى أخرى ، ومقدار ما وعت الذاكرة دون الاستعانة بالمذكرات . وهو كما يرى القارىء كلام

غريب النور ، قليل الجدوى ؛ ولكنه لايخلو من فائدة .

وبعد فقد سرنا من القاهرة إلى طوس فما أحسسنا أننا اغتربنا ، بل رأينا أنفسنا بين وجوه معروفة ، أو سنن مألوفة ، وتاريخ معلوم ، وفي مشاهد حدثتنا عنها كتبنا ، وعهدها تاريخنا ونشأ فيها علماؤنا ، فالعالم الإسلامي على اختلاف الأمم أمة واحدة ألفتها مئات السنين على معنى واحد ، وأورثها التاريخ حضارة واحدة ، وآدابا متقاربة ؛ وهذا ذخر ، لعمر الحق ، جدير أن يصان على رغم الزمان ، وائتلاف ينبغي أن يجنب الاختلاف ، وتقارب هو أسعد ماتحظى به الأمم في هذه العصور القلقة المضطربة . فقل للذين يريدون أن يقطعوا الأوصال بما يثيرون من الجدال ، وقل للذين يحقرون ماضينا ويزدرون تاريخنا ، ويحاولون أن يهدموا كل قديم ليشيدوا كل حديث : ساء صنعكم وفال رأيكم . وقل للذين يلتفتون عن المشرق ليولوا وجوههم شطر المغرب : إنما تعرضون عن أنفسكم وتاريخكم . فابدءوا بأنفسكم فاعرفوها ، وبمآثركم فعظموها ، ثم اعرفوا لغيركم أقدارهم « ولا تبخسوا الناس أشياءهم »

نسأل الله الهداية والتوفيق .

عودة الى العراق

ذكرت آنفاً طرفاً من أخبار رحلتى الأولى والثانية إلى العراق .

وقد دعيت بعد سنة من الرحلة الثانية إلى أن أدرس الأدب العربى بمدرسة المعلمين العالية ببغداد ، فلبيت الدعوة مغتبطاً أن أكون أستاذ أدب فى حاضرة العباسيين التى مهدت حجرها للأدب العربى قروناً طويلا ، وتولى أدباؤها الإمامة فى تاريخ الأدب العربى حقبا مديدة . ولا تزال أفئدة المسلمين عامة والعرب خاصة تهفو إليها .

وما أردت التعليم أكثر مما أردت الاستفادة ، وقضاء حاجات الفؤاد المشوق بالإقامة حقبة فى العراق ، وكان أكثر همى أن أشارك إخواننا الذين يبنون مجدهم الطارف على مجدهم التالد جهد طاقتى وسعة معرفتى .

أردت أن أفى بعض ما للتاريخ والحاضر والمستقبل على من حق بأن أساهم فى إنهاض العراق باللسان إن لم أستطع المعاونة باليد .

رحلت إلى العراق فى رمضان عام ١٣٥٤ هـ — ديسمبر سنة ١٩٣٥ م فبلغت دار السلام قبيل عيد الفطر وكانت أيامها كلها أعياداً .

أمضيت بها سبعة أشهر أسعدتنى بمعاشرة زعمائها وعلمائها وأدبائها ومخالطة الطلاب والمعلمين مخالطة أخوة خالصة ، وطوفت فى أرجاء البلاد أرى معاهد التعليم وأتتبع سيرة مجدنا القديم فى الطرق والمدن والقرى .

وما أحسست الاغتراب حينما كنت من العراق إلا كما أحسه زملائى البغداديون الذين صحبتهم إلى أقصى الجنوب وأقصى الشمال .

ولست فى حاجة إلى أن أتحدث عن العراق وأهله بعد الذى قلته فى الفصول السابقة ، ولكنى أسطر على الصفحات التالية ذكريات متفرقة بقيت فى النفس بعد سنتين وأشهر من مفارقة هذا القطر المجيد .

البصرة

خرجنا من الناصرية على الفرات جنوبى العراق نريد البصرة يوم الخميس ٣٠ ابريل سنة ١٩٣٦ والساعة ثلاث وعشر دقائق بعد الظهر ، والناصرية حاضرة لواء المنتفق بنيت على نظام حسن منذ ثمانين عاماً ، وسميت باسم ناصر باشا السعدون رئيس عشائر المنتفق ، وبينها وبين البصرة مائة وخمسة عشر ميلا .

سارت بنا السيارة ثلاث ساعات على حافة البادية بادية الشام فى قسمها الجنوبى المسمى بالسماوة ، نجد على البعد ريح نجد وزى الشيح والقيصوم ، وبينا نحسب الساعات والأميال ، تشوقنا البصرة وذكرياتها ، قال أحد الرفاق انظروا إلى شجر الأثل — هذا أثل الزبير ؛ قاربنا المدينة .

مدينة الزبير مدينة صحراوية على مقربة من البصرة الحديثة بينهما نحو عشرة كيلات ، وكانت فى العصور الخالية قسما من البصرة القديمة سميت باسم الزبير بن العوام أحد الصحابة ، قتل بعد موقعة الجمل فى وادى السباع على مقربة من المدينة ودفن بها .

وسكان الزبير معظمهم نجديون أهل نشاط وتجارة ، وقد جلبت إليها الحكومة العراقية الماء من البصرة منذ سنتين وكان شربهم من الآبار . وبها من المشاهد قبر الزبير رضى الله عنه فى مسجد كبير ؛ وفى جانب من هذا المسجد قبر عتبة بن غزوان مؤسس البصرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . قلت فى نفسى : قبر عتبة يذكرنى بالفتح والتعمير ، وضريح الزبير يذكر بالخلاف والقتال بين المسلمين ، وتلك أمة قد خلت . أسأل الله إصلاح النفوس وتأليف القلوب

وخرجنا من مسجد الزبير إلى ظاهر البلد فرأينا قبة صغيرة تحتها قبران : قبر الحسن البصرى ، وقبر محمد بن سيرين من التابعين ، قلت : قد اصطحبا حيين وميتين ، وإن الذى يذكر الحسن يملأ نفسه الإجلال والإكبار لهذا الرجل ، رجل الذكاء والفصاحة والعلم والورع والجرأة فى الحق . روى عن ثابت بن قرة أنه قال : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس : عمر بن الخطاب والحسن البصرى والجاحظ . وقال عن الحسن : كان من درارى النجوم علماً وتقوى ، وزهداً وورعاً ، وعفة ورقة ، وفقهاً ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروباً من الناس : هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ؛ وهذا يسمع الوعظ ، وهو فى جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ الجزل . . . الخ »

وأما قبور الصالحين التى ذكرها ابن بطوطة كمالك بن دينار وسهل ابن عبد الله فلم نجد عند القوم خبراً عنها ، وأما قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعند وادى السباع بعيد عن المدينة .

فصلنا عن مدينة الزبير فرأينا على بعد قبة منفردة فى البرية ، وعرفنا أن تحتها ضريح طلحة بن عبيد الله أحد الصحابة ، وقد قتل فى وقعة الجمل أيضاً ، ثم مررنا بمئذنة مفردة ليس بجانبها بناء ، فقيل : إنها مئذنة مسجد على رضى الله عنه ، وكان هذا المسجد فى وسط المدينة ؛ وكان مسجداً عظيما . وقد بقى وحده بعد خراب البصرة القديمة ، ورآه ابن بطوطة وقال « إنه من أحسن المساجد وصحنه متناهى الانفساح ، مفروش بالحصباء الحمراء التى يؤتى بها من وادى السباع ، وفيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل »

ثم دخلنا مدينة البصرة وهى على ثمانية أميال إلى الشمال والشرق من البصرة القديمة التي تم خرابها فى أوائل القرن الثامن الهجرى . وخراب البصرة يضرب به المثل .

ولله ذكر تحيط بالداخل إلى البصرة ! إنها ذكر الفتح والتعمير الإسلامى ، إنها ذكر العلوم والآداب العربية ؛ هنا ولد النحو وعلوم اللغة ، هنا أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه والأصمعى ثم الحريرى ؛ وهنا بشار وأبو نواس ، وهنا أئمة المعتزلة إبراهيم النظام وأبو الهذيل العلاف ، وهنا نادرة الزمان أبو عثمان الجاحظ : وهنا إخوان الصفاء الذين دونوا خلاصة

الفلسفة الإسلاميـة ، وهنا المربد حيث كان يجتمع الشعراء والفصحاء ، فيستمع الناس ويقضون لمتكلم على آخر . هنا أنشد جرير والفرزدق وغيرهما .

سألت أين مشان قرية الحريرى التى كان بها نخله الكثير . فقيل لايزال اسمه معروفا ثم لى البصرة فأنشدت ما كتبه سديد الدولة ابن الأنبارى إلى الحريرى :

سقى ورعى الله المشان فإنها　　محل كريم ظل بالمجد حاليا
أسائل من لاقيته كيف حاله　　فهل يسألن عنى ويعرف حاليا

• • •

البصرة اليوم مدينة عامرة كبيرة ، واسعة التجارة ، قد شمل التنظيم الحديث قسما كبيراً منها . وقسمها الحديث يسمى العشار يقع على شط العرب ، وتشرف على هذا النهر العظيم قصور أغنياء البصرة تتبين فيها الغنى والبذخ والترف ، لها مجالس على النهر ودرج ترسو عليها الزوارق .

وعلى بضعة أميال من المدينة تقع ميناء البصرة الحديثة تدخل إليها البواخر الكبيرة ، ولها مستقبل تجارى وحربى عظيم . والجهة التى بها الميناء تسمى معقل ويسميها الأوربيون مركيل . وأحسبها مسماة باسم معقل ابن يسار المزنى . وكان هناك نهر يسمى نهر معقل ، وجاء فى الأمثال : إذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل .

والبصرة مدينة البندقيـة العربية فهى واقعة على شط العرب العظيم تخرج منه أنهار كثيرة تخترق المدينة ، فتجرى فى شوارعها الفسيحة تطل عليها الدور والبساتين .

واذكر أنى سرت من المدينة إلى أبى الخصيب فى طريق معبـــدة تظللها النخيل والأشجار نحو عشرين ميلا فاجتزت أربع عشرة قنطرة على الأنهر الآخذة من شط العرب .

والبصرة أكثر بقاع العالم نخلا ، بها نحو عشرة ملايين نخلة . ويكاد النخيل يتصل ما بين القرنة حيث يجتمع دجلة والفرات ، إلى مدخل خليج البصرة . وذلك نحو ١٥٠ كيلا . وقد روى الأصمعى عن الرشيد أنه قال : نظرنا فإذا ما على وجه الأرض من ذهب وفضة لا يبلغ ثمن نخل البصرة .

وهذا الخصب العظيم والعمران الكثيف على مقربة من البادية . فمن شاء تحضر ونعم بألوان الحضارة ، ومن شاء تبدى واستمتع بحرية البداوة وبالصيد وغيره .

وقد قال ابن أبى عيينة المهلبى يصف البصرة :

ياجنة فاقت الجنان فمـــا	يعـــدلها قيمـــة ولا ثمن
ألفتها فاتخـــذتها وطناً	إن فؤادى لمثلهـــا وطن
زوج حيتانهـــا الضباب بهـــا	فهـــذه كنة وذا ختن
فانظر وفكر لما نطقت به	إن الأديب المفـــكر الفطن
من سفن كالنعام مقبـــلة	ومن نعام كأنهـــا سفن

وقال خالد بن صفوان : « يغدو قانصنا فيجىء هذا بالشبوط والشيم ، ويجىء هذا بالظبى والظليم ...» والشبوط والشيم من أنواع السمك .

وقال ابن أبى عيينة أيضاً :

وياحبـذا نهر الأبلة منظرا إذا مد فى إبانه الماء أو جزر
ويا حسن تلك الجاريات إذا غدت مع الماء تجرى مصعدات وتنحدر

وسقيا بساتين البصرة ومزارعها من المد . وذلك أن شط العرب يمد ويجزر ، وقد وصفه الشعراء والـكتاب والرحالون على اختلاف العصور ؛ قال خالد بن صفوان :

وأما نهرنا العجيب فإن الماء يقبل عنقاً فيفيض متدفقاً ؛ يأتينا فى أوان عطشنا ، ويذهب فى زمان رينا ، فنأخذ منه حاجتنا ونحن نيام على فرشنا ؛ فيقبل المـاء وله عباب ، وازدياد لايحجبنا منه حجاب ؛ ولا تغلق دونه الأبواب ، ولا يتنافس فيه من قلة ، ولا يحبس عنا من علة .

وقال الجاحظ وهو يعد عجائب البصرة :

منها أن عدد المد والجزر فى جميع الدهر شىء واحد ، فيقبل عنـد حاجتهم إليه ، ويرتد عند استغنائهم عنه ، ثم لايبطىء عنها إلا بقـدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها ؛ لايقتلها عطشاً ولا غرقاً . يجىء على حساب معلوم ، وتدبير منظوم ، حدود ثابتة ، وعادة قائمة ، يزيدها القمر فى امتلائه كما زيدها فى نقصانه ، فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ومتى يذهبون ويرجعون ، بعد أن يعرفوا موضع القمر وكم مضى من الشهر فهى آية وأعجوبة ، ومفخرة وأحدوثة ، لايخافون المحل ولا يخشون القحط .

قال ياقوت الحموى :

كلام الجاحظ هذا لايفهمه إلا من شاهد المد . وقد شاهدته فى ثمانى

سفرات لى إلى كيش ذاهباً وراجعاً ، ويحتاج إلى بيان ليعرفه من لم يشاهده ؛ وهو أن دجلة والفرات يختلطان قرب البصرة ويصيران نهرا عظيما يجرى من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب ، فهذا يسمونه جزراً . ثم يرجع من الجنوب إلى الشمال ويسمونه مدا . يفعل ذلك كل يوم وليلة مرتين ، فاذا جزر نقص نقصاناً كثيراً بيناً بحيث لو قيس لكان الذى نقص مقدار ماتبقى أو أكثر . وليست زيادته متناسبة ، بل يزيد فى أول كل شهر ووسطه أكثر من سائره ... الخ اه . وكلام ياقوت يحتاج إلى تفسير كذلك : يجزر خليج البصرة فيجرى الماء من شط العرب إليه فينخفض ماء النهر ؛ ثم يمد الخليج فيرفع الماء فى النهار ويرجع تياره إلى الشمال .

وهذا النظام لايزال سارياً اليوم ، ولكن حفر مدخل الشط فى السنين الأخيرة لتتمكن السفن العظيمة من الدخول فصار المد أقل مما كان قليلا .

وأما هواء البصرة فحار رطب : وكان من حسن حظنا أن كنابها فى أوائل أيار (مايو) فلم نصادف إلا هواء معتدلا بالنهار بارداً بالليل . وقد وصف القدماء هواء البصرة بشدة الاختلاف . قال الجاحظ . من عيوب البصرة اختلاف هوائها فى يوم واحد ، لأنهم يلبسون القمص مرة ، والمبطنات مرة لاختلاف جواهر الساعات : ولذلك سميت بالرعناء ؛

قال الفرزدق :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لى وطنا

وذلك أن ريح الشمال فى البصرة باردة ، وريح الجنوب حارة . ولذلك قال ابن لنكك الشاعر البصرى :

نحن بالبصرة فى لو ن من العيش ظريف
نحن ماهبت شمال بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب فكأنا فى كنيف

وكانت البصرة إلى عهد قريب كثيرة الحميات ، ويقول ابن بطوطة بعد ذكر المد والجزر : « وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد » ، وألوا ن أهلها مصفرة كاسفة حتى ضرب بها المثل . وقال بعض الشعراءوقد أحضرت بين يدى الصاحب أترجة :

لله أترج غـدا بيننا معبراً عن حال ذى عبرة
كما كسا الله ثياب الضنى أهل الهوى وساكنى البصرة

وسمعت فى العراق أن أهل البصرة قد ألفوا الحمى حتى أن أحدهم يكون سائراً مع صاحبه فيحس الحمى فيقول له : إئذن لى أن أذهب إلى البيت لأحم . هذا كله كان قبل أن تنالها يد العناية ؛ عناية الحكومة العراقية . وأما اليوم فقد أصلحت الحكومة الطرق والأنهار والمستنقعات وتوسلت بوسائل طبية كثيرة حتى قلت الحمى هناك جدا ، ويرجى أن تزول فلا يبقى لها أثر بعد سنين قليلة .

ومن الإنصاف أن أذكر ماعرف به أهل البصرة فى الماضى والحاضر من كرم الخلق ورعاية الغريب . قال ابن بطوطة :

« وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه ؛ فلا يستوحش فيما بينهم غريب » .

وفى ياقوت : « وقال شاعر يصف أهل البصرة بالبخل وكذب عليهم » وياقوت خبير بالبلد وأهله .

وكذلك أهل البصرة اليوم تغلب عليهم الأخلاق العربية على كثرة ما نابهم من محن ومر بهم من شدائد .

وفى البصرة مدارس أولية وابتدائية كثيرة ومدرسة متوسطة وأخرى ثانوية . والتعليم فيها يزداد ويزدهر سريعاً • وعسى أن يكون لها بعد قليل ما كان لها من مجد وصيت يوم كانت مهد العلوم العربية والإسلامية • وبعد فللبصرة من موقعها وأرضها ومائها وعناية الحكومة العراقية بها ما يضمن لها مستقبلا زاهراً . وإنا لنرجو أن تعيد سيرتها ، وتعمل لخير العربية والإسلام ماعملت فى ماضيها إن شاء الله •

الى الموصل

فصلنا من بغداد يوم الجمعة أول ربيع الأول (٢٢ مايو) ضحى النهار فحاذينا سامرا بعد ساعتين ونصف ، فلم نعرج عليها إذ كان دجلة بيننا وبينها وكان لزيارتها موعد آخر . وبعد ربع ساعة مررنا بأطلال قصر ضخم يقال إنه قصر العاشق الذى بناه المتوكل . وقصور المتوكل رحمه الله وعماراته تملأ سامرا وما حولها ؛ وقد أشاد بها شاعره البحترى .

وبعد ساعة وثلث من سامرا ملنا شطر المشرق إلى تكريت فررنا ببناء قيل إنه قبر الأربعين ، دفن فيه أربعون من الصحابة ، وقد نزلنا ودخلنا فيه ولم نتبين حقيقته . وخرافة الأربعين شائعة فى مصر ، يرى فى مواضع كثيرة منها « مقام سيدى الأربعين » . واجتزنا بتكريت على شاطىء دجلة الغربى غير متلبثين بها على ماملأ نفوسنا من ذكرى الرجل العظيم صلاح الدين الأيوبى ، فقد ولد بها سنة ٥٣٢ ، ومات بها أبوه شادى ودفن هناك .

وذكرت قصيدة المعرى :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا ... وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وبعد الظهر نزلنا فى بيجى آخر محطة على السكة الحديد الممتدة من بغداد إلى الشمال ، ويرجى أن تمتد إلى الموصل . ثم استأنفنا المسير حتى بلغنا الموصل بعد سفر عشر ساعات .

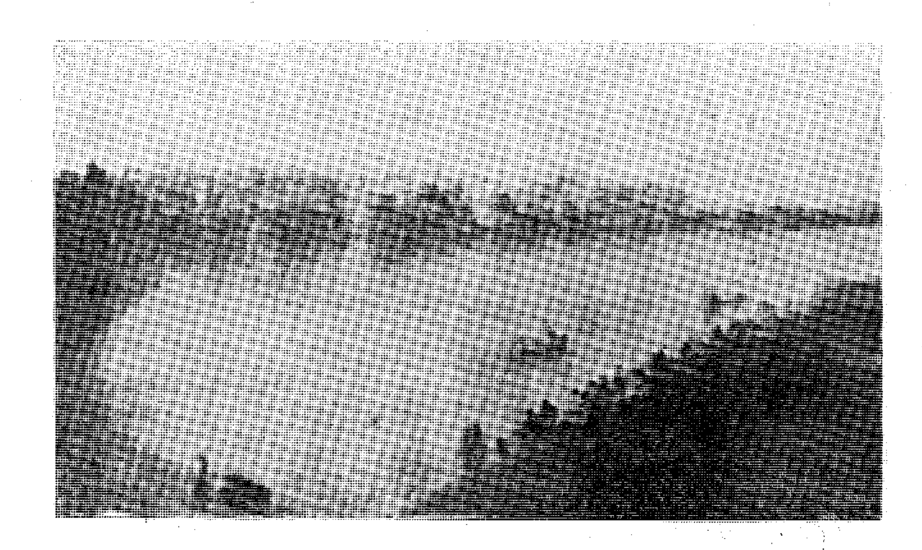
استرحنا فى الموصل إلى صباح الأحد وخرجنا منها إلى الشمال مزمعين أن نرى مدارس البلاد الشمالية ثم نرجع إلى مدارس الموصل : وغادرنا الموصل يوم الأربعاء .

الموصل مدينة كبيرة على شاطىء دجلة الغربى : بيوتها مبنية بالحجارة ، وهندستها تذكر رائيها بحلب ودمشق ، وهى كثيرة السكان ، عظيمة الأسواق ، كان لها شأن عظيم فى التجارة لأنها كانت كما يقول ياقوت ، باب العراق ومفتاح خراسان ؛ ومنها يقصد إلى أذربيجان ، ولا تزال ذات شأن تجارى عظيم ، ولا أريد أن أتحدث عن تاريخها أو وصفها فحسبى أن أذكر طرفاً مما شهدت فيها ،

من أعظم مشاهدها الجامع الكبير الذى بناه الرجل الكبير نور الدين محمود بن زنكى المتوفى سنة ٥٦٩ وهو الرجل المجاهد العادل التقى المحدث الذى شيد كثيراً من المدارس والمساجد فى أقطار الإسلام ، للجامع صحن واسع ، وإيوان طوله ستة عقود كبيرة وعرضه ثلاثة ، وإلى يمين الإيوان مصلى النساء .

ومنارته عجيبة تسمى الحدباء لميل فيها يظهر للرائى وعلوها ٦٥ متراً (وهى المنارة التى فخر الأخ الأستاذ زكى مبارك إذ صعدها بعد أن قيل له إننى أحجمت عنها خوفاً . عفا الله عنه)

ومشينا فى المدينة حتى خرجنا من بابها الغربى القديم ؛ باب سنجار ، فرأينا مزاراً لقضيب البان أحد الصوفية المتوفى سنة ١١٢٣ هـ ، ثم مررنا بقبة صغيرة على بقعة ضيقة ذرعها ثلاث خطوات فى ثلاث وبابها مسدود بالطين ، فهل تدرى على أى ضريح قامت هذه القبة ؟ إن تحت هذه القبة ستة قرون من تاريخ الإسلام ! لقد قرأنا على حجر فوق الباب ، «عزالدين



أحد مناظره الموصل على دجله

أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن ... الجزري المعروف بابن الأثير » فعرفنا أنه المؤرخ الكبير صاحب التاريخ الكامل .

ورأينا آثار قلعة كبيرة مطلة على دجلة وآثاراً أخرى وجامعاً كبيراً يسمى جامع النبي جرجيس ، وبه خزانة يُزعم أن بها شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم .

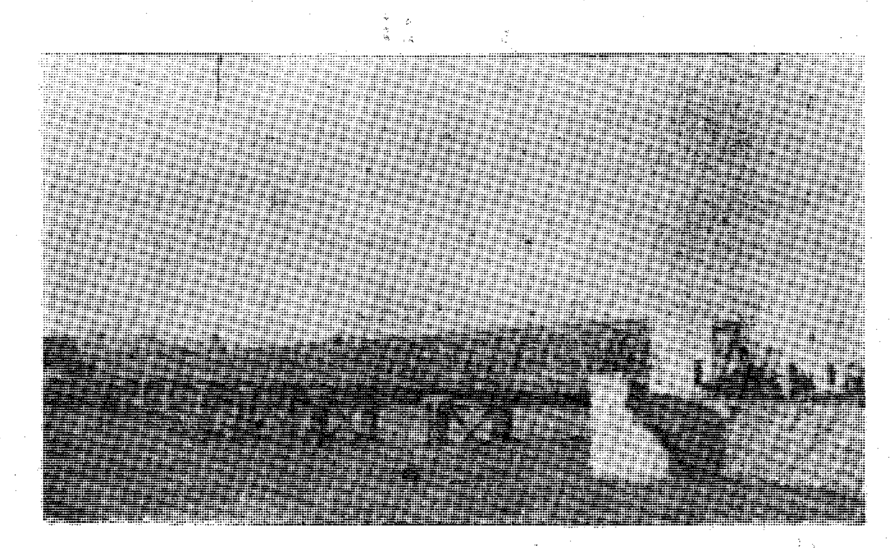
وذهبنا ضحى يوم الخميس لزيارة قبر حبيب بن أوس الطائي ، فاذا جدار قصير مثمن الجوانب فوقه سياج من حديد ووسطه شجرة . قيل هنا رُفات أبي تمام . وكان قبره على شاطىء دجلة فخيف أن يجرفه الماء فنقل ولله وقفة على قبر أبي تمام ! ماذا توحي من الشعر !

ودعينا إلى نادي الجزيرة وهو ناد جميل وسط حديقة كبيرة مطل على دجلة شرقيها . وكان هنالك جمع من كرام أهل الموصل فتكلمت فيهم وكان مما قلت : إن في هذه المدينة العظيمة ثلاث مفاخر : ضريح ابن الأثير يذكركم بتاريخ الإسلام ، وجامع نور الدين يذكركم بعدل المسلمين وجهادهم ، وضريح أبي تمام يوحي إليكم الشعر الخالد . وما أجمل أن تؤسسوا نادياً تسمونه نادي أبي تمام تجعلونه ملتقى الأدباء ومجتمع الإخوان ، وتتخذون شعاره قول الشاعر الكبير لعلي بن الجهم :

إن يُكد مُطرف الإخاء فإننا   نغدو ونسري في إخاء تالد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا   عذب تحدّر من غمام واحد

أو يفترق نسبٌ يؤلفُ بيننا   أدب أقمناه مقام الوالد



جسر الموصل الحديد

وقد أرسل إلى أعضاء نادى الجزيرة بعد رجوعى إلى بغداد أنهم أسسوا دار كتب باسم أبى تمام .

نينـــــوى

ثم عبرنا دجلة إلى أطلال نينوى . وكانت دار ملك الآشوريين حتى زالت دولتهم ، حين أغار عليها البابليون والميديون وحصروها زمناً طويلا. فلما يئس ملكها من الثبات للعدو أوقد ناراً عظيمة وآثر أن يحترق فيها هو وأسرته على أن تناله يد عدوه ، وذلك سنة ٦٠٦ ق . م .

وأطلالُ نينوى اليوم أكداس عالية من التراب كشفت فى مواضع قليلة عن بعض الأبنية ولا تزال معظم أسرارها دفينة .

وعلى مقربة من أطلال نينوى مسجد يسمى مسجد النبى يونس ، وهو مسجد جميل عال يطل على نينوى ودجلة والموصل . ولم يُحجم واضعو الأحاديث عن اختراع حديث عن النبى صلوات الله عليه معناه أن من زار النبى يونس فكأنه قد زارنى . وقد ضمن الحديث شطراً من بيتين منقوشين على الباب « من زاره فكأنما قد زارنى »

جولة فى شمال العراق

بعد يوم من ورودنا الموصل خرجنا منها إلى البلاد الشمالية فطوفنا فيها ثلاثة أيام ثم رجعنا إلى الموصل .

فصلنا من المدينة والساعة اثنتان ونصف بعد ظهر الأحد نسير صوب الشمال شرق دجلة . وبعد مسيرة ساعتين تغير مرآى الأرض ، فضربنا في برية ذات وهاد ونجاد حتى بلغنا قرية اسمها:(ديرابون) ذات مياه وأشجار . فجاوزناها إلى قرية صغيرة على شاطىء دجلة اسمها (فش خابور) وقد سماها ياقوت فيشابور . فبلغناها والساعة ست ونصف مساء . فنزلنا عند رئيسها (عزيز أغا) . وهي قرية أهلها نصارى لهم كنيسة صغيرة على النهر أشرفنا منها على مجرى عميق سريع التيار تغرق فيه السفن كثيراً . وعلى مسافة يسيرة شمال القرية نُهير يفضي إلى دجلة يسمى (الخابور) . وليس هو الخابور الذي ذكر في أبيات أخت الوليد بن طريف :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً　　كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى　　ولا المال إلا من قنا وسيوف

والذي قال فيه بعض الشعراء :

رأت ناقتي ماء الفرات وطيبه　　أمر من الدقلى الذعاف وأمقرا

وحنت إلى الخابور لما رأت به　　صياح النبيط والسفين المقيرا

فقلت لها بعض الحنين فإني　　كوجدك إلا أنني كنت أصبرا

فذاك نهر يجري في الجزيرة ويصب في الفرات . وأما هذا الخابور الذي نزلنا بقربه فيصب في دجلة شرقيها واسمه في معجم البلدان خابور الحسنية.

وهذه القرية على مقربة من الحدود التركية والسورية .

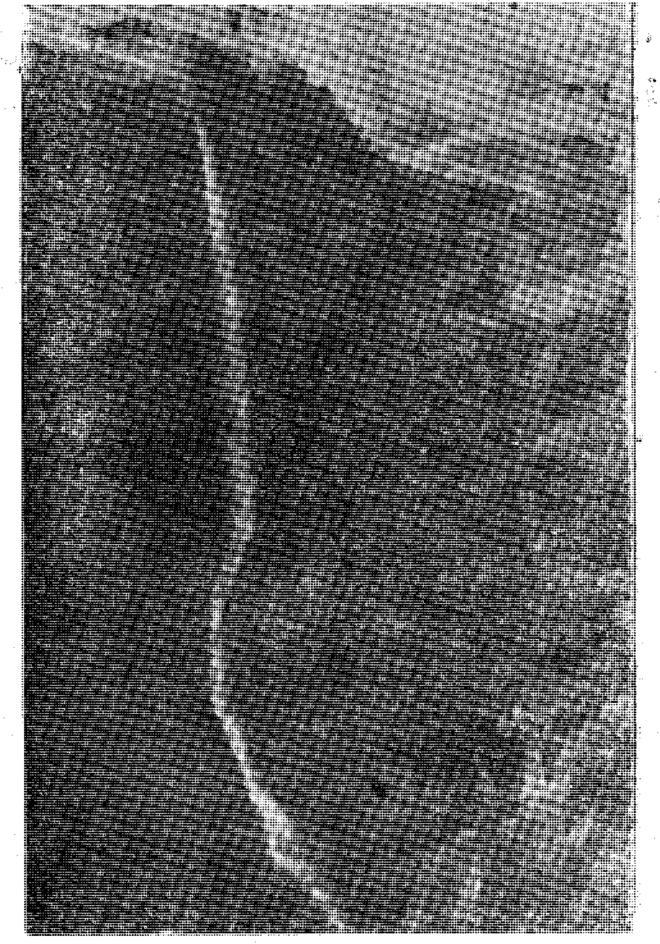
وخرجنا ضحى اليوم التالى فسرنا قليلا حتى بلغنا الخابور ؛ فسايرنا شاطئه صوب الشرق فى إقليم جبلى أخضر . كان على يسارنا نهر الخابور ووراءه جبل عال قيل لنا إنه جبل الجودىّ وما زلنا فى أرض ذات شجر ونجم حتى بلغنا زاخو . وهي مدينة صغيرة يشقها نهر الخابور . فنزلنا بها ورأينا مدارسهاومنها مكتبان لليهود ، وهم بها كثير . وزاخو جيدة الهواء والماء ، جميلة المناظر ، تحيط بها بساتين وجبال ذات أشجار . وسكانها نحو أربعة آلاف .

تركنا زاخو ظهراً سائرين تلقاء الجنوب . فمررنا بقرى نزلنا بها قليلا وانتهى بنا السير إلى دهوك . وهى مدينة فى إقليم جبلى كثير الغابات وأشجار الفاكهة . والمدينة على سفح يطل على نهر روبال .

ثم استأنفنا السير عصر اليوم نؤم العمادية . فما زلنا نسير فى جبال وأودية تشبه جبال لبنان فى روعة مناظرها وكثرة أشجارها وأعشابها ومياهها حتى انتهينا بعدسير ثلاث ساعات بين الصعود والهبوط إلى صولاف وهو موضع فى سفح جبل شاهق جدا ، وينصبّ منه شلال صغير إلى واد سحيق فيروع منظر الماء وصوته .

نزلنا فى ضيافة القائمقام ، وأخذنا حظنا من الراحة بعد سير طويل أنسانا مشقته تجدد المناظر واشتغال الفكر والعين بمرآى الجبال والأودية والأشجار النضيرة المتتابعة على السفوح فى جلالها وجمالها .

وفى الصباح أردنا الصعود إلى العمادية ؛ وهى بلدة أسمها عماد الدين



شلال ماء في شمال العراق

زنـكى عام ٥٣٧ . أين منا العمادية ؟ قرية قريب موقعها من الأرض ، بعيد مصعـدها فى السماء . قلعـة بنيت فى رأس جبل عال مستدير لا تسع قمته إلا المدينة ، فقد بنيت جدرانها على حافة مهاو مخيفة .

سرنا قليلا فى طريق مستو على حافة واد عميق حتى انتهينا إلى قاعدة الجبل الذى تقع عليه العمادية وقوع النسر . صعدنا قليلا ثم استعنا بالبغال فسارت خبيرة بمسالكها ومعارجها ومضايقها بين الصخور والمهاوى ، حتى بلغنا المدينة . وحسبنا أنا بلغنا السماء الدنيا فنظرنا فاذا جبل سر عمادية القريب منا ينيف هائلا فوقنا ، كما نشرف نحن على الأودية تحتنا ، وكأنه يهون عندنا ما بلغنا من لوح الجو ، ويستصغر عزائمنا التى قنعت بهذا المبلغ من الرقى فى السماء . وعلو هـذا الجبل من الوادى الذى فى حضيضه إلى القمة المشرفة عليه ١٨٠٠ متر .

رأينا مدرسة العمادية وأعجبنى قراءة الصبيان القرآن . وهم كرد ولـكنَّ عنايتهم بالقرآن ولغـة القرآن وقربهم من البلاد العربية ومخالطة إخوانهم العرب ، أمكنتهم فى حداثة السن من إجادة النطق بالعربية وإحسان تلاوة القرآن . وقد رأيت هذا فى مدارس كثيرة فى هذا الإقليم .

وفى العمادية مسجد قديم فيه بئر عميقة جدا يستقى منها الناس ، ومن صهاريج منقورة فى الحجر إذا حوصروا .

وقد قرأت على باب المسجد : « عز لمولانا السلطان الملك المعظم العادل المؤيد المظفر المنصور الملك الصالح ركن الدنيا والدين سلطان الإسـلام والمسلمين أمير أمراء الشرق والغرب أعز الله سلطانه » .

إلى دهوك فالموصل

هبطنا من العمادية وركبنا السيارة من صولاف ظهراً فررنا بقرى منها قرية سرسنك الأشورية ، ومنها قرية زاويته وهى على سفح جبل ركبنا إليها البغال نصف ساعة . ورأينا مدرستها وراقنا عمائم الصبيان هناك وفصاحتهم بالعربية وذكاؤهم . ثم زرنا مختار القرية (العمدة) واسمه محو (أى محمود) وله فى البطش والفتك بالأشوريين وغيرهم سيرة طويلة . وقد حدثنا أنه قتل زهاء تسعين رجلا فى عمره الطويل فقلنا : حرام عليك قال : ما فيهم من المسلمين إلا ستة أو سبعة .

ولما أخذنا نهبط من القرية سار أمامنا ثلاثة من التلاميذ النجباء أحدهم يلبس زى الكشافة . وقد سألتهم عن بعض الكلمات الكردية فلما آنسوا رغبتى فى معرفة الكردية نشطوا لتعليمى ؛ فكانوا كلما مروا بشئ فى الطريق قالوا : هذا بالعربية كذا وبالكردية كذا ، وأخذت عنهم خمساً وعشرين كلمة وكان درساً مفيداً على ظهر البغل . وإنى أذكر أسماء هؤلاء الثلاثة اعترافا بفضلهم على وهم : محمد سلم ، وطيب عبد الرحمن ، وعبد الرحمن طاهر ؛ أنجح الله أعمالهم ويسر لهم الصعاب فى مستقبلهم .

بلغنا دهوك بالمشى فبتنا بها فى دار الضيافة . وللحكومة فى حواضر الألوية والأقضية (المديريات والمراكز) دور للضيافة يأوى إليها موظفوها وضيوفها .

وذهبت إلى مسجد دهوك فشهدت صلاة العشاء . وإخواننا الكرد حريصون على إقامة الشعائر الدينية متمسكون بآداب الإسلام .

ثم لقيت الإمام وهو عالم فاضل اجتمع إليه نفر من طلاب العلم الدينى وعلوم العربية من الجهات أكثرهم كرد وقليل منهم العرب .

وقد حدثنا عن طلابه ومعيشتهم وعن العرب والأخوة الإسلامية حديثاً حسناً ممتعاً ؛ جزاه الله عن العلم والإسلام خيراً .

ثم عدنا إلى الموصل يوم الأربعاء سادس ربيع الأول (٢٧ مايو) والمسافة بين دهوك والموصل ٥١ ميلا .

من الموصل إلى سنجار

فى مضارب شمر

خرجنا من الموصل يوم الخميس سائرين شطر المغرب . نسير فى أرض الجزيرة المعروفة فى التاريخ الإسلامى والعربى جزيرة أقور التى كانت مسرح القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام وبها كانت مدينة الحضر ذات التاريخ العجيب .

رأينا فى طريقنا حقول القمح فى كل ناحية لا يبلغ البصر منتهاها ، أرض واسعة خصبة إذا أحسن ريها أغلت أضعاف ما تُغل اليوم .

وبعد ساعتين بلغنا تلعفر أو تل أعفر ، وهى بلدة قديمة على أربعة وأربعين ميلا من الموصل ، تقوم على أربع رُبى تنبع فى بعض أطرافها عين غزيرة تسقى الناس والزروع .

وقد ذكرها ياقوت باسم تل أعفر وقال : « هكذا تقول عامة الناس وأما خواصهم فيقولون تل يعفر ، وقيل إنما أصله التل الأعفر للونه »

وينسب إلى هذا البلد الشاعر المجيد شهاب الدين الشيبانى التلعفرى المتوفى بحماة سنة ٦٧٥ .

أرجأنا النزول بالبلد إلى العودة ، فسرنا طريقنا بعد أن وقفنا قليلا

لنعرف الطريق إلى شمر . وبعد ساعة لاحت مضارب شمر ، وكانت زيارة شمر فى مضاربها ، ولقاء الشيخ عجيل شيخ مشايخها ومفخرة مشايخ العرب إحدى منى النفس منذ قدمت العراق .

لقينا الشيخ مرحباً فحللنا بين أهلنا فى مضارب فيها ألوان الحضـارة لمن شاء ، وجمال البداوة لمن يريد .

إنما الدنيـــا أبو دلف بين مبداه إلى حضره ؛

ولـكنا قصدنا مضارب شمر فراراً من الحضارة واسترواحاً إلى البداوة .

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

أنسنا بحديث الشيخ وأولاده ، ورأينا تلاميذ مدرسته . وفى شمر مدارس تنتقل مع القبائل حيثما رحلت ، ويلبس مدرسوها لباس البادية ، ويدرسون فى خيام كبيرة جميلة ، وهى سنة حسنة تعاون عليها الشيخ عجيل ووزارة المعارف العراقية .

جلسنا لشرب الشاى وأخذ الشيخ فى أحاديث ممتعة . وقدما قال الراجز : «إن الحديث جانب من القرى». وأذكر من أحاديثه يومئذ حديث الطائرة . قال . ركبت طائرة مع طيار إنـكليزى ، فبينا نحلق فى الجو إذا نحن فى الأرض . سقطت الطائرة فى لمحة ونظرت فإذا الطيار قائم يصيح ويتكلم ، وقمت فى عافية . وأخذ الرجل إلى المستشفى ومات بعد أيام . »

وفى العشى رأينا قطيع الغنم آيباً من المرعى . وللغنم فى البرية منظر جميل فى غدوها ورواحها ، كما قال القرآن الـكريم فى الإبل :

« ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون » ورأيت أمام الغنم كبشاً فى عنقه جرس ، يهتدى به القطيع ، ويسمى المرياع ، وكأنه مأخوذ من راع يريع بمعنى رجع .

وكان من أحاديث الشيخ على العشاء :

رحلت شمر عن نجد منذ أجيال . ويقال إنهم لما أرادوا عبور الفرات إلى الجزيرة أرسلوا رائداً فرجع إليهم ومعه كثير من نباتها يشهد بخصبها فقالوا ما فعلت شيئاً . ثم أرسلوا آخر يتعرف لهم أحوال القبائل الضاربة فيها فإذا ابنة شيخهم قد ماتت وقد جلس الشيخ للعزاء وأقبل الناس يعزونه فرجع الرائد يبشر قومه بأن فى قبائل الجزيرة وهناً وخورا فقدقامت قيامتهم لوفاة امرأة .

ومما وعيته من الأحاديث العجيبة قال : غزا جماعة من شمر . فلما رجعوا مروا بحى من العرب فتفرقوا فى البيوت ضيوفاً . قال : وقصد واحد منهم بيتاً منفرداً فلم يجد به أحدا إلا صبية ليس عندها شئ تقرى به ضيفها . رآها الضيف تخرج وتدخل حائرة باكية . قال : ما خطبك ؟ قالت : لا أكذبك ، ليس عندى قرى لك . قال : أما عندك إناء فيه دهن أو سمن ؟ قالت : بلى إناء فيه بقية . قال هاته . فمسح بالدهن يديه وفمه وقال : الحمد لله . وجلس ريثما أكل رفقاؤه فى البيوت التى نزلوا بها ثم قام إليهم يثنى على أصحاب البيت ويتحدث عن جودهم ويزعم أنهم ذبحوا له شاة وقدموا إليه أرزا كثيراً وطعاما شهيا .

جاء رب البيت فأخبرته ابنته ، وسمع فى الحى حديث الرجل . فاشترى

بضاعة بثمن ما كان يقدم لضيفه من الشاة والأرز . وما زال يستثمر البضاعة حتى جمع مالا كثيراً فى سنين .

أخذ المال وذهب إلى حى ذلك الضيف الذى نزل عنده فلم يطعم فستر عليه ونث عنه أطيب الحديث .

قال : أتذكر إذ نزلت فى حى بنى فلان عام كذا .

قال : نعم .

— هل طعمت عندهم ؟

— نعم ! ذبحوا شاة وطبخوا أرزاً كثيراً وبالغوا فى إكرامى .

— اصدقنى .

— هو ما أقول .

— أنا رب البيت . وهذا ثمن طعامك ربيته لك حتى بلغ هذا المبلغ ، وأراه مالا كثيراً .

— لا آخذه .

— أقسم لتأخذنه .

— ياصاح ليس هذا حقى . لو أكلت عندك ما أكلت الشاة كلها ولا الأرز كله . فإنما نصيبى فيه الثلث على الأكثر .

— لتأخذنه كله .

— لست بآخذه كله .

فاصطلحا على المناصفة .

ومن طريف ما حدث فى مدرسة شمر : قرأ صبى فى كتاب فسألته : ما معنى مرعد ومبرق . قال : يعنى يرعد ويبرق . البرق الضوء وقت الغيم ، والرعد صوت طق طق مثل الترمبيل . وسألت آخر : ما الغصن ؟ قال : شرخ من الشجرة . وسألت آخر : هل رأيت الثعلب؟ قال : شايفهووا كله ، وسألت الصبيان هل يصلون فقال أحدهم : كلما أصلى أسخن .

يتمثل الذكاء والفصاحة والصدق فى هؤلاء الأطفال .

ورأيت حواراً يسقى اللبن (واللبن فى العراق يقال للبن المخيض) قلت : ماله ؟ قيل : ماتت أمه . فأطفنا بالحوار نتحدث عن الإبل وأسنانها قال صاحب الحوار : هو حوار ثم مخلول ثم مفرود ثم جذع ثم ثنى ثم رباع ثم خماس ثم عود . وكذلك عرفت من أسماء الهوادج وحبال الخيام كثيرا .

وقد رويت عن الشيخ صفوق بن الشيخ عجيل كثيراً من شعر البادية فى وصف الخيل وغيرها . وعنده كتاب كبير يتضمن شعراً كثيراً فى حوادث ومسائل شتى . ولولا أن هذا الشعر يحتاج إلى أن يسمع ليصح النطق به لأثبت بعضه هنا .

سنجار

برحنا مضارب شمر إلى سنجار عصر يوم الجمعة فررنا بقرية اسمها عين الغزال . وبلغنا سنجار قبيل الغروب وبين سنجار والموصل ٨٤ ميلا .

أبدأ بالحديث عن سنجار بخرافة مضحكة ذكرها ياقوت . يقال إن سفينة

نوح لما قرت بجبل سنجار نطحته فقال نوح : هذا سن جبل جار علينا فسميت سنجار . وفى رواية أخرى أن السفينة حين نطحت الجبل استبشر نوح وعلم أن الماء شرع ينضب ، فسأل عن الجبل فأخبر به فقال : ليكن هذا الجبل مباركا كثير الشجر والماء؛ والخرافة تدل على افتخار أهل البلد بعلو جبلهم .

والبلدة على جبل عال . وهي قسمان : قسم على الجبل يسكنه اليزيدية وجماعة من المسلمين ، والقسم الثانى على السفح ويسكنه أخلاط من أرباب الأديان . ويفصل بين القسمين مجرى ماء ينحدر من ينابيع فوق الجبل يستقى منه الناس ويسقون بساتينهم ، ثم يفضى إلى وادى الثرثار فيجرى إلى بلاد أخرى ، وقد رأيت النساء ينقلن الماء فى قرب صغيرة يحملنها على ظهورهن .

وهواء سنجار بارد أضر بنا بردها فى شهر أيار (مايو) ومناظرها جميلة ويتبع سنجار أكثر من خمسين قرية .

وفى سنجار ٢٥٠٠ من المسلمين و ٧٠٠ من اليزيدية والنصارى وهم فرق كثيرة .

وذكرت سنجار فى التاريخ والشعر كثيراً ونسب إليها كثير من العلماء والأدباء . ويقال إن سنجارا بلد أشورى قديم عرف قبل ستة آلاف سنة .

ومن حوادثها وهى كثيرة ، أن اليزيديين اعتصموا بها سنة ١٨٠٧ فحاربتهم الحكومة العثمانية حتى أذلتهم .

أمضينا فى سنجار ليلة سعيدة ورأينا مدارسها صباح السبت ثم خرجنا منها ظهراً إلى بلد اسمه جدالة من قرى اليزيديين بينه وبين سنجار مسيرة

نصف ساعة . رأينا مدرسة لليزيديين صغيرة . وهذا حدث فى تاريخهم عظيم ، فالمعروف عنهم أنهم يحرمون القراءة والكتابة ، وكان معلم المدرسة عبد الكريم منهم وهو ابن إسماعيل بك أحد رؤسائهم . و بعد زيارة المدرسة ذهبنا إلى دار للضيافة اجتمع فيه اليزيديون مرحبين بضيوفهم ، و بعد قليل استأذنا في المسير وأخذنا صورة لبعض بنات القرية ولتلاميذ المدرسة وانصرفنا .

وذهبنا إلى مضرب آخر من مضارب شمر فنزلنا فى خيمة كبيرة ريثما سلمنا على القوم وتحدثنا معهم وشربنا القهوة ثم ذهبنا إلى مدرسة كالتى رأيناها من قبل فى مضارب الشيخ عجيل .

ثم أخذنا طريقنا إلى مضارب شمر الأولى فبتنا فى ضيافة الشيخ عجيل مرة أخرى ، وأمضينا شطراً من نهار الأحد هناك .

ثم ودعنا الشيخ وأنجاله النجباء شاكرين نود أن تتاح لنا الفرصة للإقامة أياماً أو العودة بعد قليل. وقد قلت للشيخ حين الوداع : نراك إن شاء الله فى شمر أو بغداد أو القاهرة . فقال فى كلهن إن شاء الله. وقد نعمت بلقائه فى القاهرة الشتاء الماضى ، وأسأل الله أن يسرنا بلقائه فى بغداد وشمر أيضاً . (١)

ويوم الأحد عدنا إلى الموصل لنبيت بها استجماماً للسفر إلى بغداد .

---

(١) لقيته مرة أخرى فى بغداد سنة ١٩٣٩ حينما ذهبت إليها لتأبين الملك غازى رحمه الله . ثم توفى أثناء الحرب فحزن عليه كل من يعرفه أوسع الله له فى رحمته .

بين القاهرة واستنبول

١ – دمشق

ياصديقى صاحب الرسالة :

أحسبك رأيت من قبل دمشق فآنقك مرآها ؛ ونفحتك رياها ، وآنستك ذكراها ، ودارت بك منازهها وطرقها بين الماضى المجيد ، والحاضر المجهود ؛ والمستقبل المنشود ، ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل تحيط به الحدائق الشجراء متصلة بين المزة والغوطة فسرحت الطرف والقلب فى مرآى جميل ومنظر بهيج . ولا ريب رأيت بردى يتبطن الوادى ، ويتسنم الجبل ، ويتسرب فى شرايين المدينة فيسرى فى دورها ومساجدها وحماماتها وشوارعها ، وتسمع أحيانا خريره فى جوف قناة أو جدار لاتتبين مأتاه ومذهبه ، ومن قبل قال ياقوت :

« فقل أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه فى أنبوب إلى حوض يشرب منه ، ويستقى الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجرى فى بركة فى صحن هذا المكان ، ويسح فى ميضته »

وأحسبك ياأخى مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع ، أو طرحت – كما يقول البحترى – ثقلا من الدموع .

دخلت إلى الجامع الأموى من باب جيرون ورأيت فى الطريق المفضية إلى الباب صفا من العمد العادية ، وتمثلت القرون تنسخ القرون ، والعصور تحطم العصور ، وولجت الباب العظيم إلى الصحن الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت صور الدور والأشجار والأنهار مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد . ثم ملت إلى اليمين فدخلت الجـامع تروعك العمد العالية الضخمة تمتـد فى صفوف مديدة ، ورأيت أمام القبلة قبة النسر الشامخة تزهى بما أشرفت على التوحيد فى محرابه ، وأظلت الحق فى جماله وجلاله ؟.

وما أحسبك رقيت فى المنـارة الشرقية ، وشهدت فى مرتقاك حجرة يقال إن الغزالى كان يعتكف فيها ، ثم بلغت القمة بعد جهد فجمعت أمامك المدينـة ، وزويت الأرض كأنك تطالع منها صورة فى رقعة فقلت كما قلت

صمدت فى قمـة التاريخ مئذنة   لها من الحق والتاريخ أحجار

فاذا تركت الجـامع الـكبير فهناك مشاهد أخرى عظيمة ، وذكريات جليلة .

— هل مررت بالرجـل الصـالح نور الدين محمود ثم البطل المجاهد صلاح الدين يوسف ؟ هل وقفت على ابن أيوب فقلت كما قلت

فيالك قـبراً على قـربه   تظل العقول به فى سفر

ويالك قبراً كمين البصــــير يحوى العوالم منها صغر

وهناك المدرسة العادلية وبها المجمع العلمى اليوم ؛ والمدرسة الظاهرية حيث ضريح الملك الظـاهر بيبرس وبهـا دار الـكتب ودار الحديث

الأشرفية وكان من نزالها العالم التقى الذى لم تأخذه فى الحق رغبة ولا رهبة محيي الدين النواوى ، ولا تزال حجرته بها معروفة ، ويقول بعض المحدثين ولعله ابن حجر :

وفى دار الحديث لطيف معنى   أطوف حول مغناه وآوى
لعلى أن أصيب بحر وجهى   مكاناً مسه قدم النواوى

وهل صعدت فى الصالحية إلى ضريح محيي الدين بن عربى أم نفرت من هذا الشيخ الغريب واللغز العجيب ! على أن بجانبه بطلا من أبطال الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد : الأمير عبد القادر الجزائرى . وإن أردت مزار الرجل العالم الصالح الصوفى الشاعر ذى المناقب الحميدة وصاحب التأليفات الكثيرة الشيخ عبد الغنى النابلسى فليس بعيداً من ضريح محيي الدين تسلك إليه طريقاً مفغرة بها مدارس دارسة، منها المدرسة العمرية.

فإذا صعدت فى الصالحية فهناك من الآثار مايشق تعداده : مدارس ومساجد ومستشفيات . وهناك جامع الحنابلة الذى قرأ به الذهبي وابن قدامة وغيرهما من كبار العلماء ، والمدرسة الضيائية وكانت تحفظ بها خطوط كبار المحدثين وهى اليوم كتاب ، حتى ينتهى الصعود إلى مقبرة الصالحية حيث قبر محمد بن مالك النحوى فى قبور كثيرة للعلماء والكبراء .

وفى أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فمن بعدهم . ولا تنس وقفة على قبر بلال فى مقبرة الباب الصغير لترى الأذان مضمراً فى كتابه ، وتسمع الصوت مكنوناً فى نايه ، بل تسمعه جهيراً مدوياً يملأ الفضاء، ويبلغ

عنان السماء « كالخط يملأ مسمعي من أبصرا » أو كإشارات الموسيقى، خطوط فى البصر، ونغمات فى الأذن، ووجد فى القلب . وهل الأذان فى المشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً بقى فى القبة الزرقاء صدى ؛ توالت رواته، واتصلت نغماته ؟

• • •

وهل جلت فى الغوطة تحنو عليك أشجارها، وتترقرق عليك ظلالها، وتطالعك من بين الغصون شمسها، وتتمادى بك مسالكها بين الزروع والأشجار :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها   فلى بجنوب الغوطتين شجون

وهناك ضريح سعد بن عبادة قد اعتزل الناس فى مماته، كما اعتزلهم فى آخر حياته .

وهل سرت إلى دوما ومررت بجوبر فذكرت قول القائل :

إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه   بزراعة الضحاك شرق جوبرا

أو قول الأمير شكيب أرسلان فى الصديق الأديب الشاعر خليل مردم « وإليه تجبى جوبر وكنيسها »

• • •

ياأخى وكيف تجيش الفكر وتنبع الذكر حين يقترب المسافر من المدينة الخالدة فيلقى نضارتها ويجد روحها عند الهامة، فإذا أجاز إلى دمر

فهناك بردى عن اليمين والشمال متدفقاً فى ظلال الأشجار ، أشجار الحور الباسقات . ولله مجلس على بردى تذوب فى مائه النظرات ، وتتساقط عليه من الحور نغمات . فإذا بلغت الشاذروان فعمك عرف دمشق وشممت أخلاطاً من اروائح الطيبة أمدت بها الأشجار والأعشاب ، روائح يعجز عنها الوصف إلا أن يسميها « نفحات دمشق » . وهل جلست بالربوة فسمعت المعجبين بها يقولون : إنها الربوة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » هناك بردى سبعة أنهر تجرى فى الوادى وعلى الصدفين وفوق الجبل ، وبخر من نهر يزيد — وهو فوق الجبل لايرى — شلال على الربوة لايعلى الشاهد مرآه ومسمعه .

أما أنا ياأخى فلست أمل التردد بين دمشق ودمر ، أجد هناك جمالا لايحد ، وسحراً لاينفد ، وقد ردت هذه المشاهد مرات ، ورأيت لها فى القمراء آيات ، يتمعج بنا الوادى بين الجبال والأشجار ، ومياه بردى تسيل بها ربوة ، أو يوسوس بها ثمب ، أو يتغنى بها بستان ، فلا تفتأ تسمع منه حديثاً يؤلف مع حفيف الريح موسيقى هذا الجمال الفتان ؛ والوادى يدور بنا دوراته ، والقمر يلاعبنا بطلعاته، عن اليمين والشمال ، وأمام وخلف ، وللقلب بين ذلك مضطرب ، وللشعر مذهب أى مذهب . كان يخيل إلى أن هذه المياه الثرثارة حزم من أشعة القمر ، أو أن أشعة القمر رشاش من بردى ، وأن هذا النسيم المعطر مزيج من الماء والضياء ينضح وجوه

السابلة . شعر تفيض به الأرض والسماء ، وسحر ينفثه الماء والهواء ، وإلهام يفيض به الجنان ، ويعجز عنه البيان .

ياصديق قد صدق البحترى إذ قال :

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا

يمسى السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبت فى صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلا أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا

دمشق

هذى دمشق فخل القلب يمتار طالت على القلب أشواق وأسفار

كم ماطلتك بها الأيام أمنية لها على الدهر إعلان وإسرار

حط الرحال فهذا جهرة بردى وذى دمشق . هناك الأهل والدار

لاتمهلنى فما الأيام مسعدة لاتخدعنى فصرف الدهر غدار

دعنى أؤلف آمالا مشتتة وأسمع القلب . ملء القلب أسرار

دعنى أزود قلبى ملء منيته ففى فؤادى أسفار وأخطار

. . .

وردت جلق ملتاعاً ومغتبطاً تطغى بنفسى آمال وأفكار

دمشق مجتمع الأعصار قدزخرت فيها كما اندفقت فى البحر أنهار

خطت أمامى سراعا فوق رقعتها من الوقائع أسطار فأسطار

فكل رجل على التاريخ سائرة وكل طرف إلى التاريخ نظار

وللأذان دوى فوق أربعها ... وللأذان ببطن الأرض إسرار
يذيع قبر بلال (١) فى مآذنها ... صوتاً له من وراء الغيب تسيار
كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت ... منه الخمائل ، وهو الدهر ثرار

***

ذهبت للمسجد المعمور (٢) أسأله ... وقد تدل على الأعيان آثار
رأيت فيه خلال القوم ماثلة ... وللبناء من البانين أقدار
علوت فى قمة التاريخ مئذنة (٣) ... لها من الحق والتاريخ أحجار
تطوف حولى خطوب الدهر فى صخب ... وتزحم العين دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته ... ذل الزمان ، وفيه المجد خطار
دانت لهيبته الأهوال واجتمعت ... فى همة العرب أقطار وأمصار
كأن ما بين سيحون وقرطبة ... على الخريطة أفتار وأشبار

***

أحييت دمشق رميم الشعر فى خلدى ... لا غرو أن تبعث الأشعار أشعار
وقفت فيها أسيم الطرف فى فتن ... من الجمال عليها الطرف سيار
كلا فؤادى وطرفى فوق بهجتها ... بين الحضيض و بين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها ... ورب أخضر منه تقدح النار
واها لقلبى إن يبد الجمال له ... سطراً تبدت من الآلام أسفار

---

(١) بلال بن رباح مؤذن رسول الله . وقبره فى دمشق.
(٢) جامع بنى أمية بدمشق .
(٣) مئذنة الجامع الأموى الغربية صعدت فيها مع بعض الأصحاب.

خافى المطامع طماح المنى عرم   على الشدائد والسراء ثوار

* * *

وقاسيون على الجنات مطلع   بين الرياض و بين الشهب نظار
عارى المناكب بالشجراء متزر   ثبتُ الجنان على الأحداث، جبار
نسر يرى اللوح منه هامة عطلا   لكنه ذنبَ الطاووس جرّار
والصالحية حيا الله ساكنها   وحى فى سعدها دار وديار
شجا فؤادى عفاء فى مدارسها (١)   والدهر بالناس دولات وأدوار
يا دار هذا زمان السعد فابتسمى   لا فاتكِ السعد بعد اليوم يا دار

* * *

وقفت بالغوطة الخضراء أنشدها   قلباً أضلته أفياء وأشجار
هفا كما انطلق العصفور من قفص   دعته فى الروض أطيار وأزهار
قالت : رأيت دمشقاً فى مفاتنها   فكيف ينجو فؤاد فيك شعار ؟
فسل دمشق ؛ هناك الروض مزدهر   والجو مبتسم والحسن سحار
قالت دمشق : وما عندى به خبر   سائل بدُمّر لا يخدعك إنكار
يا دمر الحسن ! قلبى فيك مرتهن   لا تجحديه فما يجديك إصرار
ردى فؤادى ففى دهرى له عدة   وفى فؤادى لأرض العرب أوطار
فقد وردتك يوماً فى حمى نفر   من الغطاريف فيهم يأمن الجار
كأنما كل حر فى عزيمته   نجم يضىء على الأهوال سيار
وكان مجلسنا أيكا على بردَى   تجاوبت فيه أفنان وأطيار

---

(١) فى الصالحية مدارس إسلامية قديمة خربة .

نزجى الأحاديث من شكوى ومن ألم ومن أمان ذوت فيهن أعمار
نبنى على أسس التاريخ آتينا وللمعالى من التاريخ أسوار
وننشد المجد تدعوه عزائمنا والمجد مصغ إذا ناداه أحرار
إنى أرى المجد قد أضفى أشعته وأشرقت فيه دولات وأعصار
أبصرت فى الظلمات الشمس طالعة لما تراءى لنجم الصبح إسفار

٢ — من دمشق إلى القسطنطينية

يا صديق الزيات :

لعل رسالتى التى حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك . وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ما وعت النفس من مشاهد الطريق بين دمشق والقسطنطينية . وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد :

ترددت برهة كيف آخذ طريقى من دار الأمويين إلى دار العثمانيين . أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر ، أم أخترق اليبس إلى غايتى ؟ وكنت ركبت السفينة بين الإسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً . فقلت لنفسى : ما ذا تفيدين من رؤية ما رأيت ، وحافظ الشيرازى يقول :

من جرّب المجرّب حلت به الندامه

وماذا تجدى عليك رؤية الدأماء صباح مساء ؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة ، كأنها ساعات العمر فى بحر الزمان !.

صح العزم على سفر البر . فخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى (٢٧ تموز) فى سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لتبلغ المسافرين حمص فيركبوا منها سكة الحديد إلى حلب . وقد ابتليت برفقة ليس بينى و بينهم سبب . فأرحت لسانى وأذنى ، وسرّحت طرفى فى الفضاء ، وفكرى فى مسارح لا تحد بين الماضى والحاضر ، والقريب والبعيد . وكان للسيارة سواق ذكرنا بقول القائل: « قد لفّها الليل بسواق حُطم ».فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء فى جوف السيارة يشتعل ، فيقف ريثما يهدأ الغليان . والطريق أكثرها صحراء جرداء تسايرها جبال وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه،ولا سيما قرب حمص . ولم نقف على الطريق إلا فى النبْك ، ولبثنا به قليلا .

هذه حمص بعد سبع سنين ولاتَ حين تلبّث . إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد . فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق . فتقضى حق العين والفؤاد من هذه المشاهد .

بعد قليل جاءت من طرابلس عربة كعربة ديزل المعروفة فى مصر ، وتسمى فى الشام باسمها الفرنسى : « أوتومُتريس » . أخذتُ مكانى بها وانطلقت سريعة تطوى ما بين حمص وحلب ، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً . وفى الطريق لاحت حماة فى زينات من شجرها ومائها ،

ونغمات نواعيرها منثورةً فى السهل تدور بالماء ، والماء بها يدور ؛ لا تفتر نهاراً ولا ليلا . وتذكرت قول القائل :

ناعورة مذعـورة   للبين حيرى سائره
المـاء فوق كتفها   وهى عليـه دائره

وتذكرت أنى حين قرأت هذين البيتين فى المدرسة ظننت الناعورة هى : الساقية بلسان أهل مصر . ثم عرفت فرقَ ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة . ومن رأى نواعير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواعير الشام الماثلة فى الفضاء على نهر العاصى عالية رائعة .

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء . فقصدت إلى فندق بارون ؛ اضطرنى إليه ، على نفرتى من هذه الأسماء فى البلاد العربية ، أنى أُنزِلت به مرة ، ولم أعرف من فنادق حلب غيره . قضيت به بقية الليل . وأصبحت مبكراً إلى القطار ، قطار الشرق السريع . لم أر فى حلب شيئاً ، ولم ألاق بها صديقاً . وسأعود إلى حديث حلب وحمص فى رجوعى إلى الشام إن شاء الله .

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية : « قطار الشرق السريع » . وسألت أحد عمال القطار عن عربات النوم. فقال لصاحب له بالتركية : « دلّه عليها » . فقلت : هذا أول العُجمة وطلائع الغُربة .

أخذت مكانى بالقطار موطّناً النفس على السفر ستا وثلاثين ساعة ،

ورفيق فكرى وخيالى وديوان البحترى .

سار القطار والساعة سبع من الصباح ، وكان شريكى فى المقصورة إنكليزيا ذاهباً من العراق إلى بلده فى إجازة قصيرة ؛ ولكنى وجدت عن ملازمته ميلا ومندوحة فى مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبي البحترى ونعم الصاحب أبو عبادة؛ على أنى لم أذمم من الإنكليزى الشيخ صحبة . وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه ، أجده جالساً بين عدة السفر من : البيبة والسجاير والكتب . ولست أنسى رثائى له حينما أضلّ منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه . ثم جلس كئيباً يقول : إنى لا أستطيع القراءة بدونه ، وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة ؟ إنه منظار ثمين ؛ إنه يلائم عينىّ . ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة . و ييأس ، فأعيدُ الأمل فى نفسه ، فيعود يبحث عنه وأبحث معه . وجاء الخادم يقول : لعلها فى حقيبتك . ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورق وقال للخادم بالإنكليزية — وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة — : أنظر ! أتجدها هنا ؟ أأنت على يقين أنها ليست هنا ؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا ؟ ثم رجعتُ إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور . فلما رآنى وثب يرينى كيف انزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده . فشاركته السرورَ وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين .

و بعد ساعتين من حلب دخلنا إقليما جبليا شجيراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبةً على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود

بين سورية وتركية ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطار زهاء نصف ساعة . وجاء موظف تركى فسأل : من أين ؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين ؟ قلت : استانبول . قال : أمعك أشياء للجمرك ؟ قلت لا . قال : كم معك من النقود التركية ؟ قلت : قليل لا يتجاوز كذا . قال : مع السلامة .

وبلغنا ، والساعة ثلاث ونصف ، محطة اسمها مصيص . قلت لنفسى : هذه ولا ريب المصيصة التى كانت ثغراً بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم زمناً طويلا . هنا نهر جيحان ، وهنا مغازى سيف الدولة ، وفى هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبى ما نظم من قصائده . أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

ومن قبل قال عدى بن الرقاع العاملى :

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا دلوك وأشراف الجبال القواهر

وجيحان ، جيحان الملوك وآلس وحزن خزازى والشعوب القواسر

أجل ! وهنا أطراف العواصم التى يفيض بذكرها التاريخ والشعر العربى .

وسرنا بعد المصيصة ثلاثين كيلا شطر الغرب . فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ، ووافينا أذنة (١) والساعة أربع . ندع حديث أذنة وما يليها إلى العودة ، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافى جبال طوروس ، وما أعظمها منظراً جميلا رائعاً هائلا : سفوح مخضرة يصعد فيها الطرف حتى يبلغ قمماً

(١) يسميها الترك الآن أطنة .

شاهقة تكاد العين تقصر دونها . وقمم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها انزلق على السفح ليرقى فى سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسف النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها ويروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى محاجرها : وتتوالى مرائى طوروس فى جمالها وجلالها واختلاف ألوانها ، وارتفاعها واستفالها ، وما يشغل العين والفكر من صورها والقطار على السفح موف على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلا وينبهر أحيانا فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على المرتقى . فإذا أعد العدة من مائه وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهودا . وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشر الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر فى ظلامه يلتهم القطار .

ومن بدائع الجناس أو المقابلة فى هذا الجمال البديع أذواد من الإبل فى أودية طوروس ، لم تذهب بجمالها ورواثها مناظر الجبال العظيمة ، وأما سرب المعزى الذى رأيته هناك فلا أدرى من أى أنواع البديع مرآه هناك .

وتوالت ذكر الآل والأصحاب فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتك إذ طوروس فى اللوح مصعد — يظل بأهداب السحاب يعم

يطير بى الإعجاب بين سفوحه — وهاماته والقلب فيـه مقسـ

ويفزع من وديانه كل ناظر — ويرتاب فيه الطرف كيف يـ

جمال ترود العين بين رياضه — عليـه جلال بالمهابة مـ

فأيقنت أن ذكراك أروع مشهدا ... وأجمل من طوروس عندى وأعظم

وانتهى بنا الإصعاد إلى مكان اسمه أولو قشلة . وهو أعلى موضع في طريق طوروس . وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من أنقرة ، والآتية من قونية .

وجن الليل وبات القطار يسرى فأصبحنا عند أنقرة والساعة سبع من الصباح : وأستأذنك يا صديقى أن أطوى المسافة بين أنقرة واستنبول والحديث عنها إلى العودة فقد كان نصيبي من هذه الديار في عودتى أوفر ، وأنسى بها أطول ، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة المسهبة . فسلام عليك إلى أن أكتب إليك .

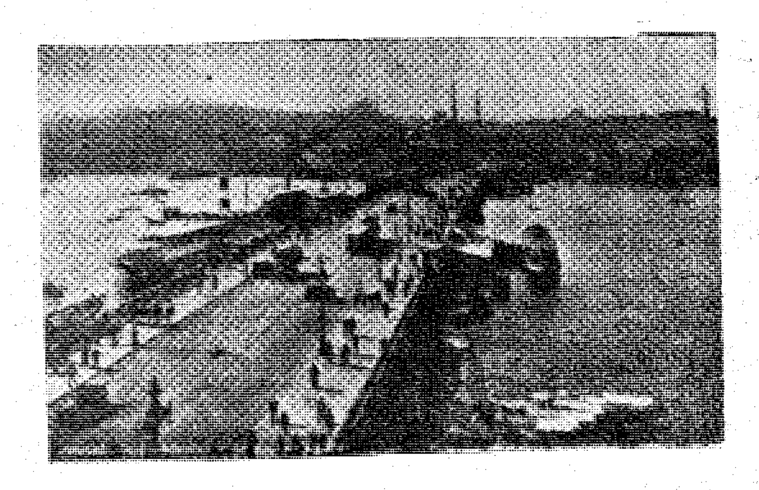
٣ — المتحف العسكرى

يا أخى صاحب الرسالة :

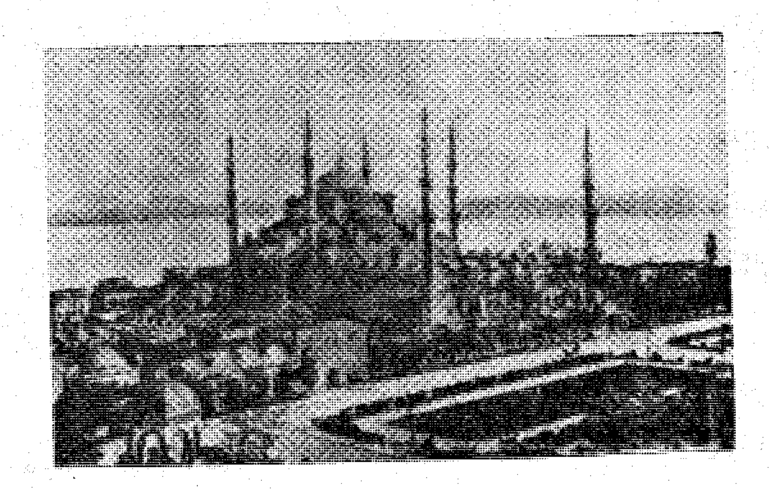
سلام عليك . لا أقول : هذه ثالثة الرسائل ، خيفة أن تقول في نفسك « ثالثة الأثافى » بل أقول : هذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت .

خرجت من مسكنى فى تقسيم أؤم المتحف العسكرى ومعى زميلى الدكتور زيادة ، فلما أجزنا الجسر — جسر غلطة (١) شرعت السماء تردنا

(١) جسر يصل جانبى المدينة : استنبول وغلطة ، وهذه التسمية لجانبى المدينة ... وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر فى مدخل خليج القرن الذهبى وهو جسر ... عائم ترفعه عائمات ضخمة بجانبها عائمات أخرى اتخذت طريقاً ومراسى للبواخر ... ومطاعم ومجالس للمسافرين .



جسر غلطة



منظر لجامع السلطان أحمد

حتى إذا بلغنا ساحة أيا صوفيه وملنا شطر قصر « طوب قبو » انهمر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتد على جانبه سور عال كأسوار القلاع ؛ أوينا إليه مع من ألجأهم المطر ، وازداد المطر انهياراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان أحمد فى جمال هندسته وحسن نقشه ، وحلى من الخط والمعنى تتحلى بها أبيات من الشعر أطافت به ، وإلى اليمين جامع أيا صوفيا يبدو جانب من قبته ، ومئذنتان من مآذنه الأربع ؛ وأمامى على بعد جامع السلطان أحمد فى جلال قبابه وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الست أهلة ذهبية يزيدها المطر اشتعالا ، وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سدف الدجن أو شآبيب المطر : وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول فى رأيى ، وأكثرها إضاءة فى قلب الداخل وعينه ، ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرآى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الهائلة قلت : « يالك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! » .

خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكرى فإذا هو مقفل إلى الظهر فأوينا إلى باب « الضر بخانة » ، ولما أذن المطر بالمسير انصرفنا نسير فى أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو فى كنيسة قديمة اسمها سنت أرينا رصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت فى عصور مختلفة . فيها مدفع كبير

بجانبه قذائف مكورة من الحجر قد نقش عليها بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ . وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ، وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية هي بعض ما ألقاه الأسطول الإنكليزى على الجيوش العثمانية حينما سدت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها .

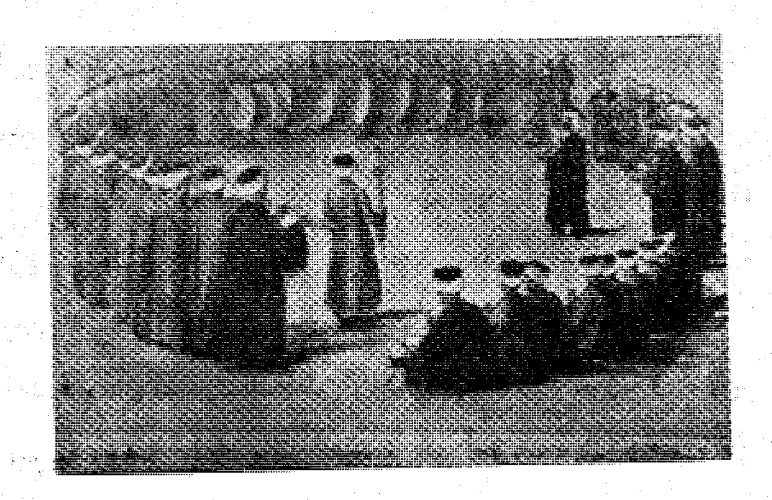
واجتزنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من إنكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضى والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت فى هذا المعرض العظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والعبر ، يضيق عنها الفكر والنظر ، لكن أصف لك ما غلب على الذاكرة من بينها : المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الأروقة . سرنا فى الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب حتى انتهينا إلى سيارة فى نوافذها ثقوب ؛ فهذه السيارة التى قتل فيها المرحوم محمود شوكت باشا وهو صدر أعظم فى عهد السلطان محمد الخامس ، و بعدها صور وآثار كثيرة لمتأخرى القواد العثمانيين : علمدار مصطفى باشا ومختار الغازى وأنور وغيرهم . ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا فى صدرها صورة الغازى مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة . وسرنا قليلا فإذا درع قديمة تتخطاها العين غير حافلة ،

فإذا وقفها التطلع قرأت عليها : « درع الفاتح » فأخذها جلال الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق . بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور فى عهد الفاتح ، وترس يعقوب جلبي ابن السلطان مراد الأول . ويقال إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو يتعقب العدو فى موقعة قوصوه الأولى سنة ٧٩١ ، ثم سيوف لسليمان القانونى فيها سيف كتب عليه :

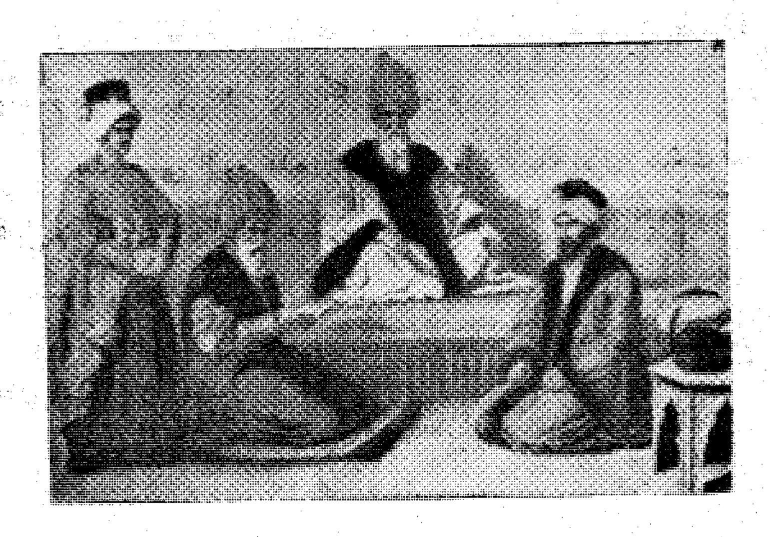
على الله فى كل الأمور توكلى وبالخمس أصحاب العباء توسلى

ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث ، وعلماً رفعه العثمانيون فى موقعة قوصوه الأولى ، ثم مخلفات السلطان عبد الحميد . وهكذا تطوى العصور فى لحات ، فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طواهم التاريخ في سجله ، وجمعهم الزمان فى معرضه ، فدار بهم الزائر فى خطوات ، وحواهم الطرف فى نظرات ، حوى الدهر هذه العصور المتطاولة ، فى كلمة واحدة : « الماضى » ...

وفى الدهليز إلى اليمين سنان رمح كان للإمبراطور جستنيان ، وبركار كان للمعمار سنان . قلت لنفسى : شتان ما بين السنانين ، هذا للحرب والفناء ، وهذا للعمران والبقاء . قد فنيت آثار سنان جستنيان ، وللفناء كان طعانه ، وبقيت آثار بركار سنان ، وللبقاء كان بنيانه . وحسب سنان خلوداً هذا الجامع الرائع ، والأثر العظيم الذى يدل على الصانع : جامع السلطان سليمان . على أن هذه اليد الماهرة المعمرة شادت فى أرجاء المملكة



حلقة موسيقية صوفية



شيخ الاسلام

أو بعمائة بناء . و بعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائرى وهو يقابل القائد الفرنسى بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م .

وفى الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك فى أزيائهم القديمة. فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أمامه أعوانه ، وهذا قاضى العسكر بجانبه قاضى مكة وآخرون ، وهذا أغا دار السعادة ، وهذا قزم كان يضحك السلاطين ، وهذه صورة الإنكشارية فى أزيائهم العجيبة ، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صورة من التاريخ مبكية مضحكة .

وفى هذه الطبقة خرائط مجسمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها ؛ وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة . . .

و بعد فحسبى اليوم هذه السطور . ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل ، والله يرعاك والسلام عليك .

---

(١) عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة ٩٩٦ ودفن فى الجامع الذى ينسب إليه في استنبول .

متاحف طوب قبو سراى

— ٤ —

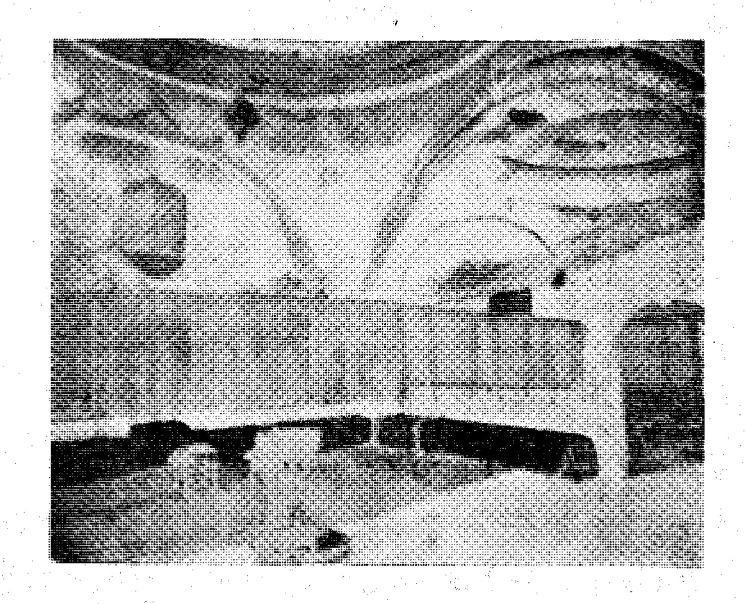
يا أخى صاحب الرســـالة !

سلام عليك والله يرعاك .

أصف لك اليوم بعض ما شهدته أمس فى متاحف قصر طوب قبو الذى كان مباءة السلاطين عصوراً متطاولة . وعسى أن أكتب إليك من بعد طرفاً من تاريخ هذا القصر الأفيح الذى يمتد على إحدى هضاب المدينة من جامع أيا صوفيا إلى رأس السراى (سراى بورنو) على بحر مرمرة .

للقصر أسوار بعد أسوار . الأبواب الخارجة تؤدى إلى حدائق واسعة وقد ذكرت فى رسالتى السابقة أحد هذه الأبواب حين ألجأنى المطر إليه .

سرنا فى الحديقة حتى انتهينا إلى باب آخر اسمه باب السلام فولجناه إلى حديقة أخرى واسعة تحيط بها أروقة ، ويبدو فيها إلى اليسار بنـاء ذو قباب ، أمامه رواق جميل . دخلنا فإذا حجرتان تتصل بهما حجرة مغلقة . اسم هذا البناء « قبة آلتى » أى تحت القبة ، وكان فى العصور مجلس الوزراء ، وكان الوزراء من أجل هـذا يسمون وزراء القبة أو جلاس القبة (قبة نشين) . فالحجرة التى إلى اليسار فيهـا أرائك للوزراء تتوسطها أريكة الصدر لأعظم .



قبة آلتی (تحت القبة)



خزانة السلاح

ويرى فوق مجلس الصدر نافذة عليها شباك من الحديد ناتئ . كان السلاطين يشرفون من هذه النافذة ليسمعوا مفاوضة الوزراء أو يشهدوا استقبال الصدور للسفراء . وكتبت إلى جانب النافذة كلمة الشهادة وطرتان ، بخط السلطان أحمد الثالث . والحجرة التى إلى اليمين كانت للكتاب وفيها طرة للسلطان مصطفى الرابع ، وسجادة يقال إنها نسجت قبل خمسة قرون . وكانت الحجرة مغلقة لاستراحة الكتاب .

وبنى هذا البناء فى عهد سليمان القانونى سنة ٩٣٣

ووراء هذه البنية برج يعلو فى الهواء ٤٢ متراً عليه منظرة تطلع على المدينة كلها ، وكان حوله بناء .

وعلى مقربة من « قبة آلتى » حجرة كبيرة هى اليوم خزانة الأسلحة القديمة أسلحة الملوك والأمراء . يرى الداخل أمامه أطبار[١] كثيرة من سلاح مماليك مصر ، وإلى يمينه خزائن زجاجية يطلع فيها على سيوف لبايزيد وسليمان . وهذا سيف السلطان الغورى ، وهذا سيف طومان باى . وأما سيف قايتباى هذا فقد طبعه من حديد وجده عند الحجرة النبوية سنة ٨٨١ . وهذان سيفان لمحمد الفاتح ؛ هذا الطويل المحلى للمحافل ، وهذا القصير العاطل للمعارك .

وبينا نتأمل هذه السيوف ونعجب من قدمها أرانا المعرض ماهو أبعد فى التاريخ وأجل شأناً ؛ هذا سيف عليه اسم معاوية ، وهذه سيوف أموية طويلة مستقيمة ، وهذا سيف لعبد الله بن عمر ، وآخر لكعب

(١) جمع طبر وهو البلطة .

الأحبار . وهذا السيف الطويل العريض المذهب قائمه قد كتب عليه : «معاذ بن جبل كاتب رسول الله» بل هذا سيف عثمان بن عفان . سعدت حيناً بالذكر ولم أكدرها بتحقيق الأسانيد .

وتقدمت قليلاً لأرى دروعاً لمماليك مصر ؛ فهذه درع كاملة : قميص وسراويل ، وعلى الصدر أضلاع من الحديد .

ومشيت إلى جانب آخر من الحجرة فرأيت الأقواس والسهام ريشها ونصالها ، والجعب . وهى قسى تركية من بنات القرنين العاشر والثالث عشر هـ . وهذه جعاب (تراكش) محلاة مزركشة ، وهذه درع هنجارية محلاة الصدر بالذهب والفصوص الكريمة ، وهذه درع كتب عليها اسم الشاه عباس الصفوى ، ولا أدرى أى العباسين الأول أم الثانى ؟.

وليت شعرى لمن هذه الدرع التى اتخذت جنة من الآيات والدعوات تقرأ عليها : « يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف . فالله خير حافظاً . يامالك الملك . يا منجى من المهالك ، أنت الباقى وكل شىء هالك » . وبين أن السجع يقتضى أن يكون : يامالك الممالك الخ . ولعله تحريف الكاتب .

نتقدم إلى خفتانات [1] من الجلد أو النسيج الصفيق ، ومغافر من الجلد والحديد . بل هذه مغافر للخيل ؛ والفرس صديق الفارس فى المآزق يحتاط له كما يحتاط لنفسه . وكانت الخيل تلبس المغافر على رءوسها والتجافيف على أبدانها . وفى شعر أبى الطيب :

حواليه بحر للتجافيف مائج   يسير به طود من الخيل أيهم

(١) خفتان لباس للبدن كله يقى من ضربات السيوف فى الحرب ـ والكلمة معروفة فى مصر فى جبة : قفطان

ثم ترى قوائم أعلام يعلم الله ماشهدت من ظفر وهزيمة ، ثم بنادق من عصور مختلفة فيها المحلى بالصدف الذى يضرب بالزند والصوان ، وفيها بنادق القلاع الثقيلة وضروب أخرى كثيرة .

* * *

تركنا خزانة السلاح وسرنا حتى اجتزنا الباب الثالث إلى رحبة واسعة ، يفضى الباب إلى رواق مستطيل مع الجدار ، وعلى الباب من الداخل كتابة وثلاثة ألواح مستديرة فيها أسماء السلاطين وتواريخ ولايتهم ووفاتهم من عهد عثمان إلى محمد السادس وهى تشغل لوحين ونصف الثالث وبقى الفراغ فيه ناطقا بانتهاء الدولة .

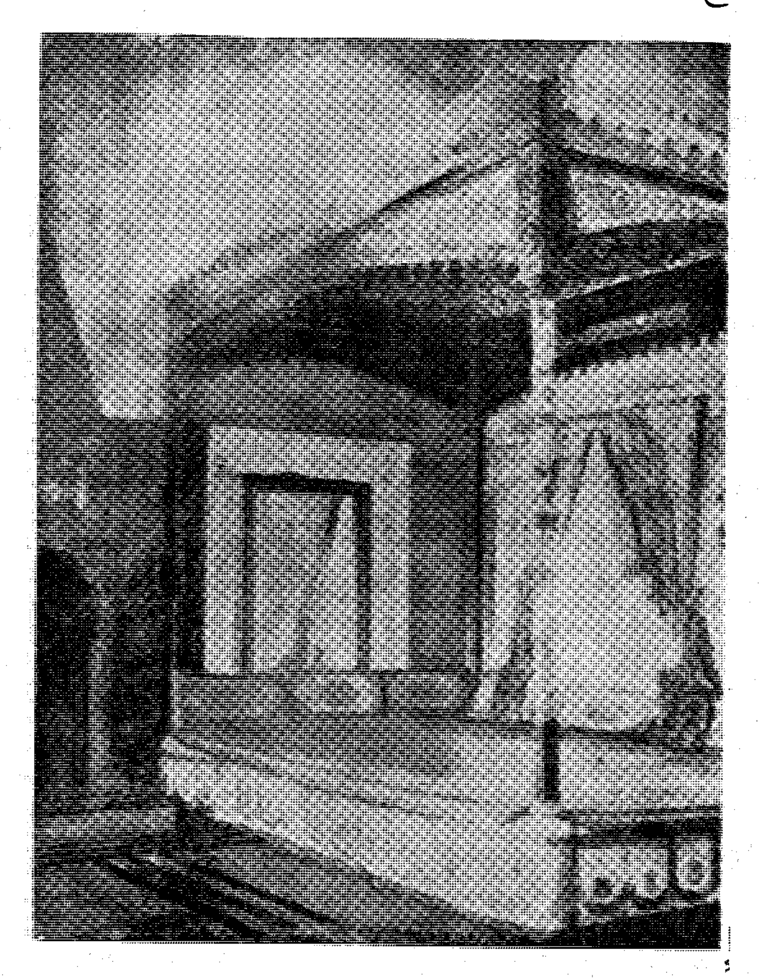
وأمام الباب حجرة يتقدمها رواق . وهى حجرة العرض (عرض أوده سى) وكانت مجلس السلطان لمقابلة السفراء ورجال الدولة أيام الأعياد، وفيها سرير منجد تعلوه قبة من الخشب المصنع المزين؟وكان أثاث الحجرة وزينتها من آيات الإتقان والبذخ ولكنها احترقت سنة ١٢٧٣ وبقى بعض آثارها .

وفى جانب الحجرة نافورة يقال إنها كانت تفتح حين يسر السلطان حديثه حتى لا يسمع الذى فى الخارج .

وفى الرواق الذى أمام الحجرة حجر من المرمر يقال إن قتلة السلطان سليم الثالث وضعوا جثته عليها وأروها للصدر علمدار مصطفى باشا .

وتقدمنا فملنا ذات اليمين إلى (الخزينة) وفيها من نفس التاريخ

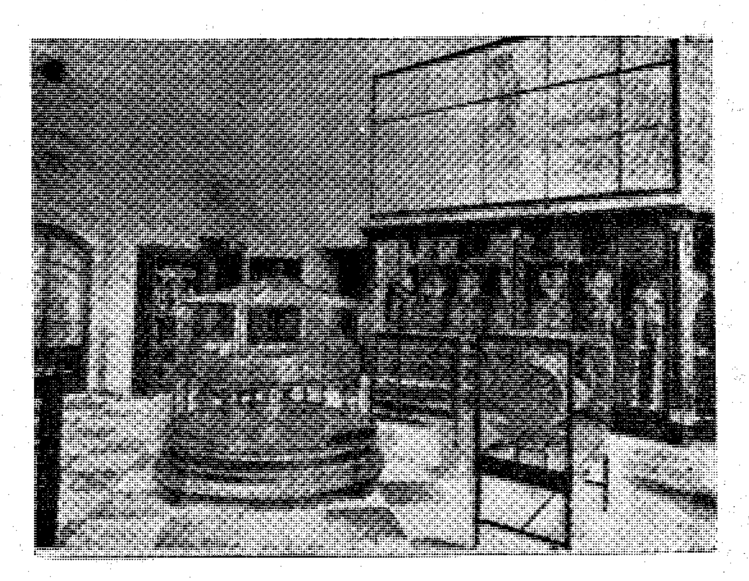
وأعلاق الملوك ما يكل الطرف دون تأمله ؛ الحجرة الأولى والثانية بهما أدوات الطعام والقهوة من الصينى الجميل فى ندرة من الألوان ، وفتنة من بدائع النقش ، صحون وطسوت وأباريق وفناجين ، وأدوات من البلّور



حجرة العرض

والنحاس المذهب ، وخوانات من الفضة ومواقد ... الخ الخ .

هذه المرائى اللألاءة تبهر العين حيثما وجهت فتشغل الناظر عن التفكير فيما وراءها من التاريخ . قلت ماذا أرى وماذا أدع ؟ هذه للعابر متعة دقائق ، وللباحث درس أشهر ، وللمفكر عبرة الدهر .



حجرة الملابس وعرش إسماعيل فى وقاية من زجاج ويرى فى وسطها

ثم حجرة الملابس . يا له منظراً مهيباً ومقاماً هائلا ! صف ينتظم السلاطين من الفاتح إلى عبد المجيد . ها أنت ذا فى حضرة السلاطين الذين رجفت بهم الأرض قروناً ، وامتلأت صفحات التاريخ أجيالا . هون عليك لاترع ، ماهى إلا ألبسة تحملها أعواد . أجل ! هذه الجبة ، وهـذه العمامة الـكبيرة ، وهذه الشارة (سرغوج) التى تعلو العمامة محلاة بالمـاس

وهذا الخنجر المذهب الذى تثقله هذه الزمردة الكبيرة — أجل هذا لباس الفاتح وزينته وسلاحه ، ولكن لا ترع إن هو إلا لباس على أعواد . إضحك إن شئت ، وتحدث كما تشاء ، ولا تأخذك هيبة الفاتح وصولته ، وإن شئت فقف خاشعاً مطرقاً مفكراً فإنها ذكرى رائعة وتاريخ ماثل . فإذا أخذتك سورة الذكرى واستشعرت رهبة الملك فارفع رأسك وانظر فليس أمامك الفاتح ، ولكن جبته وقفطانه وعمامته وخنجره . إن هى إلا ملابس على أعواد :

وانظر بجانبه ملابس بايزيد الصوفى : عقد من الزمرد حول حلقة من الجواهر يزين هذه العمامة ، وعلى مقبض الخنجر ثلاث قطع من الفيروزج زرقاء صافية . وتقدمت فوقفت أمام سليم وسليمان ! ولست أبالى حضرة سليم وسليمان ، فقد ذهب الدهر بسليم وسطوته ، وذهبت الريح بملك سليمان .

انظر إلى من بعد سليم وسليمان : هذان سليمان الثانى ومحمد الرابع على رأسيهما عمارتان تخالفان ما رأيت قبلا ؛ عمارة حمراء عليها لفافة صغيرة وشارة عظيمة جدا . ثم انظر العمائم الطويلة المضلعة على رأس مصطفى الثانى ومن بعده .

وهذا محمود الثانى ، الذى بذل فى الإصلاح جهده وبطش بالإنكشارية بطشته ، فى زى أوربى على رأسه طربوش عليه قطيفة سوداء وشارة . ثم عبد المجيد على رأسه الطربوش والشارة فقط . وهكذا يسير التاريخ متمهلا من أبهة الماضى واستقلاله وجلاله ؛ إلى يسر الحاضر وتقليده وجماله .

وفى وسط الحجرة صوالج لعبت بالأمور حتى لعبت بها الأقدار . وليت شعرى ما خطب هذا المهد السلطانى الصغير ؟ بل أى طفل من بنى السلاطين ترجح فيه ، وأى أيد من أيدى الأميرات أو الخادمات هزته ؟ وماذا كان حظ الطفل من هذا المهد إلى ذاك اللحد ؟.

وأما هذا العرش العظيم المسبغ الجوانب ذو القوائم الأربع فيقال إنه عرش الشاه إسماعيل الصفوى .

وبعد فيا صديقى الزيات ! أخشي أن يطول الحديث فليقف الكلام عند عرش إسماعيل وموعدنا الرسالة المقبلة إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله

٥ — متاحف طوب قبو سراي

يا أخى صاحب الرسالة !

سلام عليك .

وقفت بك فى الرسالة السابقة على عرش للشاه إسماعيل الصفوى . وجدير أن نطيل الوقوف عند هذا العرش الذى بذات الصناعة وسعها فى هندسته وتذهيبه وترصيعه وتلوينه ، ولاءمت فيه يد الإتقان بين الذهب والمينا والزمرد والياقوت ، وألفت بين ألوانها تأليفاً متلائماً عجيباً ، وقد أرى فيه الذكر تتلألأ تلألؤ الجوهر .

وقفت عند هذا العرش أذكر الشاه إسماعيل هذا الملك الجبار الذى نشأ فى زلازل الحادثات وملك أزمة دولة مبتدأة ، وهو لم يبلغ الحلم ؛ وما لبث أن مد سلطانه ما بين العراق إلى الهند . ثم أورث أبناءه دولة لا تزال آثارها شاهدة بمآثرهم ، ناطقة بعظمة ملكهم ، مذكرة بما طوى الدهر من سلطانهم .

هذا العرش، ما خطبه ماباله فى خزائن سلطان آل عثمان ؟ هنالك ذكرت جلاد سليم وإسماعيل ، وذكرت موقعة جالدران ، الموقعة التى كادت تذهب بدولة إسماعيل الناشئة ، لولا أن عاقت سليم العوائق . وجالدران واد مديدشمالى آذربيجان اصطفت فيه جنود سليم وجنود إسماعيل سنة ٩٢٥ من الهجرة . قسم سليم جنوده ، وجعل الإنكشارية فى القلب واتخذ مكانه خلفهم ، وجعل المدافع وراء الجناحين ، وشد بعضها إلى بعض بالسلاسل . وصف إسماعيل جنوده ؛ وتولى قيادة الجناح الأيمن ؛ مائة وخمسون ألف جندى صمدت لمثلها . فانظر هذه الحرب المتأججة يضرمها ثلاثمائة ألف !.

ويحمل إسماعيل الفتى الشجاع ، معتزا بجنده ، مفتخراً بنسبه العلوى ، مصمما أن ينتصر أو يقتل ، ويشق جناح العثمانيين الأيسر ، ويحسب أن النصر مقبل عليه .

وتظاهر جناح العثمانيين الأيمن بالهزيمة وانقسم . فتحمل ميسرة إسماعيل ، وترمى بنفسها فى الفرجة بين القسمين . فإذا هى أمام المدافع ،

وإذا النيران تأخذها من كل جانب . تتبدل الحال ويواتى العثمانيين الظفر .

ويسقط إسماعيل عن جواده جريحاً ، وينجيه من الأسر القريب الفرار إلى تبريز .

ويبادر سليم إلى جمع الغنائم ، ويزهى بما نال من ظفر على عدوه الجبار.

ها هو سليم يدخل تبريز بعد ثلاثة عشر يوماً دون حرب . وكانت تبريز يومئذ دار الملك ، وبها خزائن إسماعيل ؛ قد جمع فيها ما أخذ من التيموريين وغيرهم من الأمراء الذين غلبوا على ممالكهم . وبينما يدبر سليم للاستيلاء على ملك إسماعيل كله يرى بين جنوده أمارات العصيان فيرجع أدراجه قانعا بما أحرز من نصر ، وما ملك من بلاد . لم يقم فى تبريز إلا ثمانية عشر يوماً .

هذا العرش مما غنم سليم فى هذه الحرب الضروس (١) .

وذكرت حينئذ الرجل الكبير قانصوه الغورى الذى خشى صولة سليم فمالأ الشاه إسماعيل ، فأفسد ما بينه وبين العثمانيين وتتابعت الأحداث حتى كانت واقعة مرج دابق فى رجب سنة ٩٢٢ قبل وقعة جالدران بسنين ثلاث . وتصورت سليما يحرز نصراً بعد آخر ، ويطوى مملكة بعد مملكة بجنده وعدده ؛ ولاسيما هذه المدافع التى لم يتسلح بها محاربوه .

وعدت أتذكر ما أعقبت عداوة سليم وإسماعيل من عداوة بين المسلمين ، وما أثارت من ضغينة بين أهل السنة والشيعة . وما كان القتال

---

(١) رأيت عند الأستاذ محمد نور الدين ابن المرحوم نور الدين بك مصطفى صورة تيمورلنك على هذا العرش . فلعله كان من قبل لتيمور وغنمه الشاه إسماعيل من بنى تيمور.

إلا على السلطان والجاه ، و إنما كانت المذاهب تعلة .

ثم تمادت الفكَر ، وتوالت الذكر . فأخذت أقيس الرجال الثلاثة واحداً بآخر ، وأتذكر ما كان منهم فى السياسة والعلم والأدب . وقلت : هؤلاء الثلاثة الذين سيطروا على وسط البلاد الإسلامية كانوا يمثلون ثقافة الأمراء المسلمين . وفيما أثر عن ثلاثتهم من شعر نماذج من أدب أمرائنا فى القرن العاشر الهجرى وهممت أن أكتب إليك فى هذا يا صاحب الرسالة ؛ ثم تذكرت أنى أصف آثاراً فى متحف ، وأن الكلام على قانصوه و إسماعيل وسليم جدير أن يستأثر بمقال أو أكثر .

ولعلى أجد لذلك فرصة بعد . . . والسلام عليكم ورحمة الله .

٦ — متحف الأوقاف

بناء على مقربة من جامع السلطان سليمان كان مدرسة من المدارس القديمة . دخلنا قبيل الظهر فإذا فناء مربع فيه بستان ، وحوله حجرات ذات قباب أمامها أروقة .

دخلنا حجرة فيها طائفة من المصاحف والكتب العربية والفارسية والتركية ، فيها بدائع الفنون : الكتابة والتذهيب والتحلية والتجليد . و بين المصاحف مصاحف كوفية قديمة منها قطعة يقال إن كاتبها عمر رضى الله عنه ، ومصحف كتبه عثمان ، فى زعم الزاعم . قلبنا البصر الحائر بين مائة مصحف أو أكثر كلها من بدائع الآثار .

ورأينا فى هذه الحجرة منشورات (فرمانات) كثيرة افتنّ الكاتبون فى خطها ورسم طُغرائها على أشكال مختلفة عجيبة ؛ منها منشورات للسلطان سليمان ولعثمان الثالث ومحمود .

ورأينا فى الحجرة دُوِيًّا ومقلمَات منها دواة للوزير أسعد مخلص باشا أحد الوزراء فى عهد محمود الثانى وعبد المجيد . وكان عالماً شاعراً .

ورأينا فى حجرة أخرى ، يقال إنها كانت مطعم الطلاّب ، سجاجيد قديمة فيها متعة ومشغلة لعشاق السجاجيد .

وفى حجرة ثالثة كثير من مخلفات السلاطين : فى وسطها صندوق من الزجاج فيه أوعية زجاجية فى أحدها شعرات للرسول صلوات الله عليه ملفوفة على ماسة ، وعلى الجدار صورة السلطان محمود مصورة على المينا كتب فوقها وتحتها البيتان :

ساطان سلاطين جهان محمود خان   صورتده ملك سيرتى ظل يزدان
ديدار ينه مرآت نـكاه آشفته   تصويرهمايوننـــه إنسان حيران

(سلطان سلاطين الدنيا محمود خان فى الصورة ملك وفى السيرة ظل الله ترتاع مرآة النظر لرؤيته ويحار الإنسان فى تصويره الهمايونى)

وفى الحجرة قفاطين ومناطق محلاّة كانت لأطفال السلاطين، ومناديل مزركشة كانت لامرأة سليمان ، ونعال منها نعل للسلطان سليم .

ومن عجيب ما رأينا فى هذه الحجرة قميصان ليلدرم بايزيد وسليم ياوز قد كتب على كل منهما القرآن كله ، وكان يلبسه صاحبه حين الصلاة .

وحبذا القرآن حلية ولكنها أجدر بالقلوب .

ورأينا ألواحاً عليها أبيات من البُردة ومن الشعر الفارسى وهكذا .

وفى الحجرة الرابعة صناديق صغيرة مرصعة بالصدف كان بها الشعرات النبوية ، وصناديق جميلة للمصاحف تسمى مفازات .

ورأينا فيها مفتاحى مكة والمدينة وهما من حديد ، غليظان فى طول شبر أو أطول ، وطستاً وإبريقاً من الفضة المذهبة كانا لأم السلطان عبدالعزيز .

وفى جانب الحجرة فوهة كان يُخبز فيه للطلاب .

ورأينا فى حجرة أخرى سجاجيد قديمة كبيرة من عهد السلاجقة ، وتوابيت سلجوقية نقلت من مدينة قونية . وفوانيس نحاسية منها فانوس خير الدين بار بروس . وصندوق يقال إن الشاه إسماعيل أهداه إلى السلطان سليم ، وإن السلطان كان يحفظ فيه أوراقه حين السفر ، وعلى ظهر الصندوق صوّرت بيوت النرد والشطرنج .

ورأينا فى أحد الأروقة المحيطة بالفِناء طاحوناً عتيقاً كان يطحن فيه القمح لخبز طلاب المدرسة .

وهكذا رأينا عصوراً من التاريخ فى لحظات ، وبدائع من الفنون فى لمحات ، وزمناً طويلاً طُوى فى هذه الحجرات .

٧ — فى جوامع استنبول

يجد القارئ فى ثنايا الرحلة ذكر بعض المساجد وطرف من أوصافها .
ولست أبغى فى هذا الفصل أن أصف هندسة المساجد ونقشها وزينتها .
فحسبي أن أقول ما قلت حينما زرت استنبول المرة الأولى سنة ١٣٤٨ هـ .

لو أن مدينة بنيت من أجل هذه المساجد لم يكن أمراً نكراً .
ومن الفكاهة أنى لهجت بوصف مساجد استنبول حينئذ، حتى رأيت فى المنام
من يقول : لو أن إنساناً سافر على حمار من مصر إلى استنبول ليرى مساجدها
لم يكن ملوماً ! ! ومحدّثى فى المنام لم يبالغ مبالغة من قال فى وصف تمثال
كسرى برويز وفرسه شبديز : « لو أن رجلا خرج من فرغانة القصوى ،
وآخر من سوس الأبعد قاصدَين النظر إلى صورة شبديز ما عُنّفا على ذلك » .

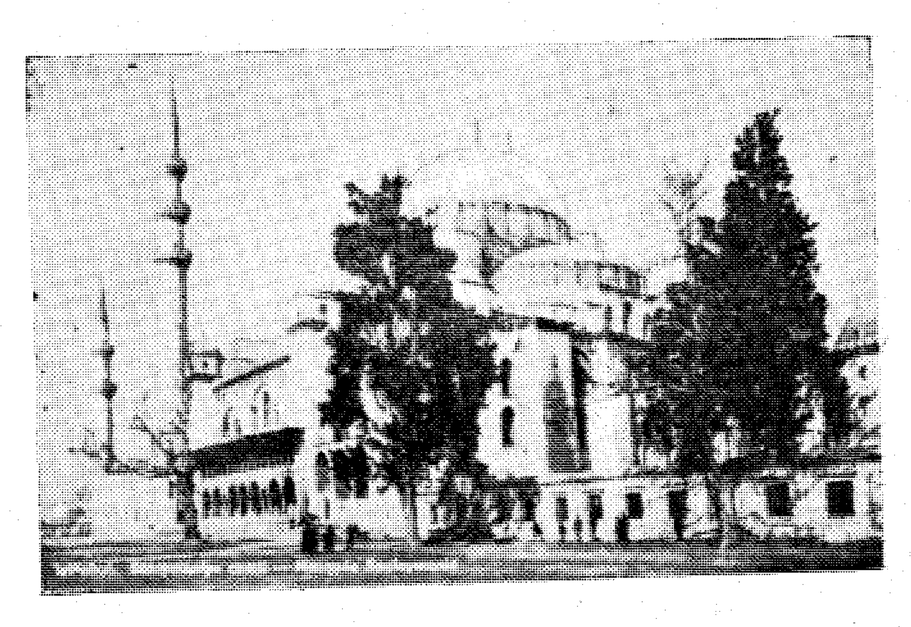
وقصارى القول أن تاريخ دولة من أعظم دول الإسلام يتجلّى فى هذه
المآثر ، وصفحة رائعة من الحضارة الإسلامية تُرصّع بهذه الجواهر .

وإنما أقصد فى هذا المقال إلى ذكر ما رأيت أثناء صلوات الجمع فى
زورتى الأخيرة لاستنبول ، معدّداً لمشاهد متفرقة دون اهتمام برسم صورة
واحدة من تفاصيلها :

الجمعه الأولى

يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ (٣٠ تموز
سنة ١٩٣٧) .

بكرت إلى حىّ بايزيد أجدّد العهد ، وأقضى حق شوق قديم طال



مساجد استنبول

ثمانى سنين. جلست فى المنتديات التى هناك تحت الأشجار بجانب الجامع ، وبعد قليل رأيت جماعة من إخواننا العراقيين بينهم صديقى إبراهيم بك الواعظ المحامى ، فتحدثنا حيناً . وبدا لى أن أصلى فى جامع بايزيد ؛ واقترح بعض الأصحاب أن نصلى فى السليمانية — جامع السلطان سليمان وليس بعيداً من مكاننا . وهو جامع فخم رائع يذكر بعظمة سليمان . بُنى على هندسة مساجد استنبول : قبة عالية عظيمة تتنزل منها أنصاف قباب ، وتحت الأنصاف أنصاف أخرى تعمدها جُدُر وعمَد ضخام . وكنت أحسب جامع سليمان أوسع من آيا صوفيا ، حتى قيل لى إن طول السليمانية تسعون ذراعاً ؛ وآيا صوفيا مائة وخمسة .

شرع القارىء يرتل سورة الأحزاب ؛ وقرّاء الجوامع فى تركيا والعراق لا يلتزمون سورة الكهف يوم الجمعة كما يفعل قرّاء مصر . وكان الناس يفدون قليلا قليلا حتى اجتمع زهاء مائة وخمسين ، وهو جمع يتضاءل فى عظمة السليمانية . ثم ختم القارىء وقرأ الآية : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . . . فعرف المصلون أنه وقت الأذان . ثم قاموا لسنة الجمعة أربع ركعات على مذهب الحنفية . ثم رتّل المؤذنون على المحفل صلوات على النبى . وقرأ القارىء : إن الله وملائكته يصلون على النبى ... الخ وأُذّن بالتركية أذاناً يُصمّ الآذان .

وبدأ الخطيب بلغة عربية فصيحة . ثم تلا الآية : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فلهم أجرهم عند ربهم

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؛ وشرحها بالتركية شرحاً وافياً . ثم قال بالعربية : خير الكلام كلام الملك العلاّم ... الخ . وتلا آية قصيرة .

وهذه سنة الخطباء فى تركيا وفى العراق؛ يختمون الخطبة بآية لا بحديث كدأب خطباء مصر . ويتشابه خطباء تركيا والعراق فى مبادئ الخطب وترتيبها وخواتمها ، وفى الترنّم فيها .

وجلس الخطيب وقام إلى الخطبة الثانية فدعا بالعربية وحدها ثم ترنّم بالآية : إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى ... الخ .

ولما فرغ المصلون من فرض الجمعة قاموا كلهم يتنفّلون ؛ ولم يقتصروا على أربع الركعات المسنونة فى مذهب الحنفية . بل صلى كثير منهم عشر ركعات أو أكثر .

ولا يجد من يريد الخروج بعد الفرض طريقاً، لاشتغال الحاضرين جميعاً بصلاة النافلة . ثم يختمون الصلاة ختما طويلا وهم فى خشوع تام .

والحق أن للترك آداباً حسنة فى مساجدهم ، لا تسمع حديثاً ولا ترى غير النظام والخشوع .

الجمعة الثانية :

أردت أنا وزميلى الدكتور زيادة الذهاب إلى جامع أبى أيوب الأنصارى « أيوب سلطان » . فلم يتيسّر لنا الذهاب ذلك اليوم . فعدلنا إلى أقرب الجوامع من جسر (غلطة) ؛ وهو بنى جامع «الجامع الجديد» ويسمى جامع والده سلطان — بنته والدة السلطان عبد العزيز .

وهو جامع كبير جميل زُينت بالقاشانى جُدره وعمدُه . وكان القارىء يقرأ فى سورة الإسراء وتوافد الناس حتى اكتظ بهم الجامع .

وكان الخطيب واعظاً بليغاً . بدأ بقوله : الحمد لله الذى لا يزول ولا تزال، الدائم الذى لا يتحول من حال إلى حال ، أحمده حمداً يكون لنعمائه عديلا ، وأشكره شكراً يكون برضاه كفيلا . . . ثم تلا أحاديث وشرحها وأفاض فى وعظ بليغ . . .

الجمعة الثالثة : (٦ جمادى الثانية — ١٣ آب)

صليت فى جامع بايزيد ، وكان الجامع مزدحماً بالمصلين ؛ وقد التزم معظمهم تغطية رأسه بطاقية أحضرها معه ، ولم يترخصوا فى الصلاة حاسرين ولا مقبعين .

ورأيت فى جانب المسجد طائفة من النساء يصلين على حدة . وهذا منظر جميل مألوف فى جوامع تركيا . ترى المرأة العجوز أو الشابة تدخل المسجد وفى يدها ولدها فى وقار وخشوع ، تتجلى فيها حرمة المرأة وحريتها فى أجمل صورها ؛ ولست أنسى حين دخلت جامعاً فى اسكودار فلم أر إلا ثلاث نساء يقرأن القرآن . وجلستُ بجانب المحراب، فرأيت إحداهن أقبلت ، فوضعت المصحف فى محفظة : ثم قبلته خاشعة وانصرفت، ولا أنسى صوت امرأة جلست إلى جدار القبلة فى أولو جامع فى بروسة تتلو القرآن فى صوت يملأ القلوب والجلود والهواء اقشعراراً ؛ وكنت فى مكتبة الجامع فسألت قيم المكتبة . فقال : حافظة تتلو القرآن والحافظات عندنا كثيرات .

فليت شعرى ! لماذا لا يطالب نساؤنا بنصيبهن فى المساجد؟لماذا نرى المرأة لعبة فى الملاهى ، وفتنة فى الطريق ، ونفقدها فى المساجد ؟... جواب هذا عند المتزعمات من نسائنا .

ولما بلغ القارئُ آية السجدة ، قرأها وسجد ، وسجد الحاضرون كلهم ، لم يفعلوا ما يفعله كثير من قراء مصر ؛ يتركون آية السجدة ، وساء ذلك عملاً . ولما فرغ من سورة الإسراء ، قرأ الآية : ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين والآية : سبحان ربك رب العزة عما يصفون : الخ . وقال : الفاتحة . ثم رتل هو ورفقاؤه الصلاة على النبى ، وقام الناس لصلاة السنة . ثم قرأ القارئُ : إن الله وملائكته يصلون على النبى ، وشرع الخطيب فحمد وتشهد . وكان مما قال : وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة من جمع بين قلبه ولسانه ، وأشهد أن سيدنا وسندنا ومولانا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وصفيه وخليله الداعى إلى الله فى سره وإعلانه . ثم قرأ أول سورة العنبكوت . ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون : وتلا حديثين معناهما أن الإيمان والعمل قرينان ، وأفاض فى الشرح والوعظ وختم بآية وجلس . والناس هناك لا يرفعون أيديهم للدعاء بين الخطبتين .

وكانت الخطبة الثانية كلها دعاء بالعربية ، وختمها بالترنم بالآية : إن الله يأمر بالعدل ... الخ

الجمعة الرابعة :

ذهبت مع جماعة من الأصدقاء إلى جامع أيوب . ركبنا إليه باخرة صغيرة من الجسر — جسر غلطة — فمضت بنا فى خليج القرن الذهبى زهاء نصف ساعة . والناس يقصدون جامع أيوب يوم الجمعة للزيارة وختن أبنائهم . وهم يسمون الختان (سنت) ، وقد رأينا فى الطريق صبياناً توشحوا بأوشحة بيضاء وحمراء ، ولبسوا طواقى مذهبة ! فعرفنا أنهم ذاهبون للختان .

دخلنا والجامع مكتظ ، والقارئ يتلو من سورة الأنبياء . وصعد المنبر خطيب هرم أبيض اللحية والرأس وكأنه تحرج من التكلم بالتركية فى خطبته ، فدعا بالعربية ، وتلا آية وجلس . ثم قام للخطبة الثانية فأتمها بالعربية ، ودعا فيها للمسلمين . وختم بالآية : إن الله يأمر بالعدل . ثم شرع يفسر بالتركية أحاديث . ثم ختم بالدعاء ، ولا أنسى دعاءه فى جهر وقوة : اللهم انصر شريعة محمد ، ومزق شمل من مزق شملها .

٨ — (إلى عليه) (*)

يا بنيتي الحبيبة ! هأنذا على شاطئ البحر قد انتبذت مكاناً قصيا ، وفررت من الناس لأظفر بنفسي . وأمواج « مرمرة » توسوس بنشيد المساء بين يدى ، وقد توارت الشمس بحجابها . وذات اليسار جزر الأمراء جاثمة على الأمواج . وذات اليمين تلوح من خلال الأشجار «مودا» الجميلة لألاءة تطل فى مرآة من خليجها . وعلى بعد تلوح الآستانة الجليلة تنازع منارتها الظلام عن نفسها . وعلى مقربة منى منارة (فنار) تضيء وتخبو لترشد السائرين على الماء كأنها بصيص من الأمل خفاق يلوح للسائرين فى بحر الحياة !

أسمع ضوضاء الجوارى فى البحر ، وصفير القطار فى اسكدار ، وزقزقة عصافير المساء خافتة تنساب إلى الأذن كخطوات النفس لا يرى مصدرها ، وضوضاء الناس أحياناً . فهذه الخليقة العظيمة فى برها وبحرها ، وهذا الجلال الحزين منبعثاً من مغرب الشمس ، وهدير الأمواج الذى يهمس بسلام الليل بعد عراك النهار ، وكل ما أسمع من الأصوات ، وما ينبعث فى نفسى من ذكرى وعبرة ، وسرور وحزن ، وما يثيرحديث الناس فى قلبى من حب وبغض ، ووحشة وأنس ، وهذا النفر الذى جلس على مقربة منى يقطع على الفكر بأصواته ، ويهبط بالنفس من معارجها بضحكاته .

(*) كتبت فى الرحلة الأولى سنة ١٩٢٩ م



صورة أولو جامع (علية)

كل أولئك يا بنيتى العزيزة لم يشغلنى عنك ! فما تزال أمام عينى بسماتك وعبساتك ، وضحكك وبكاؤك ، وإسلاسك وعرامك ، وسكوتك وضوضاؤك .. وهل للسكوت إليك من سبيل ؟ .. ونومك ويقظتك ، ودلالك والحافك وإلحاحك . وكل هذا يا بنيتى محبب إلى . . . لوددت أنك هنا الآن تطيفين بى لاعبة صاخبة ضاحكة سائلة ، لا يفحمك جواب ، ولا يسكتك خطاب . تأخذين بيدى وثوبى تمنعين كل فكر فيما سواك ، وكل حركة فى غير مرضاتك ! ليتك هنا لتمسكى بالقلم ، وتقطعى على الفكر ! فكم فى الأفكار من آلام ، وكم فى الأفكار من أحزان . إذاً لناجيتك عن كثب ، ورجعت من خيالى إلى حقيقتك ! وإنها يا بنيتى لأشبه الحقائق بالخيال . هى الحقيقة المحبوبة السعيدة ، الحقيقة التى يعجزنى بيانها ، فأمسك القلم لأخرج من الألفاظ الضيقة إلى عالم من الفكر غير محدود ، وأفتح للقلب سبيله فى الحب الذى لا يعرف نهاية . . .

هأنذا ألقى القلم فسلام عليك .

٩ — وداع الآستانة (١)

الباخرة رشيد مرسية أمام المدينة العظيمة تتأهب للسير ؛ وأنا مول وجهى شطر البلد المجيد ، ونفسى مقسمة فى مشاهده ومناحيه : هذا ينى جامع مشرفا على جسر غلطة . فهل تذكر ساعة قضيتها تقلب الطرف

(١) كتبت فى الرحلة الأولى سنة ١٩٢٩ .

فى قبابه ، وتوجه القلب إلى محرابه ، وتمتع النفس بمرآى جدره وأساطينه المجملة بالقاشانى النفيس ؟ وأنظر إلى اليسار قصر الملوك «طوب قبو سراى» تلوح قبابه وشرفاته فهذا كشك بغداد كأنى أقرأ على جدرانه هذا البيت ، وكأنه كتب طلسما يرد الفناء ، وهيهات لا ترد أيدى الزمان طلاسم :

كشاده باد بدولت هميشه أين دركاه (١)

بحق أشهـــد أن لا إله إلا الله

لقد فارقت القصر دولته ، واستبيحت حرمته ! فهو الآن متحف ترود فيه النظارة ، وقد عرض فيـه السلاطين ملابس وعمائم ، وانطوت على الأجسام القبور . فكم واقف أمام ملابس سليم وسليمان يتأمل الجبة والحزام والخنجر ، ويعجب بما يتلألأ على العمائم من الجوهر ، وكم ضاحك يلفت صاحبه إلى عرش السلطان أحمد ، وما فيه من عجائب الفكر واليد ! إيه يا ضلال البشر ! إنها لأكداس من العبر ، ومواعظ فيها مزدجر .

وذاك أيا صوفيا شامخا بقبته ، مشرفا بمناراته . بنته المسيحية وأخذه الإسلام فما غير إلا قليلا ؛ حتى يرى الصليب نزع بعضه وبقى بعضه ، والصورة طمس وجهها وبقيت معالمها (٢) وما غضت المـآذن الأربع من قدره . بل زادته رفعة على رفعة . ثم جامع السلطان أحمد ذو المنارات

(١) ليظل هذا القصر معموراً بالسعادة أبداً .

(٢) قد كشف عن الصور المسيحية وعطلت الصلاة فيه فرجع كنيسة كما كان . وقد رأيت العمل فى تنصيره فى الرحلة الثانية .

الست يطاول آيا صوفيا و يتيه عليه . أتذكر أساطينه الأربع ، وقبته الرائعة ؟ يالها أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! ذلك أحب مساجد الآستانة إلى قلبي ، وأروعها فى نفسي . أليست هاتان منارتى جامع بايزيد ؟ أجل ! فها هو ذا برج الحريق على مقربة منهما فى فناء دار الفنون (جامعة الآستانة) — ذلك البناء الضخم الواسع الذى كان مقر رجال الحرب ، ولا يزال على بابه الكبير « دائرة أمور عسكرية » بين الآيتين « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » و« وينصرك الله نصراً عزيزا » . فلعل دولة العلم قد أديلت من دولة الحرب !.

ولله حى بايزيد ! ما أحبه إلى ، وكم فيه من ذكرى ، وكم سعدت بالجلوس بجانب أشجار بايزيد لشرب الشاى ! لا أسأل نفسى لم أحببت هذا المكان ؟ فما أشد حمق الذى ينغص على نفسه سرورها بالبحث عن العلل !.

ونظرت ذات اليمين فإذا « السليمانية » كالطود الشامخ قامت قبابها كالقمم ، وتأبى السليمانية إلا أن تحتج لسليمان . فهى أعظم جوامع الآستانة. لا أستثنى آيا صوفيا . وهو مشرف على خليج قرن الذهب أينما وجه الإنسان ببصره شطر الخليج رآه . وجامع الفاتح يلوح بعيداً بقبته البيضاء ؛ وفى جامع الفاتح وفنائه وما حوله من مدارس دارسة ، وحدائق ذابلة مسرح للفكر ومجال للإعجاب والفخر والحزن والأسي . ولا أنسى يوم أضللت نفسي فى حى الفاتح ، وهو حى أقرب إلى الأموات وأشبه

بالمقابر ؛ تنكر له الزمان وأعان عليه الحريق . سرت بين عمرانه وخرابه أهبط إلى الخليج فى مسالك ضيقة فقيرة ، يتبين فيها جلاد الفقر والنظافة . فالبيوت على فقرها تنفتح عن مرآى نظيف ، وما أشبهها بالرجل الفقير الصالح عليه أطمار مغسولة مطهرة للصلاة !.

ورائى حى غلطة. . . ومالى وحى غلطة ؟.

تحركت السفينة والساعة اثنتا عشرة ونصف . فدارت حول رأس السراى (سراى برونو) ، فلاحت المساجد التى تطل على الخليج مشرفة على مرمرة مرة أخرى ، وتجلى مدخل البسفور الجميل فى وسطه « برج البنت » : (قيزقله سى) وأشرفت الثكنة السليمية على ساحل آسيا . وتبدى اسكدار وحيدر باشا ، وقاضى كوى ، وما وراء حيدر باشا وقاضى كوى .

السفينة تمعن فى سيرها . فأنظر إلى اليمين أسوار استنبول وأبراجها العتيقة التى شادها الرومان ، تلوح وراءها القباب والمآذن . إيه يا ملتقى الأبحر من تاريخ البشر ! .

مضت السفينة فى سيرها ساعة ، والآستانة تختفى قليلا قليلا . ويأبى الاختفاء مساجد آيا صوفيا والسلطان أحمد والفاتح . وداعاً أيتها المشاهد الجميلة المحبوبة قبل أن يعيا الطرف عن مرآك . الساعة الآن واحدة وربع ، فأين الآستانة ؟ لست أراها فأنا أستعين عليها بالمنظار ، كما يجهد المفكر ليذكر أيام السعادة الغابرة ، أو كما يكد الصاحى ذهنه ليذكر أحلاماً

سعيدة استيقظ عنها . الآستانة تلوح من خلال المنظار كالحلم أو أخفى ! ليت شعرى ! فى أى بناء هذا الزجاج الذى يبص على البعد كما يلمع المودع بالمنديل لمن يودعه . ذهبت بى الأفكار ، وأخذنى التعب . فاستلقيت على كرسى ثم أفقت والساعة اثنتان . فما رأيت بالمنظار عيناً ولا أثراً ...

وداعاً أيتها المدينة العظيمة ! وداعاً أيتها الذكريات السعيدة الشقية ! وداعاً أيتها المشاهد الجميلة البائسة ! وداعاً إلى يوم اللقاء ..! (١)

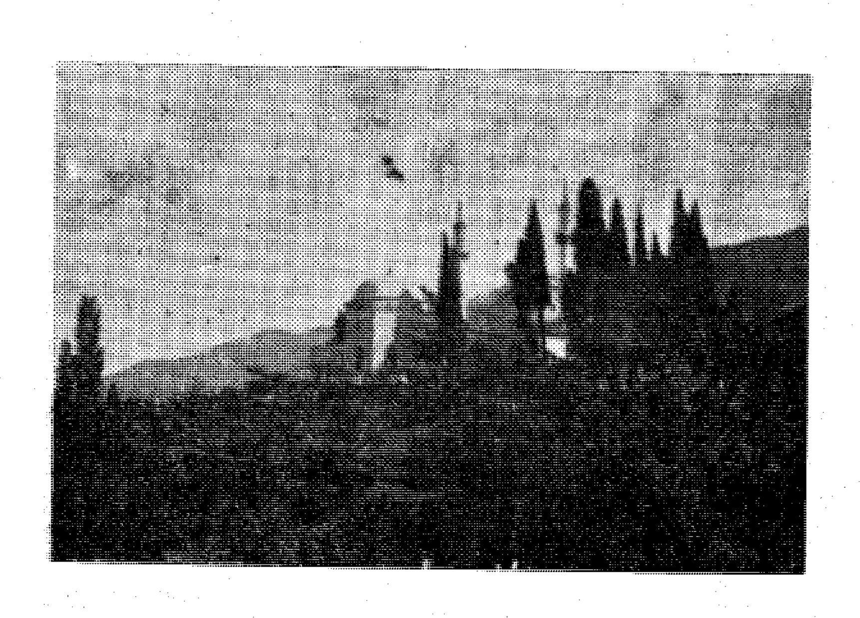
١٠ — بروسة (٢)

الآن أجلس على مربأ مشرف على بروسة ، ممتدة على سفحها وسهلها ، تلوح سطوحها مسنمة بين أشجارها ، آخذة من سفح الجبل إلى منبسط السهل — وعن يسارى يشيل جامع (الجامع الأخضر) جامع السلطان محمد شلبى ، ووراءه بناء مثمن يكسوه القاشانى حلة خضراء وتشرف فى سمائه قبة صغيرة تحتها مراقد السلطان و بعض أبنائه . وقد لاح على السفح إلى اليمين جامع أمير سلطان تطاول السرو الباسق منارته . ولاحت قبة بير محمد البخارى صهر السلطان بايزيد . واحتجبت وراء الأشجار قبور لاذت بقبر الرجل الصالح الشريف — وعلى عينى اليمنى (يلديرم جامعى) جامع بايزيد الأول تلوح قبتاه وقباب صغيرة بجانبها ، ومنارته

---

(١) قد يسر الله الرجوع إليها بعد ثمانى سنين .

(٢) كتبت هذه الكلمة فى بروسة سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م.



الفذة ، وبجانبه قبة تحتها قبر السلطان العظيم ، وعلى اليسار من وراء أشجار يشيل جامع ، تلوح منارة أولو جامع أو الجامع العظيم ذى القباب العشرين . بناه السلطان بايزيد — كما سمعت من سادن يشيل جامع — على هذه الشاكلة تحلة ليمينه إذ حلف ـ وقد كربه أمر عدو ـ ليبنين عشرين مسجداً إن رزقه الله النصر والظفر . فتحلل من يمينه بأن بنى مسجداً له عشرون قبة . وهاتان منارتان بيضاوان جميلتان كأنهما شمعتان، وما أشبه هذه المــآذن بالشموع الهادية فى الظلمات، وبحق سميت منارة .

أولوجامع ازدحمت على جدرانه وأساطينه أيدى الـكتاب يتنافسون ويفتنون . فلا ترى أسطوانة ، ولا موضعاً فى جدار خالياً من خط صنع من الـكتاب يفرغ وسعه ونبوغه فى الإتقان واللعب بالخط طرداً وعكسا . وإن فى هذا المسجد لتاريخاً عظيماً للخط ، ومعرضاً لا نظير له ؛ وإن فيه وحده لحجة تدمغ رءوس من يحاولون كتابة اللغة العربية بحروف أجنبية . وعلى بعد على سفح الجبل فى الناحية اليسرى يلوح برج عال فيه ساعة عظيمة يقوم فى موضع من الحصار أى القلعة القديمة حيث ضريحا الرجلين العظيمين : عثمان الغازى وأورخان وبعض ذوى قرابتهما .

* * *

وهنا وهناك تلوح منارات صغيرة على مســاجد خاملة بناها قوم لم يبلغوا من حظوظ الدنيا وبعد الصيت ما بلغ غيرهم . ولعلهم كانوا بالصدارة والزعامة أحق . وإن الجاه والمجد والسلطان فى هذا العالم لأتفه

ما يكافأ به الرجل الطيب ذو النفس الزكية . فلا تأسف على ما فات الصالحين من ضوضاء هذه الحياة .

لا أرى من هنا مسجد مراد الثانى وضريحه والأضرحة الكثيرة التى قامت حوله : ضريح جم الأمير التعيس ، و بعض الأمراء ، وزوجات السلاطين و بناتهن. لا أرى هذا ولا أرى جامع خداوند كار، شهيد قوصوه، مراد الأول — الجامع الذي يقوم فى حىّ جكركه على سفح الجبل عند الينابيع — ولا أرى قبره مشرفاً على السهل مقفلا على جلاله وأسراره وذكرياته . و بفنائه نوافير الماء الحار والبارد متجاورين سيقا إليه من الجبال القريبة — وما أجمل وأعذب مسايل المياه فى كل ناحية من نواحى بروسة ! فى كل شارع ومنعطف صنبور ينساب إليه الماء تحت الأرض من الجبال ، ولا يخلو مسجد من حوض جميل تخر فيه المياه ليل نهار فى وسط الجامع أو فنائه الخارجى ، وإن أنس لا أنس جلسة فى أولو جامع على مقربة من الحوض وقد أضاءت فوقه قبة الجامع الوسطى عالية يكسوها الزجاج ، تنفذ منها أشعة الضوء لتقابل أشعة النافورة .

وكذلك لا أرى فى مجلسى هذا منارة مسجد أورخان هذا المسجد الصغير الذى هو أقدم مساجد بروسة طرا .

يا لك أكداساً من الماضى والحاضر تلوح أمام العين ! يا لك ذكريات يجيش لها الصدر ، و ينطلق منها الفكر فى مسارب يعيا بها جهدُ المفكر ! لله بروسة الجميلة سهلها وجبلها وأبنيتها وأشجارها ، ولله فيها هذا التاريخ

العظيم يلوح فى أرجائها ، ولله نفسى كلما خلت انثال عليها من العبر والفكر ما يملؤها هما وحزناً وعزوفا من الناس ونفوراً ، وما يسمو بها فى عالم من الخيال والحقيقة . لا تدرى أهى سعيدة فيه أم شقية؟؟.

أيها القلم ! حسبك ! فما تركنى الناس أبلغ فى خلوتى ما أريد منها ، ها هم قد جلسوا يتحدثون ، وبدأت أصوات النرد ، تقطع فى نفسى حديث الفكر .

قف ! فقد مضيت فى الكتابة نصف ساعة ، وما أخسرك إن كنت جريت هذا الشوط بغير جدوى !

إيه بروسة ! والدنيا غير والدهر قلب . ليت شعرى ، وأنا أحبك وأود لو انفسح لى الزمان للبقاء فيك ، فتبلغ نفسى من جمالك وجلالك غايتها . . . إيه بروسة ! ليت شعرى أأراك مرة أخرى ، أم تلك جلسة التسليم والوداع إلى الأبد ؟ إنما العلم عند الله .

وإنما نحن ظلال متنقلة ، وليس لنا من الأمر شئ (١) .

١١ — بروسة أيضا (٢)

لم يكن بد من رؤية بروسة ، على ضيق الوقت . فما زلت فى شوق إليها منذ رأيتها قبل ثمانى سنين ، وما كنت لأستطيع أن أقاربها ، ولا أذهب إليها .

(١) قد يسر الله زيارة بروسة بعد ثمانى سنين كما يرى فى المقال الذى بعد هذا فله الحمد

(٢) كتبت فى بروسة بعد انى سنين من كتابة الكلمة التى قبلها .

ركبت باخرة من بواخر استنبول الجميلة إلى يلووه . فسارت زهاء ثلاث ساعات حتى بلغنا الشاطئ ، فإذا سيارات كبيرة متهيئة للمسير إلى بروسة .

دخلت المدينة عصراً ، فاسترحت قليلا . ثم خرجت أجدد العهد بمعالمها . فكانت الصور تتجلى لى واحدة واحدة ، فتجلو ما أخفاه الزمان من الذكر فى نفسى ، ويحسر الزمان كما تحسر السيول عن الأطلال :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُر تجد متونها أقلامها

رأيت شارعا كبيراً فيه تمثال للغازى ، وهو شارع جديد ذهب ببعض ما عرفت من المعالم القديمة . ولكنى بعد قليل عرفت المعاهد التى رأيتها قبلا وجددت العهد بها كلها .

كان أول ما قصدت — بعد جولة قصيرة فى المدينة — أولو جامع (الجامع الكبير) جامع السلطان بايزيد الأول . وهو جامع لا يدخله داخل مهما قسا قلبه إلا حنّ إلى الصلاة !.

جامع جميل تبارى الخطاطون على مرّ العصور فى تزيين جدرانه وعمده ببدائع أقلامهم . فحيثما توجه النظر راقته آية أو حديث أو حكمة ، أبدع الكاتب فى خطها ، وافتنّ فى تركيبها ؛ وكثير من الجمل كتب طرداً وعكساً ليتم تزاوج الفن .

وفى سقف المسجد عشرون قبة صغيرة تتوسطها قبة كبيرة من الزجاج ينصب منها الضوء على حوض فيه نافورة تلقى الأشعة بمثلها صفاء وجمالا .

فلا تزال تسمع بين الماء الصاعد والضوء الهابط وسوسة تخالط القراءة والتسبيح فى جوانب المسجد .

قد وصفت بروسة قبلا . فلا أعيد الحديث عنها إلا جلسة لى عند يشيل جامع (الجامع الأخضر) :

جلست عند يشيل جامع على مرقب عال يشرف على المدينة ، وعلى سهل واسع أخضر تحده جبال — وكنت جلست هذا المجلس قبل ثمانى سنين — نخيل إلى أنى كنت فى مجلسى هذا قبل أيام قليلة ، كأن لم تمض بين الجلستين ثمانى حجج . ثمانى سنين كأنها الأمس واليوم فما بقاء عمر تطير سنوه طيران الساعات .

جلست أقلب الطرف بين بروسة الممتدة على السفح ماضيها وحاضرها و بين السهل الجميل ، وأردد الفكر بين الماضى والحال . وطاف بى طائف من الشعر فكتبت هذه الأبيات ذكراً لإحدى البنيات .

على مرقب فى الطود فوق بروسة ... جلست يجول الطرف والفكر يشرد
ترد لى الذكرى سنين قد انقضت ... وعندى من التاريخ غيب ومشهد
على السفح أسطار وفى السهل مثلها ... تطالع فيه العين ما ليس ينفد
يلوح من الأطيار فى الطود منزل ... و يسمو مع الأشجار فى اللوح مسجد
خطوط لها فى العين مرآى ورونق ... وفى نغمات الريح لفظ مغرد
وللنفس ، بعد الخط واللفظ ، مقصد ... معان بأعماق الضمير تردد

* * *

تراءى لى السهل الفسيح جميعه مصلى ، وللأشجار فيه تعبد
تقيم له الأجيال جدران معبد له القبة الزرقاء سقف مؤبد
يعارض عينى فيه أنى توجهت خيالك يدنو فى الفضاء ويبعد
يلوح كما لاحت تماثيل مريم تزين بالإبداع فيهن معبد
فلولا جلال لا يحد وبهجة تخيلت أنى فى الكنيسة أقعد

١١ — من استنبول إلى إسكيشهر

فصل القطار من حيدر باشا على الشاطئ الأسيوى ، والساعة ثمان من صباح الثلاثاء ثانى رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف (٧ سبتمبر سنة ١٩٣٧) . فسار صوب الشرق والجنوب محاذياً خليج أزميت . مر بهركة الشهير بمناسجها ، وبلغ أزميت والساعة إحدى عشرة، ثم عارفية بعد الظهر . ثم توجه القطار صوب الجنوب فضرب فى أرض دكناء خصبة كثيرة الجبال والأودية والأنفاق والمياه والشجر والفاكهة . لا يمل المسافر ترديد النظر فى جمالها ونضرتها .

وافى القطار اسكيشهر « المدينة القديمة » بعد الساعة السادسة من المساء فقد سار إليها من استنبول عشر ساعات .

أويت إلى فندق صغير قريب من المحطة ، وبكرت يوم الأربعاء أسير فى البلدة وأتخلل طرقها . فأدانى طريق جديد فى أحد أطرافها ، إلى مكان واسع اجتمعت فيه عربات كثيرة تجرها الثيران عرفته

أنه سوق تجلب إليه غلاّت القرى القريبة . وهى العجلات التى وصفها ابن بطوطة من قبل .

عدت إلى الفندق فركبت عربة تجرها الخيل كعربات مصر ، وسألت عن دار المفتى ، وكنت أحمل إليه رسالة من أحد أصدقائه . وليس للمفتين اليوم شأن رسمى ولـكن لهم بين الناس مكانة ، ولهم فى الإرشاد أثر حسن .

أصعدنا فى المدينة صوب ربوة مشرفة عليها ، وهدانا السؤال بعد السؤال إلى الدار . قرع الحوذى باب دار صغيرة ، فانفتح عن شيخ وقور تلقانى بالتسليم والترحيب . فدخلت داراً نظيفة طاهرة بعد أن خلعت حذائى اتباعاً لسنة القوم .

وللترك عناية بالطهارة وكانت السنة عندهم أن تخلع النعال على أبواب الدور لتبقى الدار كلها طاهرة ، وأنعم بها سنة إسلامية . وقد نزلت منذ سنين داراً فى قاضى كوى ، فأقمت بها شهراً . فما رأيت أحداً دخلها إلا خلع نعليه ، ولبس نعلا نظيفة يسير بهـا فى الدار . فأين من هذا بدعة المدنية الحاضرة التى تطأ كل شىء بنعالها ؟ .

تركت دار المفتى بعد جلسة قصيرة لأنتظره فى فندق هناك يسمى : « بوزان پلاس » . ثم سرنا لنرى بعض مشاهد المدينة وآثارها . فرأينا مساجد منها مسجد معطل بناه السلطان علاء الدين السلجوقى . ورأينا حوض الماء الذى يسقى المدينة ، وأنابيب ماء حار فى وسط البلد يرتفق

بها الناس . وفى المدينة حمات تساق مياهها إلى البيوت والمساجد والحمامات، وبها نهر يسمى : « بور صوق صو » . وهو من روافد نهر سقاريا .

أويت إلى الفندق ، وقد أخذ منى الزكام مأخذه ، وكان عقابيلَ برد أصابنى فى بروسة .

أشار علىّ عثمان قيم الفندق أن أذهب إلى الحمام — ولا أنسى أدب عثمان ومودته ومبالغته فى إكرامى — قلت : لا قبل لى بالحمّامات العامة إنها حارة الماء ، كثيرة البخار . فقال : ترى الحمّام ولك الخيار . وما زال بى إلحاحه حتى ذهبت إلى حمام على مقربة من الفندق . فسار أمامى إلى أن فتح باباً . فرأيت حوضاً واسعاً قريب الغور ، جلس على حافته المستحمون مؤتزرين ، ووضعت يدى فى الماء فإذا هو حار جدا . ثم ألفيت حجراً خاصة بها أحواض صغيرة،فأخذت واحدة منها ، وكان آخر عهدى بهذا الزكام . فشكرت لعثمان إلحاحه ، وحمدت لاسكيشهر حماماتها!.

تركت أمتعتى فى الفندق ، وسافرت إلى أنقرة يوم الخميس ، وعدت يوم الأحد . فأمضيت يومى فى اسكيشهر منتظراً قطار قونية! .

وكانت الأسواق مغلقة ، فلم نظفر من مصنوعات المدينة بما أردنا . ولعل هذه البدعة بدعة الأحد ! .

وقد شهدت صلاة الظهر فى مسجد سليمان . وهو مسجد جديد؛ بناه أحد أغنياء المدينة مكان مسجد أحرقه اليونان فيما أحرقوا وخربوا من اسكيشهر .

وحرصت على أن أشهد درس المفتى . فذهبت إلى جامع أودون بازار فشهدت صلاة العصر . ثم جلست ناحية من الجامع لا يرانى المفتى. واجتمع كثير من الناس ، وعلا المفتى كرسيه ، وأخذ يتحدث فى سيرة الرسول ، و يعظ الناس . فراقنى بيانه ، وأعجبنى أدب القوم فى جلوسهم واستماعهم .

وتركت اسكيشهر شاكراً لأهلها مودتهم و إيناسهم على قصر الإقامة بينهم .

١٢ — أنقرة

— ١ —

سار القطار من إسكيشهر ميمماً أنقرة ، والساعة إحدى عشرة صباح الخميس رابع شهر رجب . وكنت مررت بأنقرة فى طريقى من حلب إلى استنبول . فلم أعرج عليها راجياً أن أنزل بها فى عودتى .

ضرب القطار خمس ساعات ونصف صوب الشرق فى برية قليلة الماء والشجر . وشتان ما بين هذه الطريق والطريق من استنبول إلى اسكيشهر.

ومررت بنهر سقاريا . فذكرت جلاد الأبطال على ضفتيه لدفع العدو عن ديارهم ، وأكبرت البطولة التى صورتها صفحة هذا النهر ، والتى تجرى مع مائه على مر الدهور!.

وكان معى فى القطار ضابط تركى . فما تحدثنا حتى قطعنا معظم الطريق. فسألته عما بيننا و بين أنقرة ، مللا من السفر وشوقاً إلى الغاية . فلما عرفنى

مصريا قال : نحن لانعد المصريين أجانب فى بلادنا . قلت : وما عددت نفسى فى دياركم غريباً على رغم الحادثات .

ثم لاحت المدينة فى أضوائها المنثورة بين السهل والجبل ، وبدت فى نور من تاريخها ، ولألاء من مجدها ، وزهو بفعالهـــا . فذكرت قول شوقى رحمه الله :

قم ناد أنقرة وقل يهنيك ملك أقمت على سيوف بنيك
أعطيته ذود اللبــاة عن الشرى فأخــذته حرا بغير شريك
تبنى الممالك من صخور أهلها والقوم من أخلاقهم نحتوك
فلو ان أخلاق الرجال تصورت لرأيت صخرتها أســاساً فيك

أكبرت جهاد القوم لا أخص رجلاً ولا فريقاً فإنما هى مآثر الأمة التركية كلها لا مآثر زيد ولا عمرو ، وهى العزة الإسلامية التى ورثتها هذه الأمة على الأجيال ، وحفل بها تاريخها فى ساحات القتال .

— ٢ —

أنقرة مدينة قديمة عرفت قبل الرومان ، وكان لها شأن فى الدولة الرومانية زادت مكانة وعمراناً فى عهد الدولة العثمانية . وكانت قبل الحرب من أكثر مدن الأناضول عمراناً وحاضرة ولاية من أكبر ولاياته تسمى باسمها . وهى فى بقعة كثيرة المياه والزرع والشجر . وكان سكانها أكثر من سبعين ألفاً . ثم بلغت ذروة مجدها حين اتخذها الترك مقر القوى المجاهدة فعاصمة الجمهورية ..

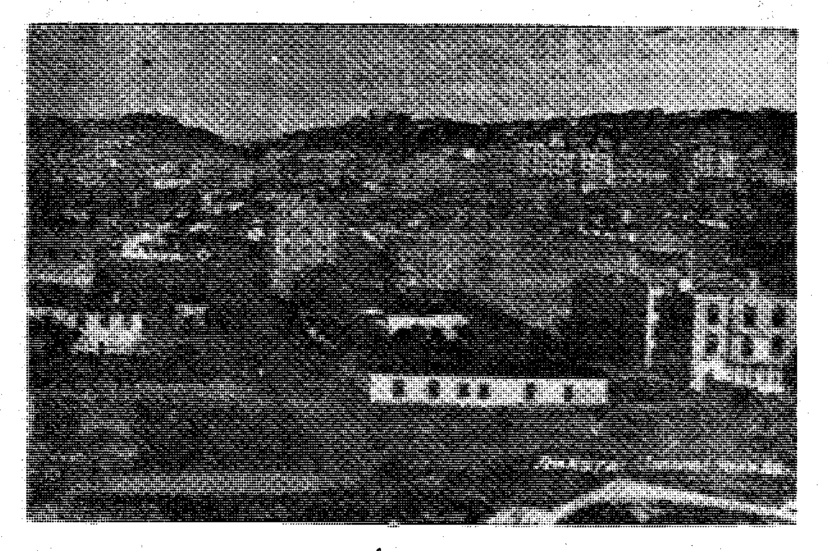
وقد فتحها الخليفة المعتصم حينما سار لغزو عمورية ، ويقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

جرى لها الفال برحاً يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحات والرحب

لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

ولها ذكر فى قصة امرئ القيس المعروفة .



منظر عام لأنقرة

وأما أنقرة التى ذكرت فى قول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجئ من أطواد

فهى موضع بنواحى الحيرة . ويقال إنها أنقرة التى نتحدث عنها . وهو قول بعيد .

وقد استولى عليها السلطان مراد الأول سنة ٧٦٢ هـ . وكانت عندها الواقعة المعروفة بين تيمورلنك والسلطان بايزيد الأول سنة ٨٠٤ . وقد أسر فيها بايزيد . وينسب إليها كثير من العلماء ، وبها مزارات طائفة من الصوفية منهم حاجى بيرام ولى ، وله جامع كبير .

— ٣ —

وأنقرة الجديدة متصلة بالقديمة تمتد على السفح والسهل . سيساؤها [١] جادة واسعة مديدة قامت على جانبيها أبنية شاهقة جميلة معظمها مبانى الدولة ، ويمتد منها شوارع أخرى مصعدة ومصوبة . ولا تزال يد التعمير عاملة فى كثير منها .

وهى فى نظامها ونظافتها وحدائقها وتماثيلها من أجمل المدن العصرية على صغرها .

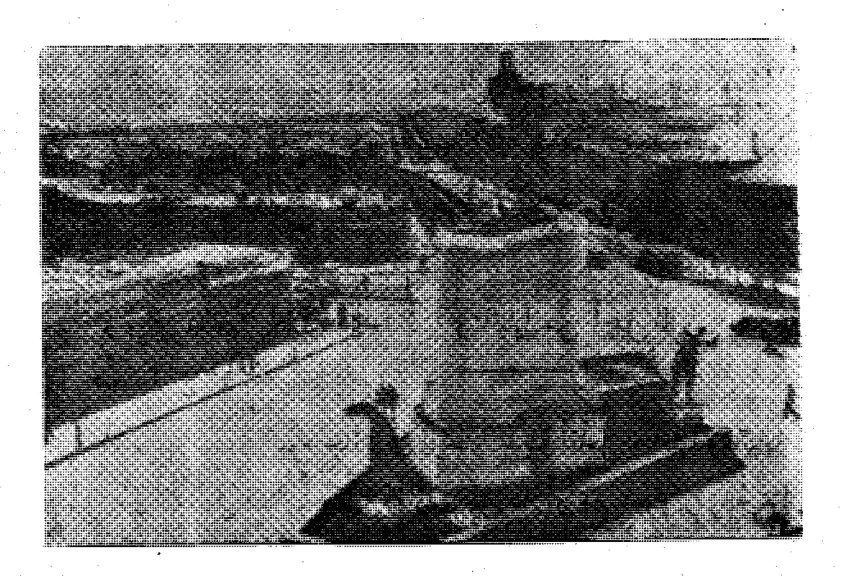
أمضيت سحابة اليوم جائلا فى أرجاء المدينة أتأمل مبانيها وتماثيلها ، وما أكثر التماثيل فيها . وكلها للغازى منفرداً أو مع صور رمزية تمثل نهضة تركيا .

وحرصت على صلاة الجمعة فى أنقرة ، ولا جمعة على مسافر ، ولكنى رغبة أن أصلى الجمعة فى أنقرة معقل الكماليين ومصدر دعوتهم . فعمدت

(١) السيساء العمود الفقرى .

إلى جامع صغير هو أقرب الجوامع من أنقرة الجديدة ، ومن التمثـــال الأكبر للغازى .

بلغت باب الجامع فإذا الناس مزدحمين فى فنائه الصغير ، وإذا امرأة سائلة على الباب ترشد القادمين إلى أن فى داخل المسجد مواضع للصلاة . جزت الفناء مزدحماً بالمصلين إلى المسجد فاتخذت مكانى على عتبته بين صفوف مرصوصة فى الداخل والخارج .



تمثال الغازى فى أنقرة

سرنى أن يكون هذا التزاحم فى الصلاة على خطوات من التمثال الأكبر الذى يظن أنه أقيم محادة للدين . وخرجت أنظر إلى المسجد

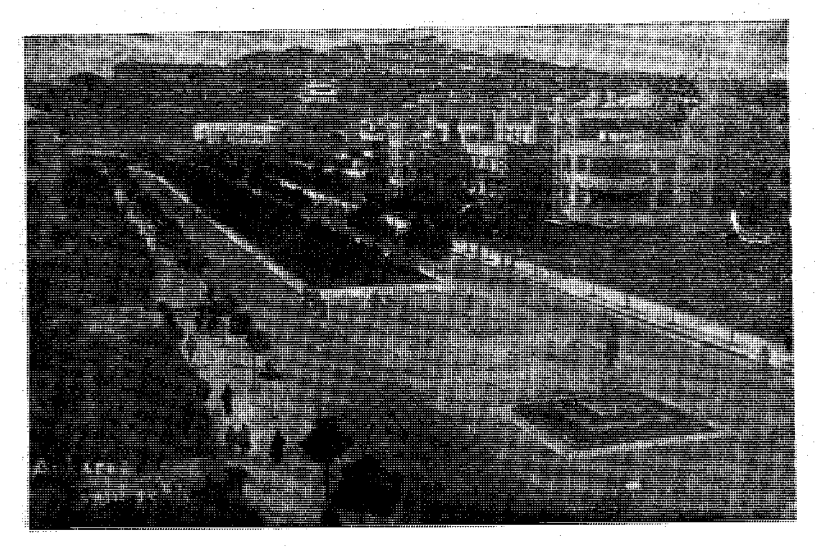
الصغير يموج بالمصلين ، و إلى النصب الـكبير يعلوه الغازى فارساً ويحف به تماثيل ترمز إلى جهاد الأمة رجالها ونسائها إبان حرب الاستقلال . قلت : إنما رفع هذا الفارس إلى مكانه من هذا النصب الإيمان المتمكن فى نفوس هؤلاء الرجال والنساء من هذه الأمة المرزأة الصابرة الكريمة . ما هذا التمثال فى حقيقة أمره إلا انتصار هذا المسجد فى البأساء ، وثبات إيمانه حين زلزلت الأرض . إن هذا تمثال البطولة ولكنه مدين لهذا المسجد على ما بينهما من تنافر .

— ٤ —

أمضيت يوم الجمعة وصباح السبت مطوفاً فى أنقرة إلى غير غاية ، وقطعت الجادة الكبيرة من أولها إلى نهايتها ذهاباً و إياباً ، ورأيت مدرسة الزراعة ودور الوزارات . ثم لقيت مساء السبت الأخ الكاتب الفاضل نور الدين ، وكنت ذهبت إلى جريدة أولوس مساء الجمعة فزرته وتواعدنا اللقاء ليهدينى إلى ما لم أر من مشاهد المدينة . ركبنا معاً فأصعدنا على السفح فمررنا بدار عصمت باشا فدار الغازى ودار أخته وهما مشرفان على المدينة . ودخلت بيت الشعب فى أنقرة (خلق أوى) . وفى كل مدينة تركية بيت للشعب تبث فيه الآراء ، وتعلم النظم التى يريدها للأمة حزب الشعب. و بيت أنقرة بيت ضخم أمامه تمثال للغازي ؛ صعدت إلى الطبقة العليا فى درج ضخم يرى الصاعد فيه على الجدار صورة كبيرة فيها قبر تيمورلنك . ورأيت حجرات منها حجرة كبيرة فيها أثاث شرقى وتحف جميلة أخبرت

أن الشاه رضا بهلوى استقبل فيها حينما زار أنقرة .

وسرنى أن رأيت فى هذه الحجرة ألواحاً تزينت بآيات من القرآن الكريم وأبيات من قصيدة البردة . والحق أنى ما حسبت بيت الشعب، وهو مبعث الدعوة الكمالية ، تعلق فيه ألواح القرآن ولو لإظهار براعة الترك فى الخط العربى الذى محاه الغازى من صفحات تركيا الحديثة . وقد تفاءلت خيراً وقلت : إنها الثورة ثم الهدوء، والجور ثم القصد، والإفراط ثم الاعتدال، وعسى أن يثوب إخواننا إلى كثير مما هجروا من تاريخهم .



الجادة الكبرى فى أنقرة

ولقيت رئيس بيت الشعب ، وهو أحد النواب فتحدثنا وألفيته مهتما بكتاب فى يده فرنسى يتضمن تاريخ النصيرية ؛ أطلعنى على نبذة من

الكتاب تعدد فرق النصيرية ، وتبين أن منها الشمسية أي عبّاد الشمس والقمرية أي عباد القمر والكلبية أي عباد الكلب . قال محدثي : الكلب في التركية إيت . قلت نعم . قال والنسبة إليه إيتي . قلت أجل . قال فكلمة إيتي (حيثي) كلمة تركية معناها « كلبي » . ووقف فكري مبهوتاً عند هذا الحد ، ومضى محدّثي يقول : فالنصيرية من الحيثيين فهم ترك . أو كما قال . قلت : نعم وفوق كل ذي علم عليم .

ولست أخفي على إخواننا الترك أني قرأت وسمعت كثيراً من نظرياتهم الحديثة في أصل الحضارة والإنسان ومدنية المصريين واليونان وردّ هذا كله إلى أصل تركي ، وسمعت بنظرية لغة الشمس (كونش دلي) وهي اللغة التركية أصل لغات العالم كلها ، وعرفت رأيهم في السومريين والحيثيين وأمثال هذا . فرأيت أن عقل الأمة التركية وشرفها يحتمان عليها الرجوع عن مثل هذه الأقاويل . إن في حقائق التاريخ التركي ما يغنيهم عن التعلق بالخرافات التي يسخر منها العقل .

ضاق الزمان عن إطالة الإقامة في أنقرة لأعرف ما أريد من ماضيها وحاضرها فبرحتها عائداً إلى إسكيشهر في قطار الليل .

٣١ — من إسكيشهر إلى قونية

— ١ —

رجعت من أنقرة إلى إسكيشهر يوم الأحد كما ذكرتُ آنفاً فمكثت بها بقية اليوم ثم ركبت قطار المساء والساعة ست ميمماً قونية ؛ وكانت زيارة قونية مُنية في النفس حاولتها حينما سافرت إلى استنبول من قبل لحال دونها

بعد الشقة . وبينها وبين إستنبول أكثر من عشرين ساعة بالقطار . وكنت حينئذ أهاب اختراق الأناطول . فلما اخترقته فى هــذه السفرة ، وأنست بالسفر فيــه ، عزمت على الرجوع إلى الشام من الطريق التى أتيت منها . وكانت قونية أحب بلاده إلىّ ، وكانت نفسى على رؤيتها أحرص . وإنما أرَبى من قونية زيارة مولانا جلال الدين .

كان معى فى القطار شاب من قونية ، معه زوجه ؛ فحدثنى عن الترك وتمسكهم بدينهم ، وما فعلوا فى الحرب ، وكيف توغل اليونان فى الأناطول حتى قذفهم أبطال الترك فى البحر ! وقال : إنهم قاربوا قونيــة ، ولــكن مولانا جلال الدين ردّهم عنها . قلت فى نفسى : هذه كلمة ظاهرها خرافة وباطنها حق ؛ فإن ما يبثه جلال الدين فى النفوس من قوة وإيمان وجهاد وحرية جدير أن يرد كل عدو عن حماه.

— ٢ —

بلغ القطار قونية والساعة ست ونصف من الصباح فمضيت إلى فندق اسمه فندق سلجوق فاسترحت بمقــدار ما حال التعب الشديد بينى وبين مشاهدة المعاهد التى طال اشتياقى إليها . ثم خرجت إلى المــكتبة « ملت كتبخانه سى » فألقيت نظرة على فهارس المــكتبة ولا ســيما العربية منها فلم أجد فيها من نفائس الــكتب أو غرائبها ما يستوقف الباحث . وأرسل معنا قيم المــكتبة رجلا من الموكلين بالآثار فذهب بنا إلى حيث يدفعنا الشوق ويدعونا الحب ، إلى البقعة التى ترسل الشعر والحــكمة والتصوف

فى آفاق الإسلام منذ ستة قرون ، إلى المزار الذى استبدل به صاحبه قلوب العارفين .

فلا تطلبن فى الأرض قبرى فإنما صدور الرجال العارفين مزارى

إلى الذكرى العظيمة التى لاتزال تدوّى فى القلوب تُقى وشعراً ، وفى العقول حكمة وإيماناً ، وفى الآذان موسيقى وغناء ، إلى النبوغ الذى مزج الحكمة والتصوف والشعر فى أحسن تقويم ، إلى الرجل الذى أنبتته بلخ وظفرت به قونية ولكن لم يسع قلبه وعقله مكان ، إلى الحكيم البكرى الذى لا تحده الأنساب والأوطان ، إلى صاحب المثنوى والديوان مولانا جلال الدين الرومى الذى تنسب إليه الطائفة المولوية المعروفة فى مصر والأقطار الإسلامية . وقد اشتهرت مجالسهم فى السماع ، يجتمعون على نظام خاص ويدورون بترتيب محكم على نغمات الناى وإنشاد المثنوى .

والناى عند المولوية رمز إلى الحنين الدائم إلى العالم الروحى . وقد بدأ مولانا جلال الدين كتاب المثنوى بنشيد الناى وأوله :

استمع للناى غنى وحكى شفه البين طويلا فشكا
مذ نأى الغاب ـ وكان الوطنا ـ ملأ الناس أنينى شجنا
من تشرده النوى عن أصله يبتغى الرُجعى لمغنى وصله
أين قلب من فراق مُزّقا كى أبثّ الوجد فيه حُرقا ؟
كلُّ ناد قد رآنى نادبا كل قوم تخذونى صاحبا
ظن كل أننى نعم السمير ليس يدرى أى سر فى الضمير

إن سرى فى أنيني قد ظهر   غير أن الأذن كلّت والبصر
إن صوت الناى نار لا هواء   كل من لم يصلها فهو هباء
هى نار العشق فى الناى تثور   وهى نار العشق فى الخمر تفور . الخ



دار المولوية فى قونية

وكان المولوية فى تركيا شأن عظيم . وكان رئيسهم (جلبى قونية) يقلد سلاطين العثمانيين السيف حين يتولون الملك .

وكذلك كان لهم أثر عظيم فى الأدب ، وحسبك من شعرائهم الشيخ غالب .

— ٣ —

هذه دار المولوية ولكن لا أرى الوفود متزاحمة على بابها ، ولا أرى الدار آهلة بنزّالها ؛ قد أقفر الندى ، وخلا السامر ، وعُدت الدار من الآثار ، يدخل إليها بالمال الصالحون والفجار .

يلقى الداخل سوراً يتوسطه باب عتيق فوقه ظُلة وعليه ثلاثة أبيات بالتركية تدل على أن السلطان مراد خان بن سليم خان بنى هذه الخانقاه سنة ٩٩٢ ﻫ . ومراد هذا هو مراد الثالث بن سليم الثانى بن سليمان القانونى (٩٨٢ — ١٠٠٣ ﻫ) . فإذا ولج رأى فناء ينتهى إلى الشمال بحجرات كانت مساكن المولوية ومجالسهم ومطابخهم ومأوى ضيوفهم . وإلى اليمين حجر رفيعة اتخذت الآن مكتبة ، وأمام الداخل بناء كبير تعلوه فى الجهة اليمنى قبة خضراء مخروطية ، تحلق فوق قبر جلال الدين ، وفى الجهة اليسرى مئذنة وقبتان كبيرتان . ويُدخل إلى البناء من باب جميل مصنع تعلوه كتابة فيها هذا الشعار الذى يُرى على كثير من أبنية المولوية : « ياحضرت مولانا » ويُفضى الباب إلى حجرة فيها آثار للمولوية ؛ فيها كتب ونسخ من المثنوى هى أقدم نسخه وأنفسها . ثم باب آخر يفضى إلى قبور المولوية والمصلى ودار السماع (سماعخانة) : إلى اليمين رواق عليه قبة يفصله سياج وستر تمنع الناس أن يدخلوا إليه أو يروا ما فيه إلا أعالى ضريحين كبيرين : أحدهما لجلال الدين والآخر لأبيه بهاء الدين . ويبدو ضريح

الأب من وراء السياج مستطيلا رأسيا . فيقول العامة : لقد قام بهاء الدين في قبره إجلالاً لابنه !

وفي وسط البناء رواق بناه السلطان الفاتح ، وإلى اليسار مصلى ودار للسماع من آثار السلطان سليمان القانوني .

وفي البناء من عجائب الخط والنقش والتذهيب والكتب والبسط ما يبهر الناظر . وفيه من ملابس مولانا وآثاره وآثار بنيه .

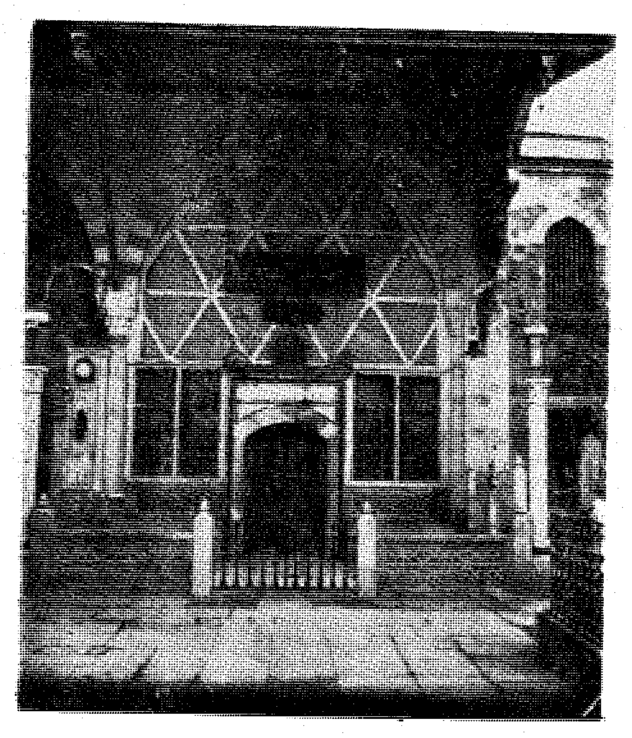
رأيت أربع قلانس ، قيل : إن إحداها قلنسوة مولانا ، وأخرى لابنه سلطان ولد ، والثالثة لشمس الدين التبريزي ، والرابعة لحسام الدين چلبي ، من كبار أصحاب جلال الدين .

ورأيت ثلاثة مصاحف كتبت في أواخر القرن التاسع ، فيها ترجمة تركية ، ومصحف سلجوقي بين سطوره ترجمة فارسية ، ونسخاً من شروح المثنوي ، ونسخة من الفتوحات المكية يقال إنها بخط الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي .

ورأيت سجادة عليها صورة الكعبة . قيل إنها كانت لأم جلال الدين مؤمنة خاتون بنت السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، وسجادة أخرى يقال إن السلطان علاء الدين السلجوقي أهداها لجلال الدين يوم عرسه ، عليها الآية : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » .. وقناديل صنعت في مصر ... الخ .

أطفنا بجوانب المكان نستمع إلى الدليل ، وللذكرى في نفوسنا صوت أبين من صوته وأصدق وأجل ، ولكني أستعيذ بالله من قول القائل :

يك طواف مرقد سلطان مولانا ى ما
هفت هزار وهفصد وهفتا دحج أكبرست
« طوفة بمرقد مولانا سبعة آلاف وسبعمائة وسبعون حجا أكبر »



باب البناء الذى فيه ضريح جلال الدين وأولاده

ثم خرجت وفى النفس حنين إلى البقاء ، وعزم على العودة .

خرجت أمشي يقول قلبي للرجل : بالله أنظريني

وعدت فى اليوم التالى فلقيت أمين الدار ، وكنت واعدته اللقاء

لاشتراء بعض الصور . فقلت : أريد تجديد العهد بالمزار فدخل معى يطوف فى أرجائه ويصف ما يرى ويروى من التاريخ . وخرجت ولم أقض حاجات الفؤاد من رؤية ما وراء السياج . ونعوذ بالله من الحجاب، إن شر ما يلقى الصوفى أن تسدل الحجب دون آماله ، ويحال بينه وبين مقصوده . خرجت كارهاً أتثاقل لأمضى مع الرجل إلى داره ، فيعرض علىّ ما صور من آثار قونية . قال : أأنت أستاذ ؟ قلت : نعم . قال : انتظر . ثم أشار إلى فتبعته فرجع إلى المزار وتلفت ، ثم أشار إلى وفتح باب السياج فتبعته . قال : نحن نمنع العامة من الدخول ونمكن الأساتذة الباحثين من رؤية ما يشاءون . فشكرت له وسرت إلى ضريح جلال الدين بين قبور كثيرة لشيوخ المولوية من أولاده . وقفت وقفة أناجى الروح العظيم وأستلهم حكمته وعظمته . ثم خرجت وفى النفس ما فيها من جلال الذكرى وثورة الشوق

— ٤ —

ورأينا من آثار قونية مسجد علاء الدين السلجوقى وقصره . وهما من أعظم آثار السلاجقة هناك ؛ يقومان على ربوة المدينة تسمى ربوة علاء الدين (علاء الدين تيه سى) .

ورأينا على مقربة من الربوة مدرسة قره داى وزير السلطان علاء الدين . ولا يزال فيها من عجائب الصنعة، ولا سيما الكاشانى ، ما يخلدها على رغم الزمان الذى ذهب برونقها ، وكثير من نقوشها .

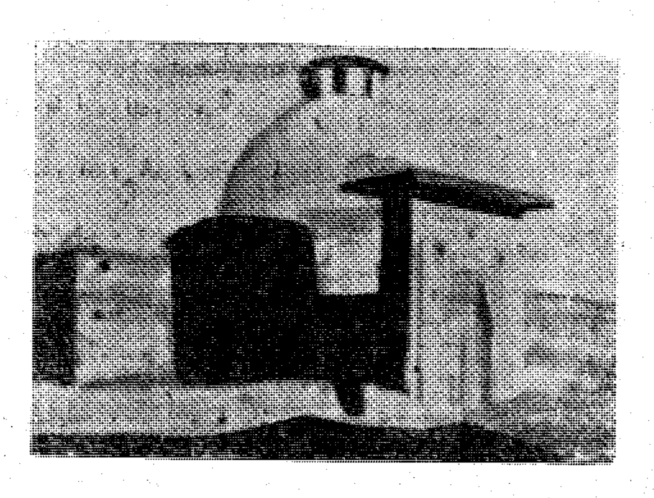
وعلى باب المدرسة آيات وأحاديث وكلمات عربية . منها : رب أوزعنى

أن أشكر نعمتك . إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . السماع رباح . العسر شؤم . الحزم سوء الظن . الولد مجبنة مبخلة .

وفى المدرسة بهو عليه قبة ، وإيوان وحجر قليلة كانت للطلاب ، وحجرة فيها ضريح صاحبها .

وزرنا مدرسة خربة تسمى صرچه لى مدرسة بنيت سنة ٦٤٠ هـ و مدرسة صغيرة لحفظ القرآن كتب على بابها :

« أنشأ هذه البقعة فى أيام دولة السلطان محمد بن علاء الدين خلد الله مملكته صاحب الخيرات والحسنات محمد بن الحاج خاصبك الخطيبى أعلى الله شأنه . وجعلها دار الحفاظ سنة أربع وعشرين وثمانمائة » .



مدرسة قره داى فى قونية

نقلب : هذا تاريخ محرف ؛ فقد انتهت دولة السلاجقة قبل هذا

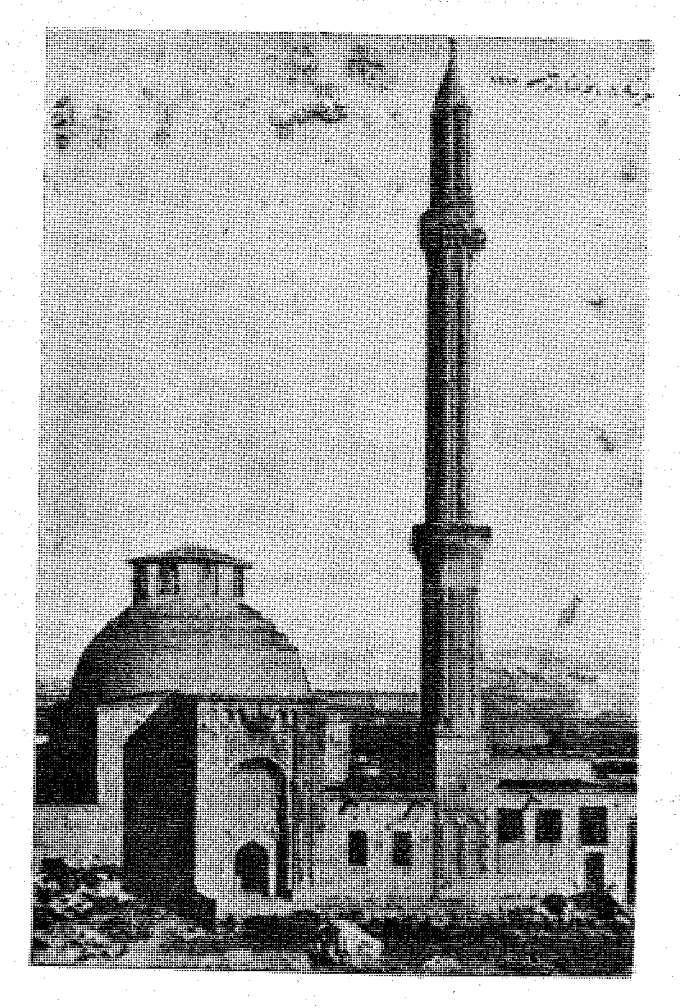
التاريخ . ولعل البناء شيد سنة أربع وعشرين وستمائة فى عهد علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ — ٦٣٤) ثم بدا لى أن السلطان المذكور هنا من سلاطين بنى قرمان الذين خلفوا السلاجقة فى قونية والله أعلم .

ومن عجائب الآثار وبدائع الصنعة مدرسة إينجه منارة (مدرسة المنارة اللطيفة) . وأنا أعفى القارئ من وصفها وأكتفى بما تنطق به الصورتان المثبتتان هنا .

ولا يسعنا أن نغفل جامع صاحب عطا (صاحب آتا) بناه أحد وزراء السلاجقة الكبار فخر الدين على بن الحسين بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨٤ وقبره فى إيوان داخل المسجد ومعه خمسة قبور . وتدل الكتابة على مدخل الإيوان أنه بنى فى مفتتح المحرم سنة ٧٦٢ .

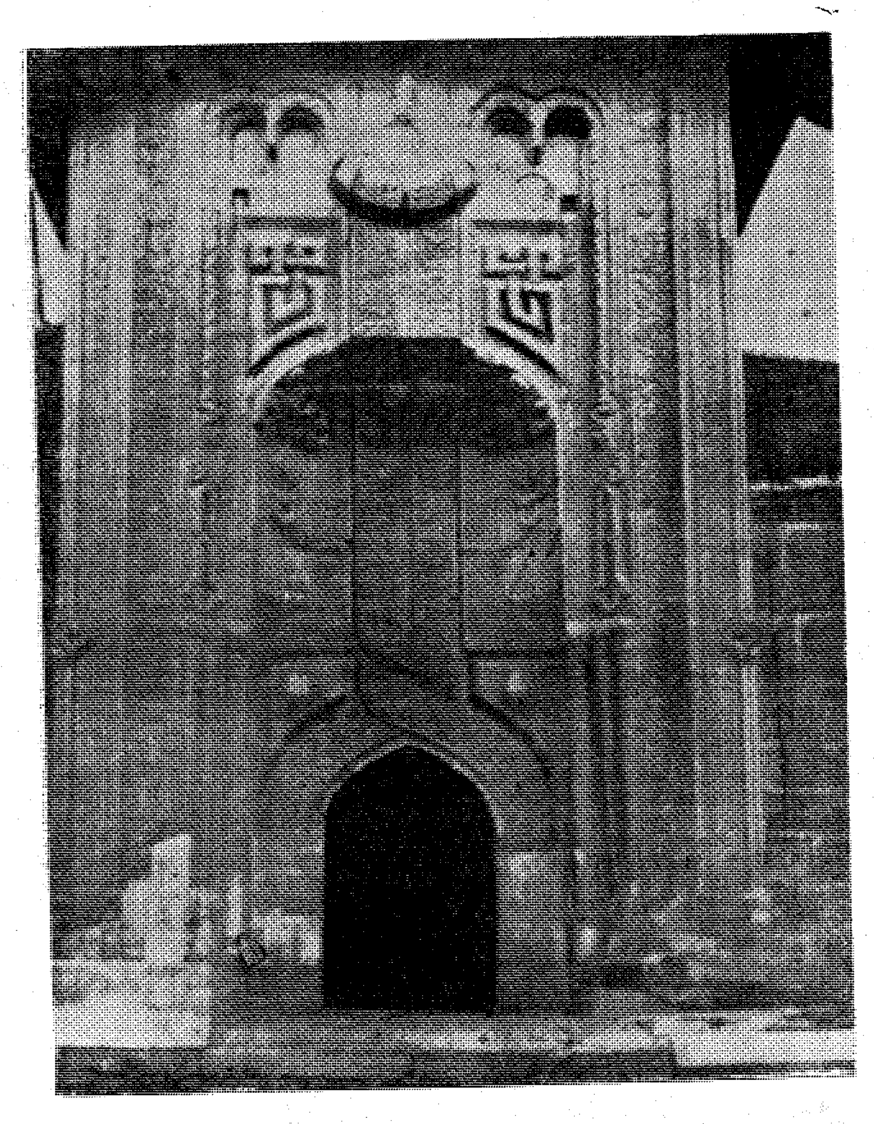
وفى أطراف المدينة على مقربة من المزارع مسجد صغير فيه قبر العالم الكبير صدر الدين القونوى المتوفى سنة ٦٧١ ؛ وكان من الأساتيذ فى علوم الدين والتصوف . وكان واسطة بين الشيخ الأكبر محيى الدين ومولانا جلال الدين . تزوج محيى الدين أمه ورباه . وعنه أخذ جلال الدين فيما يقال . وله مؤلفات فى التفسير والحديث والتصوف .

ذهبت إليه وحيداً قبيل الغروب فما زلت أسأل حتى اهتديت إليه فألفيته مقفلا . فسرت قليلا وعدت فإذا رجلان جالسان بجانب الباب أحدهما ضرير . فلما اقترب المغرب قلت : ألا يفتح المسجد ؟ ففتحا الباب فدخلنا إلى مسجد صغير عُطل من جمال الصنعة والزينة فتقدم أحد الرجلين



مدرسة إينجه منارة (المنارة اللطيفة)

فألق قبعته ووضع العمامة فعرفت أنه الإمام . وتقدم الآخر وعلى رأسه « كاسكت » فأداره وأقام الصلاة ، فصلينا المغرب وحدنا . وسألت عن



باب مدرسة اینجه مناره

ضريح صدر الدين فأشير إلى نافذة تطل إلى حديقة صغيرة . فنظرت فإذا قبر بجانب النافذة فوقه عريش من الكرم وبجانبه أشجار .

ولم تقر نفسي دون أن أرى مثوى الصوفي العجيب الغريب الذي اتصل بجلال الدين فحوله من الدرس إلى الخلوة ، ومن أستاذ علم إلى مريد طريقة ، الرجل الذي أثار حوله الظنون والأيدي حتى قتل في إحدى الثورات عليه ، فما زال جلال الدين يشيد بذكره ويلهج به في شعره حتى سمى ديوانه الكبير باسمه . ذلكم شمس تبريزي (شمس الدين محمد بن علي التبريزي) الذي يقول فيه جلال ، وما أكثر ما قال فيه :

نه من تنها سرايم شمس دين وشمس دين .

مي سرايد عند ليب أزباغ وكبك أز كوهسار

باسمه الورق والعنادل تشدو لست وحدي أنوح : شمس الدين

عزمت على زيارته فقيل إن المزار مغلق لايفتح لأحد . فاكتفيت بمشاهدة البناء على بعد . ثم لج بي التطلع فسرت إليه ليلاً فجارت بي طرق متعرجة ضيقة فرجعت آسفاً وأعجلني السفر المبكر عن المسير صبحاً . وإن قدر لي الرجوع إلى قونية كانت زيارة شمس الدين أول ما أفعل .

— ٤ —

قونية مدينة كبيرة في ولاية واسعة تسمى باسمها . وهي على حافة صحراء كبيرة يمر بها نهر صغير ينتهي إلى بحيرة غربيها . وتبعد ٤٥٠ كيلاً من استانبول إلى الجنوب الشرقي منها . ويتصل بها سهل خصب

جدا تـكثر خيراته إذا أصابه مطرجود ، ونهرها وينابيعها لاتفى بإروائها ، وصناعة النسيج بها رائجة .

وهى كثيرة المساجد بها زهاء ١٥٠ مسجداً و ٥٠ جامعاً ، وأهلها معروفون بالدين والتقوى .

وبها كثير من آثار السلجوقيين إذ كانت حاضرة دولتهم فى آسـيا الصغرى .

وهى مدينة قديمة عرفت أيام اليونان والرومان . ومن الأساطير التى تروى أن تنيناً سلط عليها فـكان يبلع النساء والصبايا حتى قتله برسبوس ابن جوبيتر (المشترى) فوضع أهلها على أحد أبوابها تمثالاً لهذا البطل الذى نجاهم من التنين فسميت المدينة إيكونيوم أخذاً من كلمة إيكون أى الصنم أو التمثال .

إذا وقف الإنسان على ربوة علاء الدين رآى أمامه ميـداناً كبيراً فيه أنصاب حديثة للجمهورية التركية ، وأبنية ومساجد . وينتهى النظر إلى قبة مولانا جلال الدين تبدو من وراء الأبنية . وبها شوارع مديدة واسعة . منها الجادة التى تمتد من الربوة إلى المحطة وفيها تمثال عظيم للغازى . ويرجى المدينة مستقبل عظيم . ولا ريب أنها كانت أيام السلاجقة أعظم عمراناً وأكثر سكاناً .

وقد زارها ابن بطوطة بعـد زوال دولة السلاجقة واسـتيلاء أمراء بنى قرمان عليها فقال :

« مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين — وقد تقدم ذكره — ويحمل منها أيضاً إلى ديار مصر والشام . وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة . ويقال إن هذه المدينة من بناء الإسكندر . وهى من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وقد تغلب عليها صاحب العراق فى بعض الأوقات لقربها من بلاده التى بهذا الإقليم .

نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه ، وهو من الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا . وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم فى الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة .

وكان صنيع هذا القاضى فى إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجمل ، وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا .

وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا . وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الأحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر » اهـ .

ولا أنسى مسيرى فى قونية ليلة الوداع وانتحائى منتدى قرب المحطة وجلوسى تحت أشجار هناك إلى نافورة كأن وسوستها فى صمت المكان مناجاة أو حديث نفس .

وبينا يجول الفكر فى مشاهد قونية وتاريخها ، ويطير بينى وبين الوطن والأهل فى لمحات ، انبعث المذياع مبلغاً رسالة مصر كأنها جواب النجوى . ولست أدرى أعرف صاحب المتقدى أنى مصرى فآنسنى ، أم كان اتفاقاً أجاب حديث الضمير . وكثيراً ما سمعت فى استنبول وقونية صوت مصر ، لاسيما حين تلاوة القرآن .

١٤ — من قونية إلى أطنة (أذنة)

فصل القطار من قونية والساعة سبع وعشر دقائق من صباح الثلاثاء عاشر رجب سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف (١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٧) وكان مقصدنا أذنة ، والمسافة بينهما يقطعها القطار فى إحدى عشرة ساعة .

سرنا برهة نرى أرضاً مخضرة شجراء ، ثم ضربنا فى سهل قاحل ، وبعد ثلاث ساعات وعشرين دقيقة وقف بنا القطار على قرمان . فرأينا من المدينة على بعد قلعة قديمة فى إقليم شجير . وهى على ٥٧ كيلا إلى الجنوب الشرقى من قونية ، وكانت حاضرة بنى قرمان الذين أقاموا إمارة حين ضعفت دولة السلاجقة ، وبقى الأمر فى أعقابهم أكثر من قرنين (٦٥٤ — ٨٨٨ هـ) . وسميت المدينة قرمان باسمهم ، وكانت قبلاً تسمى لارنده . وبهذا الاسم ذكرها ابن بطوطة ، وقد زارها فى عهد سلطانها بدر الدين بن قرمان ، وهو ابن مؤسس الدولة كريم الدين بن قرمان .

يقول ابن بطوطة :

« وكانت قبله لشقيقه موسى ، فنزل عنها الملك الناصر — أظنه يعنى محمد بن قلاوون — وعوضه عنها بعوض ، وبعث إليها أميراً وعسكراً ، ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين ، وبنى بها دار مملكته ، واستقام أمره بها . ولقيت هذا السلطان خارج المدينة ، وهو عائد من تصيده . فنزلت له عن دابتى ، فنزل هو عن دابته . وسلمت عليه وأقبل على .

ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا فى إكرامه . وإن سلم عليهم راكباً ساءهم ذلك ، ولم يرضهم ، ويكون سبباً لحرمان الوارد — وقد جرى له ذلك مع بعضهم وسأذكره —

ولما سلمت عليه وركب وركبت ، سألنى عن حالى وعن مقدمى . ودخلت معه المدينة . فأمر بإنزالى أحسن نزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهة والحلواء فى طيافير الفضة ، والشمع . وكسا وأركب ، وأحسن ولم يطل مقامنا عنده ، وانصرفنا إلى مدينة أقصرا » اه .

وقد لقيت فى القطار بين قونية وأطنة اثنين من حلب يقيمان فى قونية فعرفت منهما طرفاً من صناعة النسيج فى المدينة . وكان فى المقصورة التى ركبت فيها رجل من إسكيشهر اسمه محمد أصله من مهاجرى رومانيا ، وآخر اسمه عمر من قونية ، وآخر اسمه سعد الدين من ينى كوى ، وقد أخبرنى أنه طبيب وعرفت من أحاديث الرفاق أن تيسير الحكومة التركية السفر ، وإرخاصه إبان معرض أزمير يرغبان الناس فى الأسفار لتعرف أرجاء البلاد ، والاستفادة مما يقفون عليه من أحوال التجارة والصناعة .

وقد تحدث رفيقنا الطبيب ، فيما تحدث ، عن حب الترك المصريين ، وفرحهم بتقدمهم وترحيبهم بهم فى ديارهم . وساق الحديث إلى العراق فقال : وكذلك نحب أهل العراق ونحفظ عهدهم . ولكن أهل الشام لم يرعوا أخوتنا وعهدنا إبان الحرب ، حتى لم يتورعوا أن يقتلوا مرضانا فى المستشفى ؛ فأكبرت هذا واستفظعته وأنكرته . فأيد قوله حلمى كان حاضراً . قلت : لعن الله الفتنة إنها تثير الخصام ، وتقطع الأرحام ، وتضرب الصديق بيد الصديق ، وتملن القريب بفرية البعيد . وما أعرف أهل الشام إلا أهلا لكل خير . وما لنا والماضى القريب الذى ظلم فيه الترك العرب فثار العرب على الترك ؟ لماذا لا نرجع إلى العصور المتطاولة فنرى تآخى الأمتين فى السراء والضراء قروناً كثيرة ؟ ولماذا لا ننظر إلى الحاضر والمستقبل فنرى أن منفعتنا وأواصر كثيرة تقضى علينا بالمودة والصداقة ؟ .

ثم مررنا بأريلى ؛ وهى قصبة على ١٣٠ كيلا إلى الجنوب الشرقى من قونية ، كثيرة المياه والشجر والفاكهة . ونزل بعض الركاب ورجعوا إلينا وفى يد كل منهم رأس ضأن مطبوخ . وقالوا : هذا بلد مشهور بالرءوس . وكنت أوصيت خادم القطار بغدائى . فلما حضر شاركت رفيق إسكيشهر فخلطت طعامى بطعامه فلم تفتنى رءوس أريلى اللذيذة .

وبلغنا أولو قشلة والساعة واحدة وخمس وأربعون . وهى قرية يلتقى عندها سكتا الحديد : السكة الآتية من قونية وإسكيشهر والأخرى الآتية من قيصرية وأنقرة . وهذا الموضع مبدأ جبال طوروس من الناحية الشمالية

ارتفاعه ١٤٢٦ متراً . وعادت جبال طوروس بمرائيها الرائعة وقممها وأوديتها الهائلة . وقد وصفتها من قبل .

ومررنا بقره بيكار ، وهى معروفة بمياهها العذبة اللذيذة . وفى تركيا أنواع من مياه الينابيع تهتم الحكومة بحفظها ونقلها فى القوارير إلى أنحاء المملكة . ورأيت فى استانبول حوانيت لشرب هذه المياه خاصة . وأذكر أننى حين ركبت القطار من حلب إلى استانبول ألفيت فى القطار ماء من هذه المياه فأكثرت منه حين الطعام وبين الطعامين . وكان معى رفيق إنكليزى فسأل عن ثمن الزجاجة . قلت : لا تسأل قبل أن نستمتع بهذا الماء اللذيذ ، فإنى أخشى أن يكون غالياً . فدعنا نشرب على جهل بثمنه .

١٥ — أذنة (أطنة)

وقف القطار على أذنة والساعة ست ونصف مساء بعد مسيرة إحدى عشرة ساعة من قونية . فنزلت فى فندق اسمه ينى أوتل أى الفندق الجديد . وكان بعض الرفاق أخبرنى أنه وفندقاً آخر لأحد البغداديين أحسن فنادق المدينة .

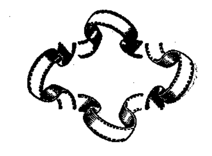
ذهبت بعد الاستراحة إلى حديقة على نهر سيحان تسمى سيحان بارك أى حديقة سيحان . فرأيت مكاناً واسعاً مضاء به مجالس جميلة مشرفة على النهر وفيه مطعم كبير ومسرح .

ولما أصبحت سرت فى المدينة فإذا شارع طويل يمتد من المحطة ، وهى

خارج البلد ، ويسير فى طرف المدينة بين أبنية جديدة أروعها نصب ضخم فيه تمثال يعلوها تمثال الغازى مصطفى كمال . وتماثيل الغازى وما يتصل به من أنصاب تمثل تحرر الأمة التركية واستقلالها ، تقابل زائر كل مدينة تركية كبيرة .

ثم يخترق الشارع المدينة كلها حتى ينتهى إلى نهر سيحان، ويرى السائر فيه نشاط التجارة وكثرة السابلة والعربات .

وكان مفتى إسكى شهر قال لى : إن الإنسان ليجد فى أذنة رائحة بلاد العرب . وحق أن المدينة فى سهل واسع خصب حار ينبت به زرع البلاد الجنوبية ، وتبدو فى أفقه نخلات بين الحين والحين . ومنظر الأرض جنوبى طوروس يخالف منظر الأرض شماليه. وكذلك الهواء يختلف كثيراً، وأذنة حارة رطبة لايجف عرق السائر فيها صيفاً ولا يستطيع ساكنها إغلاق منافذ مسكنه .



١٦ — فى طرسوس

هذه مدينة أذنة (أطنة) ، قدمتها البارحة ، وسيمر بها اليوم قطار طوروس السريع ذاهباً إلى الشام ، وهو يمر بها ثلاث مرات فى الأسبوع . فإن فاتنى قطار اليوم، فلا مفر من الانتظار فى أذنة إلى السبت . إن هواء أذنة حار ، وليس فيها مايشغل الزائر ثلاثة أيام ، ففيم التلبث ؟ إن لى فى طرسوس أرباً ولابد لى أن أزور طرسوس . إنها قريبة بينى وبينها مسيرة ساعة للقطار . ولو كانت بعيدة لما ترخصت فى القعود عنها . إن لم يتيسر لى العودة منها قبل موعد القطار فليذهب قطار الأربعاء ، وليذهب قطار السبت ، فما عن زيارة طرسوس معدى . إن فى القلب لحنيناً إليها ومن أمانيه وقفة فيها :

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا   من دموع بوقفة بالعقيق

أأجاوز أذنة صوب الجنوب دون أن أرى طرسوس ؟ أعظم به من عقوق ، وحرمان للنفس مما تمنت سنين طوالاً !.

ما شأن طرسوس ؟ ما الذى يشوقنى فيها ؟ إنها مدينة صغيرة كئيبة المنظر ، فما الذى حببها إلى ؟ لله أى كنز فى طرسوس دفين ! وأى تاريخ كبير فى تراب هذه المدينة الصغيرة !.

حاولت أن أبكر إليها فأعود فأدرك قطار طوروس ، ولكن فاتنى

قطار ســــت ونصف من الصباح وكان على أن أختار إحدى النيتين : إما قطار طوروس وإما طرسوس .

أخذت القطار إلى طرسوس والساعة ثمان ونصف .

هذه طرسوس أحد الثغور القديمة بين المسلمين والروم ، طرسوس التى فتحها الرشيد ومات فيها ابنه المأمون غازياً كما مات هو فى طوس . لله همة أبعدت بهذين السهمين من بغداد إلى الشرق والغرب . من كان يظن أن الرشيد والمأمون كانا مترفين من أبناء النعمة وأخدان القصور فيلعلم أن الرشيد كان همة لاتفتر بين الحج والغزو :

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور

وأن المأمون لم يقعد عن قيادة الجيش إلى ثغور الروم ، وأنه لقى حتفه غازياً فى هذه المدينة النائية :

ما رأينا النجوم أغنت عن المأ مون فى ظل ملكه المحروس

غادروه بعرصتى طرســـوس مثلما غادروا أباه بطوس

يقول ياقوت :

« وبينها وبين أذنة ستة فراسخ ، وبين أذنة وطرسـوس فندق بغا والفندق الجديد . وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب ويشقها نهر البردان ...

وما زالت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين ، ثم لم تزل مع المسلمين فى أحسن حال . وخرج منها جماعة من أهل الفضل إلى أن كانت ســنة ٣٥٤ فإن نقفور ملك الروم استولى على الثغور وفتح المصيصة كما نذكره فى موضعه » .

كانت طرسوس ثغراً تتكسر عنده غزوات الروم ، وفى إقليمها غزا أمير العرب وشاعرهم سيف الدولة وأبو الطيب المتنبى .

واستولى عليه الروم سنة ٣٥٤ ، حين مرض سيف الدولة ، فخربوا مساجدها وجلا كثير من أهلها . يقول ياقوت :

« وملك نقفور البلد فأحرق المصاحف ، وخرب المساجد ، وأخذ من خزانة السلاح مالم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بنى أمية إلى هـــذه الغاية ... » اهـ .

ثم دخلت فى حوزة المسلمين حينما امتد سلطانهم على بلاد الروم من بعد . وبعد الحروب الصليبية استولى عليهـــا المصريون . ثم استولى عليها بنو رمضان الذين حكموا أذنة وما حولها فى القرن الثامن الهجرى إلى أن أديل منهم للعثمانيين .

ذكرت كثيراً من وقائع الدهر فى طرسوس ، وذكرت الرشيد والمأمون وسيف الدولة والمتنبى وقصيدته السينية التى مدح بهـا محمد بن زريق فى طرسوس :

هذى برزت لنـا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

ورثيت للشاعر حين ذكرت أن الممدوح أعطاه عشرة دراهم ، فقيل له : إن شعره حسن . فقال : « ما أدرى أحسن هو أم قبيح ولـكن أزيده لقولك عشرة دراهم » .

ركبت فى طرسوس عربة ومعى رفيق إسكيشهر ، وكان الحوذى يعرف العربية . ولا تـكلم أحداً فى هذه النواحى بالعربية إلا أجابك .

قلت . أين منسج راسم بك ؟ فذهب إلى معامل عظيمة للنسج لمحمد بك راسم المصرى . ولم أجد البك هناك ولكنى رأيت المناسج الكبيرة وسرنى ما رأيت فيها وما سمعت .

وسألت رجلا هناك . أتعرف قبر الخليفة المأمون ؟ المأمون بن الرشيد مات هنا ودفن . فهل عندكم علم عن قبره ؟ قال لا . ولكن هنا شيخاً خبيراً بالآثار ، لعل عنده علماً . غاب عنى قليلا ، وعاد يصف للحوذى الموضع . انتهى السائق إلى جامع كبير له سور عال ضخم كأنه أعد للقتال وعلى مقربة منه خانات كبيرة ، وبجانبه تكية مغلقة . دخلنا الجامع إلى صحن واسع يحيط به أروقة تمتد على جدار الباب ، وعن اليمين والشمال ، وفى وسطه حوض مظلل ؛ ويفصل الصحن والمسجد جدار دخلنا من باب فيه إلى مسجد مستطيل فيه ثلاثة عقود تقوم على صفين من العمد .

وفى الجدار الشرقى من المسجد كوة تطل على التكية المغلقة . نظرت منها فإذا مصلى مسقوف ، وإذا ثلاثة قبور ، أشار خادم المسجد — وهو حلبى الأصل — إلى أقربها إلى الكوة وقال : هـذا قبر المأمون . قلت أرأيت عليه كتابة ؟ قال . أجل ! ثم سألت ناساً فى طرسوس وأذنة فاتفقت كلمتهم على وصف القبر وموضعه . وأخبرنى بعض علماء العرب والترك أنهم رأوا القبر وقرأوا عليـه اسم الخليفة المأمون . وأما المؤرخون فقد أجمعوا على أن المأمون دفن فى طرسوس .

هنا الخليفة العظيم … ! هنا الرجل العالم المحب للعلم والعلماء … ! هنا

الملك العفو الذى قال : لو علم الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالذنوب ... !
هنا عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ... !.

رحم الله أبا العلاء :

أنتم بنو النسب القصير فطولكم | باد على الكبراء والأشراف
والراح إن قيل ابنة العنب اكتفت | بأب عن الأسماء والأوصاف

هنا أمير من أمراء المؤمنين يفتخر به تاريخ الإسلام . وحق على الأمم الإسلامية كلها على اختلاف أجناسها أن تشيد بذكره ، وتعظمه فى قبره .

لقد درست قبور الخلفاء والعباسيين فى بغداد وسامرا . فلا يعرف لواحد منهم قبر اليوم حاشا قبر هرون ، الذى طمست عليه عصبية الشيعة فى طوس ، وحاشا قبر المأمون الذى طمس عليه النسيان فى طرسوس أو كاد .

تمنيت أن أجلس إلى قبر المأمون ساعة ، فأسجل ماتوحيه إلى نفسى عظمة الماضى ومصائب الحاضر ، وغير الزمان ، وتقلب الأيام ، وما يبعثه فى النفس ذكر المأمون ، وجواره من عظمة وإعجاب ، وفخار وعبرة !

ثم جلت فى طرسوس ، فرأيت مساجد عتيقة ، ولكنى أصغرت كل شىء فلم أبال به ، بعد أن وقفت على قبر الخليفة الكبير المأمون بن الرشيد رحمها الله ! ...

***

بعد أن كتبت هذه الكلمة عن طرسوس لقيت الشيخ العلامة

خليلا الخالدى فتحدثنا عن هـذه البلدة وما كان لها من شأن فى الثغور الإسلامية . فقال الشيخ :

كنت أعجب حين أقرأ فى تاريخ كثير من علمائنا أنهم رحلوا إلى طرسوس وأقاموا بها ، وأقول : ما لهؤلاء العلماء وما لطرسوس هذا الثغر القصى ؟ . وما زال بى العجب حتى قرأت فى سيرة أحدهم أنه سافر للحج وذهب إلى طرسوس للرباط . فعلمت أن رحلة علمائنا رضى الله عنهم إلى هذه المدينة إنما كانت لأداء هذه السنة الإسلامية ، مرابطة العدو فى الثغور.

فمن رحل إلى طرسوس أبو عبيد القاسم بن سلام ، أقام بهـا زهاء اثنتين وعشرين سنة ، وأبو داود المحدث صاحب « السنن » أقام بها إحدى وعشرين سنة وألف هناك كتاب السنن . وعبد الله بن المبارك كان يتردد عليها ويطيل الإقامة بها . والنسائى أقام وحدث فيها طويلا .

وممن رابطوا هناك أبو زيد المروزى صاحب أعلى إسـناد للبخارى ، والإمام أحمد بن حنبل ، ويوسف بن أسباط ، وهو محدث عظيم أجل من ابن المبارك ، وقد أقام بطرسوس أكثر من عشرين سنة ، وإبراهيم بن أدهم أقام بها عشرين سنة أو أكثر .

ولابن المبارك كتاب فى مدح طرسوس وأهلها لمـكانهم من المرابطة والجهاد . وكانت طرسوس والمصيصة وأذنة والهارونية من مواضع المرابطة ، يقصدها العلماء لأداء هذه الفريضة .

قلت : هذا سر من أسرار عظمة الإسلام وعلوه ، وسبب من أسباب

تمكن المسلمين فى الأرض وسيطرتهم عليها . كان علماؤنا لا يرون العبادة اعتكافاً واعتزالاً ، ولكن جهاداً ورباطاً . كانوا يسيطرون على الدنيا بالدين ولا يهجرونها من أجله . كان أحدهم صاحب قلم حيناً ، وصاحب سيف حيناً ، مجاهداً فى العلم والحرب . كانوا رحمهم الله عباداً زُهاداً حجاجاً غزاة مرابطين ، كما قيل فى الخليفة الرشيد :

فمن يقصد لقاءك أو يُرده   فنى الحرمين أو أقصى الثغور

ليت شعرى ! متى يفقه مسلمو اليوم مقاصد دينهم ليسيطروا على الأرض بالحق وللحق .

الرجوع إلى أذنة :

ذهبت من طرسوس إلى مرسين . وهى بلدة ساحلية وصفاً ذو خطر جنوبى الأناطول . وخرجت مع رفيق من اسكيشهر إلى موضع فى أطراف المدينة فجلسنا ننعم بهواء البحر ومنظره حتى بلغت الساعة الخامسة فركبنا عائدين إلى المدينة لنركب قطار خمس ونصف فعدنا إلى أذنة بعد مسير ساعتين وربع .

وأمضيت فى أذنة يوم الجمعة أرى طرقها وأسواقها ومنازهها ومجالسها وقد صليت الجمعة فى الجامع الكبير . وهو جامع بناه آل رمضان الذين عمروا جامع طرسوس الكبير . وقد ذكرتهم آنفاً .

وقد سمعت فى طريقى إلى المسجد أذاناً عربياً يذيعه مذياع مصر ،

فكان عوضاً عما فاتنا فى جمعة أذنة من الأذان الإسلامى الذى استبدل به الأذان التركى .

إن للترك حقا أن يخطبوا فى المساجد بالتركية . فما أضيع خطبة تخاطب السامعين بغير لغتهم ؛ ولكن لا حق لهم فى تغيير الأذان ؛ لأنه بضع كلمات قد دخلت فى كل لغة إسلامية ؛ فالتركى وكل مسلم يعرف الكلمات : الله أكبر ورسول الله والصلاة والفلاح ، أكثر مما يعرف نظائرها فى لغته . وقد جعلت هذه الكلمات القليلة ، التى تعد كلمات إسلامية لاعربية ، شعاراً للمسلمين يُدعون بها إلى الصلاة . فما الحاجة إلى تبديلها ؟ لاحجة لإخواننا إلا أنها نزوة من نزوات الثورة ، وقاهم الله سيئاتها .

وقد تبينت فى الخطبة والقراءة فى أذنة لهجة عربية خالصة أبين مما سمعت فى استنبول والأناطول ؛ وذلك أن اللغة العربية شائعة فى هذا الإقليم ، والعرب كثيرون فيه . وهو إقليم مجاور للبلاد العربية ، ولم يكن من قبل بينه وبين الشام حدود من السياسة أو العصبية التى قطعت أوصال المسلمين . وقد سمعت فى قونية شابا تركيا يقيم فى مرسين يجيب من سأله : هل تعلمت العربية ؟ — بأن الحكومة تمنع تعلمها والتكلم بها . وعرفت هذا حينما دخلت أذنة . ونحن لا ننازع إخواننا الترك على هذا الإقليم ، بل ندعو سكانه من العرب إلى أن يعاشروا إخوانهم الترك معاشرة الأخ للأخ وأن يخلصوا لدولتهم كل الإخلاص . ولكنا نلوم هذه السياسة القاطعة القاسية التى تحرم على العرب أن يتكلموا بلغتهم فى بلاد هى أقرب البلاد

إليهم ، وبين أمة آخوها قروناً طويلة فى السراء والضراء ، ولا تزال أواصر الأخوة الإسلامية والتاريخ والمنافع تحكم بينهم المودة . ليت شعرى أيسر الأبطال من سلاطين العثمانيين وجندهم الذين دافعوا عن راية الإسلام فى هذه البلاد قروناً أن تمحى منها لغة القرآن ؟ ... لو كان هؤلاء العرب فى حكم الإنكليز أو الفرنسيين ، أو أية دولة أخرى ما منعوا أن يتكلموا بلغتهم . فما هذا التقاطع أيها الإخوان ؟ وما هذا الجور أيها المسلمون ؟

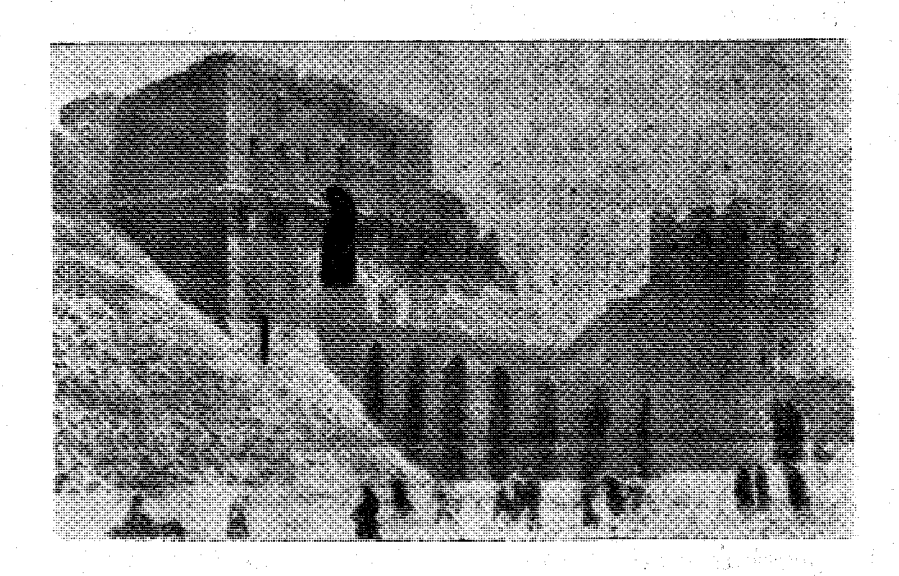
ليت شعرى متى يفىء القوم إلى تاريخهم ويفيقوا من ثورتهم ويعترفوا بالوشائج التى تربطهم بإخوانهم وجيرانهم !

إنى على يقين أن إخواننا سيكفون عن هذه السياسة سريعاً ويرجعون سيرتهم الأولى . « قل عسى أن يكون قريباً » .

وبجانب الجامع الكبير قبر الوزير الشاعر الكبير ضيا باشا صاحب كتاب « الخرابات » ، وهو مختارات من الشعر العربى والتركى والفارسى . و « الخرابات » فى لغة الأدبين الفارسى والتركى معناها « الحانات » .

ويوم السبت سرت إلى حديقة على نهر سيحان تسمى «ألوس پارك» فأما ألوس فكلمة تركية قديمة وضعت حديثاً مكان كلمة « أمة » . وأما « پارك » فكلمة أوربية شاعت فى تركيا الحديثة ... وفى الحديقة مجالس عالية مظللة مشرفة على نهر سيحان . جلست هناك أسرح الطرف فى النهر وما وراءه ، وأرى النواعير ترفع الماء ، والغلمان يصيدون السمك . وبدا لى أن أكتب ، فتحسست قلمى فلم أجده . فقلت لصبى هناك يمسح

الأحذية : إذهب فاشتر لى قلماً . فعاد بعد مدة بقلم رصاص غير مبرى ، استغنيت عنه بدواة وقلم ، وأبقيته ذكرى لأذنة . وسميته « قلم سيحان »



مدخل قلعة حلب ويرى القنطرة على الخندق المحيط بالقلعة والغرفة العليا التى عمرها السلطان الناصر بن قلاوون ، وتحتها دهاليز فيها كوى لرمى السهام ، والسكك المحماة على المهاجمين

ثم انتقلت إلى مقهى قريب يشرف على قنطرة عتيقة مشيدة على النهر ورأيت مضخة تخرج الماء من الأرض ، فشربت منها ماء عذباً بارداً يشبه أن يكون مثلوجاً . فقلت : إن من نعم الله أن ينبثق فى هواء أذنة الحار هذا الماء الشديد البرد ! .

١٧ — من أذنة إلى حلب

سار القطار من أذنة والساعة اثنتان بعد الظهر ، فبلغ حلباً والساعة عشر وربع . وكنت سألت فى القطار بعض الرفاق من حلب عن فندق عربى آوى إليه ، فأشاروا بفندق الحمراء فشاقنى باسمه وآثرت الذهاب إليه .

أصبحت أسأل عن الأصدقاء والمعارف فى حلب ؛ سألت عن الوالى الأمير مصطفى الشهابى فعلمت أنه فى دمشق . وسألت عن آخرين فأخبرت أنهم يصطافون فى لبنان . فأمضيت يومى أتردد فى أرجاء المدينة ، وأذكر تاريخ حلب وأدبائها ولا سيما سيف الدولة وأبو الطيب . وأذكر ما قال الشعراء وخاصة أبا الطيب وأبا العلاء فى نهر قويق .

وذهبت فى المساء إلى الجامع الكبير وقلعة حلب . وقد ذكرتهما فى رحلتى الأولى إلى الشام . فأكتفي هنا بصورة القلعة .

وهبطت من القلعة سائراً إلى المدارس العتيقة والمساجد فى ذلك الحى حتى ولجت المدرسة الخسرفية على غير قصد . وهى مسجد يحيط به فناء واسع ومساكن للطلبة . وألفيت جماعة يصلون المغرب فشاركتهم . ولما قضينا الصلاة قلت للإمام : ما هذا المسجد ؟ قال: المدرسة الخسرفية . قلت : كم طلابها ؟ قال : أتريد أن تعرفها ؟ تفضل . ومشيت معه فإذا كراسى فى جانب من الصحن فجلسنا وشرع الشيخ يتحدث عن المدرسة وعلومها وطلابها . وتعارفنا فإذا هو مؤرخ حلب العالم الفاضل الشيخ محمد

راغب الطباخ الذى قال عنه المرحوم أحمد زكى باشا : حلب قدر والطباخ مغرفتها . فقلت : أليس من حسن الحظ أن يلتقى الحائر فى حلب مؤرخ حلب على غير موعد ؟ وبالغ الشيخ — أكرمه الله — فى إكرامى ودعا الطلاب يعرفهم بى . ودعانى إلى أن أشهد تمرين الطلاب على الخطابة صباح اليوم التالى . وتقابلنا فى الموعد وذهبنا فتعاقب الطلاب على الكلام، وبالغوا فى تحية ضيفهم والترحيب به - جزاهم الله خيراً — وتكلمت شاكراً مبيناً واجب الشاب المسلم فى عصرنا هذا — والسبيل التى يسلكها فى معترك هذه الفتن .

وزرت المدرسة الحلوية التى بناها نور الدين الشهيد . وكان من مدرسيها رضى الدين السرخسى صاحب المحيط الرضوى فى الفقه ، والعلامة القاشانى صاحب البدائع . وكانت امرأته من العلماء ، وكان لا يخرج الفتوى حتى توقعها معه ، وكان يجلها ويطيعها . ومما يروى عنهما أن الشيخ استأذن نور الدين فى الخروج إلى قاشان . فسأله عن السبب ؟ فقال : إن السيدة تريد السفر ولا أستطيع مخالفتها . فأرسل نور الدين حاجبه الخاص إليها يبلغها التماسه أن تبقى فى حلب . فأخذت على نور الدين أنه أرسل حاجبه وقالت : كان ينبغى أن يرسل السيدة . فاعترف نور الدين بخطئه .

وكان من مدرسيها كذلك كمال الدين بن العديم مؤرخ حلب . وإنما سميت الحلوية لأن الحلوى كانت تقدم لطلابها وغيرهم فى رمضان .

وكانت أعظم مدرسة للحنفية فى بلاد الشام (١)

وخرجت مع الأستاذ الطباخ إلى المكتبة الأحمدية ، وهى على صغرها تحوى بعض نفائس الكتب ونوادرها . ثم مررنا على المطبعة العلمية مطبعة الأستاذ الطباخ فالمكتبة الوطنية وهى دار كتب أنشأتها حكومة حلب حديثاً ، ويرجى أن تستمر العناية بها حتى تفى بحاجات المطالعين فى هذه المدينة العظيمة .

ثم لقيت الأديب الصديق سامى الكيال صاحب مجلة الحديث فبذل جهده فى الاحتفاء والإكرام وأرانى ما اتسع الوقت لرؤيته من مشاهد حلب ؛ ذهبنا إلى متنزه خارج حلب يسمى السبيل ، وهو حديقة فيها حوض ماء كبير يقصده الناس بالعشى ليأنسوا بمنظره ويمسحوا الحر بهوائه .

ورجعنا من السبيل فمررنا بفندق البارون حيث ينزل والى حلب الأمير مصطفى الشهابى . وقد ألفيناه هنالك فتحدثنا برهة وقلت له لقد حرصت ألا أفارق حلب حتى أرى سيف الدولة . وإن يكن ابن حمدان ربعياً والشهابى مضريا فالعرب اليوم لا يعرفون العصبيات المفرقة .

١٨ — من حلب إلى حمص

بكرت إلى المحطة فركبت القطار إلى حمص وكنت قد منيت عينى

(١) ما ذكرته عن الحلوية مروى عن الشيخ الخالدى .

وقلبي – حينما مررت بحمص فلم أعرج عليها – أن أيسر لها وقفة في هـذه الربوع حين الرجوع .

ذهبت إلى الجامع الكبير الذى أسس فى عهد عمر بن الخطاب وجلت فى المدينـة قليلا . ثم ذهبت إلى مسجد جميل خارج البلد يحنو على ضريح الرجل العظيم سيدنا خالد ابن الوليد رضى الله عنه وضريح ابنه عبدالرحمن . ولله وقفة على قبر خالد توحى إلى النفس ما توحى من القوة والرجولة والبطولة والطاعة والخضوع للقانون ؛ هنا القائد الذى شهد وقائع العرب والعجم والروم فما استعصى عليه ظفر قط . وماذا عسى أن أقول فى رجل قال فيه عمر الذى لا يعرف فى الحق هوادة ولا فى الشهادة محاباة « عجزت النسـاء أن يلدن مثل خالد » .

ثم انطلقت إلى الميماس على نهر العاصى ، وكنت رأيت هذا المتنزه قبل سبع سنين ، وشهدت ماءه متدفقاً يدير ست أرحية فى طاحون هنـاك . فعاودت رؤية الطاحون وجلست على حافة النهر أنعم بمنظره ومائه وهوائه وتغديت هناك ، وأنا أذكر قول الشيخ عبد الغنى النابلسى :

مدينة حمص كعبة الأنس أصبحت ··· يجىء لها الدانى ويسعى لها القاصى
ومن حسنها فى روضة سـندسية ··· تعلق فى أطراف أذيالها « العاصى »

١٩ – إلى دمشق

وركبت السيارة إلى دمشق ظهراً فبلغتها والساعة ثلاث ونصف . عادت دمشق فى نضرتها وجمالها وسحرها وجناتها وذكرياتها وآثارها وتاريخها وآلامها الحاضرة ومستقبلها الباسم على رغم الخطوب ... عادت دمشق الحزينة الحبيبة ، تأبى كبرياؤها على الخطوب ، ويتجدد جمالها على العصور .

قد رأيت مشاهدها مرات ووصفتها ولكنى رجعت أطوف فى أرجائها أجدد العهد بمغانيها ؛ ذهبت إلى الجامع الأموى فمزار صلاح الدين حيث وقفت على الجدث الحديث هناك — قبر يس الهاشمى رحمه الله — وقفت على جدث تغشيه أزهار ذابلة وذكرى من الجهاد ناضرة .

وذهبت غير بعيد إلى المدرسة العادلية حيث قبر الملك العادل الأيوبى . وفيها الآن المجمع العلمى ، وإلى المدرسة الظاهرية حيث قبر الملك الظاهر بيبرس وفيها المكتبة العامة .

أى تاريخ يشهده السائر فى هذه الخطوات القليلة ما بين جامع بنى أمية إلى مزار صلاح الدين ويس فالملكين العادل والظاهر !..

وزرت المدرسة النورية التى بناها الرجل الصالح نور الدين ودفن بها . وهى فى السوق . وكم مررت بها فلم أنس صاحبها العظيم رحمه الله .

ثم زرت المتحف العربى فى دار العظم التى هدمت جانباً منها مدافع الفرنسيين الطائشة عام الثورة .

وكانت بعد جولات بين الصالحية والروضة ودمر . وحسبي ما قدمت في وصفها .

وزرت النادي العربي وألقيت كلمة في أسس النهضة العربية .

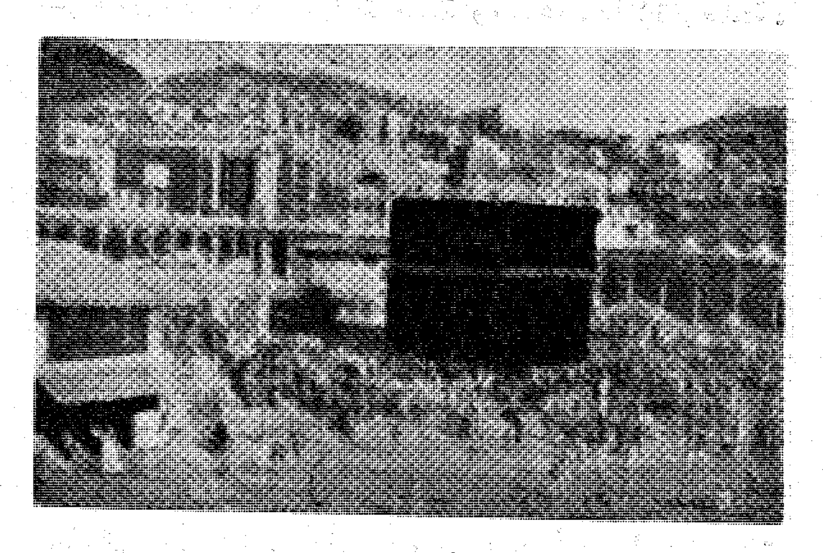
وإني لأتحدث عن دمشق وأقهر قلبي وقلمي أن يمسكا . وإني لأعجب لهذه المدينة التي تملأ النفس جمالا وحبا ثم تفيضهما على القلم نظما ونثراً :

أحييت دمشق رميم الشعر في خلدي   لا غرو أن تبعث الأشعار أشعار

ودعت دمشق يوم الإثنين الثالث والعشرين من رجب (٢٧ سبتمبر) إلى بيروت . فركبت الباخرة محمد علي إلى الإسكندرية . فوافيت الوطن المحبوب على ظهر اليوم الثاني حامد الله على ما يسر في هذا السفر ، وما أولى من العافية في النفس والآل والأصحاب .

فى الحجاز

١ — حول الكعبة



الكعبة المشرفة

الليل مهود وسنان ، ترى العين سكونه ، ويحس القلب سكينته ؛ ونسيم السحر يسرى رفيقاً ينفح الخليقة لا أدرى أيبغى إيقاظها أم إنامتها ؛ والقمر ينضح الكون بأشعته و يخفق مع النسيم نوره . وقد أصحت السماء إلا قزعا فى الأرجاء . وتبدو فى سكون الليل ونور القمر قمم الجبال : خندمة وأبى قبيس وأجياد [١] .

(١) جبال فى مكة .

ستغرقت الخليقة فى أحلامها الجميلة ، وشغل الليل بشعره البليغ ، ففيه إصاخة الشاعر للمعنى الجميل المخترع .

ولكن طرق مكة لا تنام ، ولا تفترعنها الأقدام . فأنظر فى ضوء القمر ، وفى ظلال الدور ، زرافات متمهلة أو مسرعة ، ذاكرة أو صامتة ، تؤم البيت الحرام :

الليل هاجع ، والخليقة نائمة ، ولكن هذه القلوب الوالهة لا تهجع ؛ ولكن هذه العيون الباكية لا تغمض ، ولكن هذه الزفرات المرددة لا تسكن ، ولكن هذه الألسنة الذاكرة لا تفتر . قد استوى ليلها ونهارها ، وعشيها و إبكارها .

هذا هو المسجد الحرام ! فهل تقع العين إلا على مصل خاشع ، وطائف بالكعبة واله ، وقارئ تنطق بضراعته الآيات ، وداع يرسل قلبه فى كلمات ؟.

كم قلب محزون حمل إلى هذا الجناب شكواه ، وفؤاد معذب يبث فى هذه الساحة نجواه ! وكم آثم حط فى هذا الفناء الأوزار ، ليمحقها بالتوبة والاستغفار ! وكم دنس جاء ليتطهر ، من هذا النهر ! وكم يائس ورد يستقى الرجاء ، ومحروم أقبل يستدر العطاء ! وكم نفس مظلومة ترفع ظلاماتها ، وأخرى ظالمة تعترف بجناياتها ! وكم مكلوم جاء بجراحاته ، وأرسل آهاته وأناته ! وكم ثاكل يحمل قلبه كسيراً ، ويسيل دمعه غزيراً ! كل ضارع على هذا الباب ، خانع عند هذه السدة ، يهاب هذا العظم ، ويرجو هذا الكرم : أكداس من الآلام والآمال ، وأشتات من الهموم والأمانى ،

والشكران والشكوى ، والدعاء والنجوى ، والتضرع والحمد !.

ووراء هؤلاء فى المشرق والمغرب قلوب توجهت شطر هذا البيت ، كما تتوجه الإبر (١) إلى القطب ، وتنزع إليه نزوع الغريب إلى ولده وداره . فكم مصل فى أرجاء الأرض ولى هذا الجناب وجهه وقلبه ! وكم داع قصد هذا القصد على بعد المزار ونأى الديار ! أترى الدعوات تهفو على الكعبة مع هذا النسيم ، والصلوات تتنزل عليها فى هذا الضوء ، وأسراب الآمال طارت من المغرب والصين لتطوف مع الطائفين ؟ أترى سوداوات القلوب اجتمعت فكانت هذا البناء ، أم أناسى العيون تراكمت فكانت هذه البنية السوداء ؟.

أنظر فلا أجد فى هذا البناء تمثالا ولا صنماً ولا وثناً ولا صورة ولا نقشاً . إنما هو التوحيد فى خلوصه ، والعقيدة فى يسرها ، والإسلام فى فطرته ؛ بيت لعبادة الله يؤمه عباد الله ، تجتمع حوله القلوب ، وتلتقى فيه الدعوات ! بيت من التوحيد يحس ، و بناء من الأخوة يلمس .

ما أروع هذا مشهداً ! صلاة ودعاء ، وطواف و بكاء ، يسيل بها الإصباح والإمساء ... من لى بالخلوة فى هذا الزحام ، والوحدة فى هذه الكثرة ، والسكون فى هذا العباب ، والقرار فى هذا المحشر ! من لى بأن أقف على الساحل من هذا البحر لأرى وأسمع !!.

صعدت إلى مصلى الشافعى فوق زمزم فإذا هو خلاء ، فأشرفت على

---

(١) إبر المغناطيس .

هذا الجمع أرى جموعاً متوحدة ، ودعوات متجسدة ، وألفاظاً تنطق بمعنى واحد ، وظلالا يمدها نور واحد . وكان للقلب مجال بين الكثرة والوحدة، والظهور والخفاء ، والسكون والفناء . وكأن تلك اللحظات اتصلت بالأزل والأبد!.

وينبعث فى هذا الدوى ، بل يشع بين هذه الأصوات صوت الأذان : « الله أكبر . الله أكبر » وينتظم شعار التوحيد هذه الأصوات ؛ فإذا الدعاء صمت ، والحركة سكون ، وإذا هو الجمع نفس واحدة تصيح إلى صوت واحد .

ما أجمل هذا الصوت وما أروعه ! عظمة الله تغشى هذا المشهد ، وكلمة التوحيد تملأ هذا المسجد .

قلت لنفسى : « ليت الإنسان يستمع أبداً إلى أذان الفجر فى جوار الكعبة ! » قالت : « أما الأذان فهو دائم موصول لا تخلو منه ساعة من ليل أو نهار . فالأوقات فى أقطار الإسلام مختلفة ؛ فما يسكن أذان فى بلد إلا ارتفع أذان فى آخر ، أبد الدهر . تكبير دائم لمن كان له سمع ، وذكر مستمر لمن كان له قلب . وأما الكعبة فأنت فى جوارها كل حين إن لم تكن أسير البقاع ورهن الحجب » .

هلم إلى الرحيل ! طفت طواف الوداع ، وأديت مع الجماعة صلاة الصبح ، وقد أعدت السيارات والرفاق ينتظرون ؛ ولكن النهار لم يسفر فما يعجلنى عن هذا المكان ؟ هلم قد حان الرحيل وليس من الذهاب بد . ولكن الرحيل يمكن إرجاؤه لأتزود للبين نظرات ، وأجمع للفراق

ذكريات . . . قد حان الرحيل ولا مناص :

خرجت أمشى يقول قلبى للرجـــل : بالله أنظرينى

رحم الله حافظاً الشيرازى الذى يقول :

وكيف يطيب العيش فى منزل المنى وأجراس هذا السفر للبين تقرع [(١)]

٢ — فى خيف منى

هذا ثانى أيام التشريق ، ومنى غاصة بعضار بها ؛ قد اجتمع إليها الحجيج من أرجاء الأرض ، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار . تجاورت القباب واشتجرت الأطناب ، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر ، وتعدل بالسالك ، إن لم يكن خبرها وعرف بالعلامات مســالكها ، إلا مهيعا يتوسط البقعة تفضى إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بينة .

زخرت منى بالحجيج ، وازدحم الموسم بأهله . وقد أدينــا بحمد الله المناسك ولم يبق إلا رمى الجمار ، وهو أمر أمم لا يشغل نزال منى إلا قليلا ، فهناك سعة للتزاور والتعارف ، وهناك فسحة لتبادل الآراء والتشاور فى خطوب المسلمين .

خرجت فى رفاقة بعض الإخوان العراقيين أبتغى زيارة بعض الأجلاء من علماء الفرس . فلما لقيت الشيخ وبلغ الحديث منتهاه رغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهاً معروفاً فى مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم

(١) يعنى أجراس القافلة . والبيت بالفارسية :

مرادر منزل جانان جه أمن وعيش جون هردم جرس فريا دميداردكه بر بنديد محملها .

ولا يجهله محفل . وقد رأيته فى عرفات ضاربًا خيمته على الجادة فنزلت إليه فى نفر من رفقائى حجاج الجامعة وأنسنا به حيناً . وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة رأيت خطيباً واعظاً يتكلم على جماعة باللغة الأردية ، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر ، وأنا أرجو ألا يفوتنى فى منى لقاؤه ؛ ومضربه على الخيف ، يلوح للسائر عالياً متميزاً تخفق عليه رايته . فليس على من يبغى المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطاً كبيراً قد احتل من السفح مستوى



المؤلف أمام خيمته فى منى

لا يتسع لغيره ، فليس هناك فسطاط سواه . فإذا تأمله أبصر الراية الأفغانية فعرف أنه منزل السيد محمد الصادق المجددى وزير الأفغان فى مصر .

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقينى جماعة من حجاج الجامعة والأزهر ، فصعدنا إلى الفسطاط فى شرف يطل على الموسم كله

يو ينظر إلى مسجد الخيف من كثب . لبثنا قليـــلا ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات ؛ يقال إن السورة الكريمة « والمرسلات عرفاً » أوحيت إلى صاحب الرسالة صلوات الله عليه هناك . وقد اجتمع الناس يمنعهم الشرطة من الدخول إليه والتمسح به كما كانوا يفعلون . فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة ، ثم سرنا مصعدين فى الجبال . وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور كثير القلع (١) . فما زلنا نصعد حتى لاح لنا الموسم جميعه ، وزويت لنا أطرافه . فيا لك مشهداً جميلا رائعاً ! هذا مسجد الخيف وهو مسجد برى عطل من الزينة ، فراشه الحصباء . بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليـه قبة ومنارة ، وفى جانبه القبلي سـقيفة على ثلاثة عقود . وقد راقنى منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الإسلام .

وهذا المحصب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التى ترمى فيها الجمرات . و إلى اليمين يمتد وادى منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرف أسراب الخيام إلى أن يكل . وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التى ينزلها أيام الموسم . وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل) المصري : مورد عذب يستقى منه الحجاج ، يزدحمون عليه النهار كله وطرفاً من الليل . و إنها لمبرة عظيمة .

وأما الجبل الشامخ الذى يمتد على جانب الوادى الأيسر فهو ثبير . وكم ردد التاريخ والشعر ثبير ! .

---

(١) القلع : الصخور الكبيرة تقلع من الجبل .

ترادفت الذكر وتوالت العبر فى هذه البقعة المقفرة التى تخصب بالجماعات كل عام منذ عهد الجاهلية ؛ فكأنى بالقبائل تلتقى تتناشد الأشعار ، وتتفاخر بالأحساب ، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حين ، وقد تغلبهم الضغائن فيفجأ بعضهم بعضاً غير مراعين حرمة الشهر والمكان كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصب من منى فقال أحد بنى عدوان :

غداة التقينا بالمحصب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأنى بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون ، ويشرقون بقايا اللحم على سفح الجبل .

وكأنى بفتيان قريش وشعراء مكة فى الجاهلية والإسلام يقضون حق المكارم والفتوة ؛ يضيفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار ، وينزع بهم الشباب فيتغزلون ويرون فى الموسم ، على جلاله وحرمته ، شملا من الأحباء يجتمع ، وشملا يفترق ، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق ؛ فهذا عمر بن أبى ربيعة يقول :

نظرت إليها بالمحصب من منى ولى نظر — لولا التحرج — عارم

فقلت : أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف الستر أم أنت حالم

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكر المجنون فى هذا المكان ليلاه فقال :

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أطراب الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وهذا العرجى — غفر الله له — يقول .

في الحج إن حجت وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج ؟

وأنا أقول ما قال عطاء حين استوقفه ابن سريج فغناه أبياتاً منها بيت العرجى فقال :

« الخير كله والله بمنى ، لا سيما وقد غيبها الله عن مشاعره » .

والعرجى هو القائل :

عوجى على سلمى جبر ! فيم الوقوف وأنتم سـفر ؟

لا نلتقى إلا ثلاث منى حتى يفرق بيننـا النفر

ورحم الله جريراً كان أرشد من هؤلاء : لقيه الفرزدق بمنى فأنشده :

فإنك لاق بالمنازل من منى فخاراً ؛ فخبرنى بمن أنت فاخر ؟

فقال جرير « لبيك اللهم لبيك » .

نبهتنى تلبية جرير فقلت : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . . . الخ . كم فى هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظماء ! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار ، وغربة الديار ، لتنعم بالذكر والتوبة ، فى هذه البقاع المقدسة . لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الجبال جبال من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون ، ويسترحمون ويتذللون . سرائر لو اجتمعت فى هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر . لو اجتمعت ! — لو تشاكى أصحابها وتناجى أربابها ! لو تشاكى المسلمون فى هذه البقعة وبث

بعضهم لبعض خبايا قلبه ، وتشاوروا فيما يحز بهم ! أجل ، هـذه خيام مجتمعة وجماعات مختلفة ، و بينها تعارف وتزاور ، ولـكن أين هذا مما يريد الإسلام ونريد أن ييسر لكل حاج السير والزيارة ، ويمكن من أن يلقى من يشاء حين يشاء . إن مئات الآلاف من الحجاج لا تتيسر لهم مقاصدهم ولا تـكفل راحتهم إلا فى نظام دقيق وترتيب حسن . وذلك لمن شاءه جد يسير . وعلى المسلمين جميعاً أن يعملوا له . لماذا لا يكون فى منى مجمع مسقوف يسع الحجاج جميعاً يقفون أو يجلسون فى راحة ونظام فيستمعون جميعاً إلى الخطباء من زعماء المسلمين يرفعون أصواتهم بالمجاهر ؟ لماذا لا يـكون هناك مدرج ينحت فى الجبال ليسع الألوف المؤلفة ؟ هـذا أمر حتم لا بد أن تتخذ له الأهبة .

طالت بى الوقفة وأصحابى على مقربة منى . فقلت : هذا أمر له غير هـذه الوقفة . ثم التفت فإذا أعرابى بجانبى تفتر شفتاه عن أسنان ناصعة وفى فمه عود .

قلت : ما هذا ؟ قال : بشام . قلت ، الذى يقول فيه جرير :

أتذكر إذ تودعنا سليمى بعود بشامة ؟ سقى البشام

وقلت : وما هذا ؟ مشيراً إلى شجرة صغيرة من الشجر الذى يسمى السنط فى مصر . فقال : سلم فتذكرت قول القائل :

ويوماً توافينا بوجـه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج : والله لأعصبنكم عصب السلمة .. الخ

قلت : أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام ؟ قال : إنه على الريع الآخر ، وأشار إلى الجبل ، يعنى سفحه الآخر . فتذكرت الآية الكريمة: « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » والريع المكان المرتفع . قلت لأصحابى لو اتسع الوقت لأخذنا كثيراً من اللغة عن هذا الأعرابى . فمن كان يظن أن هذه ألفاظ ميتة فى المعاجم فليعلم أنها لا تزال حية فى أفواه كثير من العرب —

وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام .

٣ — فى غار حراء

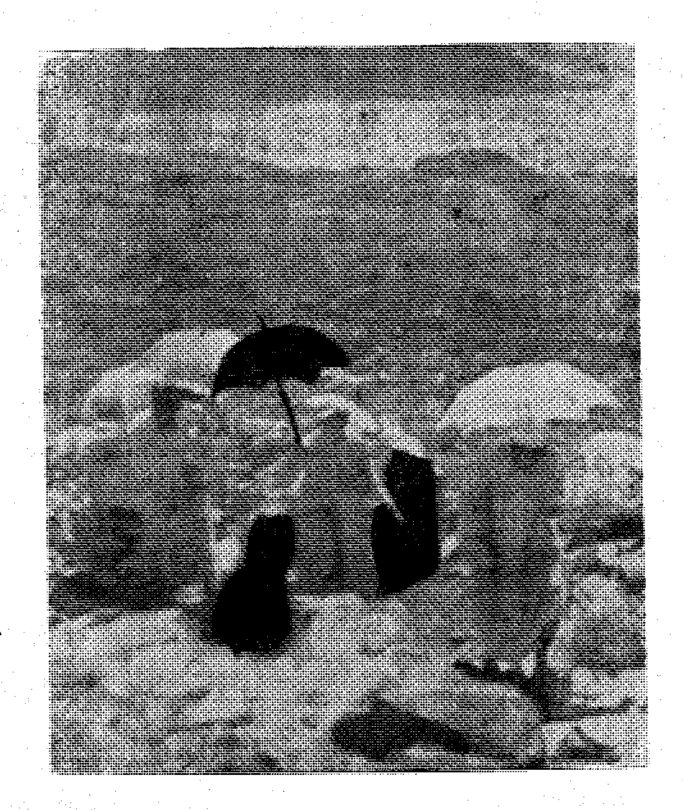
هذا يوم الأحد رابع عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة وألف ، ونحن فى البلد الأمين مكة وقد قضينا مناسك الحج —

قلت لبعض الرفقاء : هلم إلى غار حراء . فأخذنا سمتنا صوب الشمال ضحوة النهار ، منا الراكب ومنا الراجل ، وملء القلوب اشتياق وسرور ، وعلى الوجوه التهلل والبشر .

بلغنا جبل النور — جبل حراء — بعد أربعين دقيقة . وملنا مع الدليل ذات الشمال فإذا امرأة تنحدر من السفح مسرعة تصيح : « أنتم غاوين ؟ » . فقلنا : « ما تبغين ؟ » . قالت : « هنا الطريق » . فاتفقنا على أن تهدينا السبيل إلى الغار . ونظرنا إلى الجبل فإذا السفح ينتهى إلى قمة شاهقة ملساء ، قطعة واحدة من الصخر .

سارت فاطمة أمامنا مصعدة خفيفة سريعة لا تبالى الشوك والحصى

وأطراف الصخور الحديدة ، كأنها أروى ترتع على السفح .



بعثة الجامعة المصرية صاعدة إلى قمة حراء وأمامها المؤلف

سارت فى طريق معلمة يبين فيها بين الحين والحين تمهيد الإنسان ؛ هنا حجارة مرصوصة يرتقى عليها الصاعد ، وهناك جدار صغير من حجارة مركومة أو مبنية تعصم المرتقى أن يزل عن الطريق .

تتابعنا صاعدين جاهدين منحنين على المرتقى الصعب ، وما فى النفوس من رفعة الذكرى أجل وأرفع ، وما يبهر النفس من رهبة المكان أبهر وأروعُ مما يبهر العينَ فى توقل هذا الطود العظيم . وكأنما نرتقى فى التاريخ وعبرته ، ونصعد فى جلال الحق وعظمته ، ونطمح إلى السماء ، لا إلى قُنة حراء . ألسنا مقدمين على مَشرق النور ، ومطلع الحق ، ومهبط الوحى ، وملتقى السماء والأرض ؟ لكأنّ هذه الأشعة المرتدة عن هذه القمة الملساء العالية بقية من نور الحق تتألق فى حراء ، أو آى من القرآن لا تزال ترددها الأصداء .

صعدنا ثم صعدنا حتى انتهينا إلى صخرة مظلة ، فأوينا إليها قليلاً نستجم ونمسح العرق . ثم رقينا تتلوى بنا الطريق ذات اليمين وذات الشمال حتى بلغنا مستوى فيه حوض كبير طوله ثمانية أمتار وعرضه ستة وعمقه أربعة ، بعض جوانبه الصخور وبعضها جدار من الحجر ، تجتمع فيه مياه المطر . وقد صادفنا فيه ماء صافياً بارداً فشرب من شرب وتوضأ من شاء ، وجلسنا هناك جلسة شربنا فيها الشاى واسترحنا وجمعنا قوانا لبلوغ القمة .

على ذروة الجبل بقية جدار تحيط بمستوى ضيق فى وسطه صدع فى الصخر يزعم العامة أن عند هذا الصدع شق صدر الرسول . وللعامة فى الأمكنة المقدسة أوهام يصلونها بمواضع من الأرض والجبال والأبنية والأشجار . وكأن السلطان عبد العزيز رحمه الله صدق هذا القول فأمر أن تبنى على المكان قبة عالية كان ارتفاعها ثمانية أمتار . فلما جاء الوهابيون هدموا القبة والجدار إلا بقية .

وقفنا على الذروة نسرح العيون حولنا بين جبـال وأودية ، ونرى مكة وجبالها وقلاعها ودورها .

هذه قمة حراء فأين الغار؟ جنوبي هذه القمة درجات هابطة على السفح منحوتة ومبنية ؛ هبطنا زهاء ثلاثين درجـة ثم سرنا فملنا نحو اليمين إلى صخرة هائلة مائلة على الجبـل ، وتخللنا مسلـكا ضيقاً قصيراً بينها وبين السفح إلى مستوى صغير ، فإذا أمامنا سفح منقطع ينحدر إلى أرض سحيقة ، وعلى يميننا قمة حراء التي كنا فوقها ، وعلى يسارنا الغار : غار حراء العظيم ! فجوة ضيقة تميـل على مدخلها صخور ندعم بعضها حجارة مبنية . فأما سعة الغار فمرقد ثلاثة متجاورين ، وأما علوه فقامة رجل ، وفي نهايته صدع ترى منه الأرض والجبال إلى مكة .

* * *

هنا فر محمد بن عبدالله بنفسه — فر إلى ربه من ضوضاء الحيـاة وأكاذيبها ، من مظالم الناس ومفاسدهم ، من باطل العقائد وزورها — أوى إلى هـذا الجبل ، إلى هذا الغار ، إلى قلب الخليقة ! هنا طود أشم يطل على أودية ألحت عليها الشمس المحرقة ليس بها من معنى الحياة إلا نبت ضئيل ، وليس بها من ذكرى الحياة إلا أثر السيل بعد المطر . ووراء الأودية جبال شامخة تتداول عين الرائي ؛ وعلى بعد مكة .

بين هذه الأودية والجبال وتحت هذه السماء الصافية حقائق لا يشوبها تمويه ولا تزوير ، ولا يلحقها تبديل ولا تغيير ، ولا يمسها رياء ولا نفاق .

فر محمد إلى هذه الحقائق لا فرار الراهب يترك الناس لينجو بنفسه ،

ولكن كما يلجأ إلى الشاطئ من يحاول إنقاذ إخوانه الغرقى. هنا جمع محمد نفسه وفتح قلبه وناجى ربه ، وهنا تجلى الله لهذه النفس الزكية ، وأضاء على هذا القلب الطاهر ، هنا جاء الوحى ونزلت الآية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » وهى فاتحة القرآن ، وغرة الإسلام ، وبسملة سعادة الإنسان . لله ما وعى هذا الغار من آيات ! ويا عجباً كيف ثبت على هذه الرجفات ، و« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » ! قلت من قبل فى شعر الصبا :

لعل جبال مكة لا يزال ... يجلجل فوقها هذا المقال
ويخفض رأسها ذاك الجلال ... وما نسيت بغار حراء ذكرى

والآن أقول : ألا يسمع هنا ذلك الصوت مدوياً مردداً ؟ ألا يرى هنا هذا النور طائفاً بحراء متلألئاً ؟ ألا يجد الواقف هنا روحا من الإيمان ، ويسمع وحياً من القرآن ؟.

خرج محمد صلوات الله عليه من هذا الغار ، من حصن هذه الخليقة وهو أشبه شئ بها ؛ خرج حقيقة من حقائق الله نقية جلية صريحة ، لا تبديل فيها ولا تزوير ، ولا لبس ولا تغرير ، ولا خفاء ولا اضطراب . خرج قانوناً من قوانين الله التى تسير الشمس والقمر والنجوم ، وتمسك السماء والأرض ، يمضى قدماً إلى الغاية المقدورة مضى النجوم فى حبكها ، والشمس فى فلكها .

تمثلت الرسول هابطاً من حراء وقد حمل عبء النبوة واضطلع بأمانة الرسالة ، وأفضى الله إليه بوحيه وكلفه هداية خلقه .

ليت شعرى أهبط ونفسه قريرة هادئة كما ينزل النور من الشمس والقمر ، أم نزل ونفسه جائشة مجلجلة كما ينزل الغيث بين الرعد والبرق ؟ لست أدرى ، ولكنه نزل ديناً جديداً ، وعصراً وليداً ، وتاريخاً مديداً ، وإصلاحاً شاملا ، وهدى كاملا ، ورحمة للعالمين .

أيها الغار ! يا مولد الحق ومطلع النبوة ومأوى محمد ! لولا أن محمداً رسول التوحيد نهانا لقبلت أحجارك واكتحلت بترابك .

أيها الغار ! من لى فيك بخلوة ، من لى بخلوة فيك !.

نادانى صحبى : هلم فقد حان الرجوع. فعدنا إلى مكة.

٤ — الحج

كان سلفنا إذا أرادوا الحج تأهبوا لسفر شاق ، وغاية بعيدة ، وتزودوا لشهور عدة ، ووطنوا أنفسهم على ما يلقون من المشقات والشدائد والأخطار. كان المصريون يذهبون بالبر من طريق سيناء فالعقبة لا يركبون البحر، أو يسيرون إلى القصير فيجتازون البحر إلى الحجاز . ثم جاء عصر البواخر فتيسرت الغاية وقصرت المدة ، ولكن بقى بعد هذا قطع المسافة بين مكة والمدينة على ظهور الإبل ، وبقى سوء الأحوال الصحية فى مجامع الحج ، والتعرض للصوص وقطاع الطريق فى كل مرحلة وكل حين ، بل كان

المحمل المصرى ، وهو فى حراسة الجند والمدافع ، لا يجتاز المسافة بين مكة والمدينة إلا بعد إرضاء القبائل الضاربة على الطريق ، وكان هؤلاء يتحكمون ويشتدون فى مطالبهم ، فإذا لم تجب مطالبهم باغتوا الحجيج بالغارة . بل قال المرحوم إبراهيم رفعت باشا الذى تولى إمارة المحمل سنين إنه زار غار حراء سنة ١٣١٨ ومعه مائة جندى وقال : « ومما ينبغى لزائرى هذا الجبل أن يحملوا معهم الماء الكافى وأن يكونوا جماعة يحملون السلاح حتى يدفعوا عن أنفسهم شر اللصوص من العربان الذين يتربصون الفرص لسلب الحجاج أمتعتهم ونقودهم خصوصاً فى مكان منقطع كهذا لا يقصده إلا بعض الحجاج . وقد بلغنى أن أعرابيا قتل حاجا فلم يجد معه غير ريال واحد فقيل له : تقتله من أجل ريال ؟ فقال وهو فرح: الريال أحسن منه »

ذلكم الحج قبل سنين ، وأما الحج فى هذا العصر فقد تهيأت وسائله وتيسرب مسافاته وأمنت سبله . تنقل الحجاج بواخر كبيرة ، وحسبك ببواخر شركة مصر التى أعدت لراحة الحجاج وتمكينهم من أداء فرائض الدين فى يسر وطمأنينة . فى كل باخرة مصلى تقام فيه الصلوات الخمس ويؤذن لكل وقت فإذا بلغ الحاج جدة وجد المطوفين فى انتظاره يتكفل المطوف الذى يختاره براحته وإعداد السيارات له فى كل طريق ويجدون فى مكة العناية براحة الحجيج وصحته . فالحكومة تتخذ الوسائل التى تمنع الزحام ، وتراقب مساكن الحجاج وتلزم أصحابها أن يطهروها وينظفوها.

فإذا حان وقت الخروج إلى منى وعرفات ، احتاطت الحكومة فمنعت

التزاحم فى الطريق وعنيت براحة الحجاج على قدر استطاعتها. وإذا قضى الناس مناسكهم وأرادوا السفر إلى المدينة رخص لهم فى السفر على ترتيب قدومهم مكة الأسبق فالأسبق حتى لا يختل النظام ، ويشتد الزحام، وحتى لا تضيق بهم المدينة . وكذلك يلزم زائرو المدينة الخروج بعد ثمانية أيام ليفسحوا لغيرهم فلا يجتمع فيها إلا وفود ثمانية أيام طول الموسم.

والناس فى إقامتهم بمكة ، وسيرهم إلى منى وعرفات، وسفرهم إلى جدة والمدينة يرتحلون بالليل والنهار آمنين مطمئنين لا يخافون على نفس ولا مال ويظفرون بطمأنينة لا يظفرون بمثلها فى البلاد الأخرى . ولا يغلو فى الحق من يقول إن الأمن فى بلاد الحجاز اليوم لا يظفر به إنسان فى غيره من بلاد العالم . فإذا خرج الرجل الفرد ملء جيبه الذهب يقطع الطريق بين مكة والمدينة نهاراً أو ليلا ليس معه رفيق ولا حارس ، لم يخش على نفسه ولا ماله ، وأحاط به الأمن فى يقظته ونومه، وليله ونهاره . أمر لم نسمع به من قبل ولا نسمع به اليوم فى قطر من أقطار العالم المتمدن أو المتوحش .

وقد حدثنى أحد الحجاج ، ونحن بمكة ، أنه ذهب إلى المدينة فى رفقة فوقعت منهم حقيبة فى الطريق ولم يشعروا بها وتعطلت السيارة فى الطريق يوماً أو يومين . فلما بلغوا المدينة افتقدوا الحقيبة فأخبروا الشرطة فردتها إليهم بعد قليل . وأخبرت أن حاجا آخر كان يطوف بالكعبة فسقطت منه ساعة فذهب إلى الشرطة فردوها إليه . وأعرف أن طالباً من طلبة الجامعة سقطت منه ورقة بنك قيمتها جنيه فى سوق مكة ولم يفتقدها

إلا بعد أن رجع إلى المدرسة السعودية التى كنا ننزل بها . فلما رجع إلى السوق وجدها حيث سقطت أمام الدكان الذى كان يشترى منه ، وقد تواترت الأقوال فى أمثال هذه الحوادث حتى لم يبق مكان للشك فيها وحتى اطمأن الناس فتركوا أمتعتهم الثقيلة فى مساكنهم ليرجعوا إليها بعد قضاء مناسكهم ولم يجدوا حاجة إلى أخذها معهم . فنحن تركنا بعض متاعنا فى جدة أمام الفندق المصرى فأرسل إلينا فى أيام مختلفه لم نفقد منه شيئا. وقد تأخر متاع بعض الطلبة كثيراً فقلق فقلت له: ستأتى حقائبك لا محالة فإن شيئا لا يضيع فى هذه البلاد . وكان يسكن إلى قولى حيناً ثم يعتاده القلق حتى جاءت أمتعته كاملة . وأخبرنى مخبر عن رجل من الذين ذهبوا إلى الحجاز أنه كان فى سيارة ضاقت بأمتعة الراكبين فأخذوا حقيبة عليها اسم صاحبها وتركوها فى الطريق عمداً ليتخففوا ثم طلبوها حينما بلغوا غايتهم فردت إليهم .

والمسافة بين مكة والمدينة زهاء ٥٠٠ كيل كانت تقطع فى أربعة عشر يوما وقد قطعها ركب المحمل المصرى سنة ١٣١٨ من الهجرة فى ١٢٥ ساعة وخمسين دقيقة ؛ فى أربعة عشر يوماً . وتقطعها السيارات الكبيرة اليوم فى أربع عشرة ساعة ، ولكن المسافرين يحتاجون إلى الراحة مرات على الطريق فيبيتون ليلة فى بعض المراحل . والطريق كله غير معبد ، وفيه مسافة رملية تسوخ فيها السيارات إن لم يحذر السائق .

وقد خرجنا من جدة إلى المدينة بعد المغرب فبلغنا رابغاً بعد سبع

ساعات ، و بتنا بها ثم استأنفنا السير ضحىً آملين أن نبلغ المدينة فى نهارنا ولكن ساخت بعض السيارات في الطريق فآثرنا أن نبيت فى مكان اسمه أبيار بنى حصان . وخرجنا منها ضحى فبلغنا المدينة بعد العصر . ولكنا فى رجوعنا إلى جدة خرجنا من المدينة ضحى فبلغنا رابغاً وقت العشاء بعد أن استرحنا فى الطريق ساعتين ونصفاً فى ثلاثة مواضع . وبتنا فى رابغ وتركناها ضحى فبلغنا جدة ظهراً بعد سير خمس ساعات . فكان سيرنا من المدينة إلى جدة ثلاثة عشرة ساعة ونصفاً . وإذا أصلح الطريق سهل أن تقطع المسافة كلها فى عشر ساعات . وأمكن الراكب المتعجل أن يقطعها فى ثمانى ساعات أو سبع . وما أقرب هذا سفراً وأيسره .

* * *

ولست أقول إن وسائل الحج بلغت من اليسر والنظام الغاية التى نرجوها ؛ ولا أزعم أن الحرمين الشريفين والحجاز فى الحال التى يتمناها مفكرو المسلمين ، فلا يزال المسلمون يرجون للحجاز نظاماً وعمرانا لا يذكر معه ما يسره الله فى السنين الأخيرة من الإصلاح والتنظيم . لا يزال مفكرو المسلمين يطمعون فى أن يروا فى الحجاز آثار التعاون الإسلامي ، وبذل المال فى سبيل الله ، حتى تكون أحوال الحجاز مكافئة لمكانته عند المسلمين ، ومصورة عناية المسلمين به وتقديسهم إياه .

لا يزال المسلمون يتمنون أن يروا الحجاز آخذاً من ثروة المسلمين وعلومهم وفنونهم ما تأخذه الأماكن المقدسة الأخرى من الذين يقدسونها

وما أسعد المسلم الغيور على دينه المعنى بإقامة شعائره يوم يذهب إلى الحجاز فيرى الطرق ممهدة بين جدة ومكة فمنى فعرفات [1] ، وبين جدة فالمدينة ، ويرى فى طريق المدينة فنادق يأوى إليها فيجد راحته وطعامه وشرابه كما يشتهى ، ويجد مواضع للوضوء والصلاة تمكنه من إقامة الشعيرة على خير الوجوه .

ما أسعده يوم يجد فى منى وعرفات مواضع للطهارة والصلاة ميسرة على وجه يليق بهذه البقاع المطهرة . إن المسلمين يضربون اليوم خيامهم فى منى وعرفات فى أمن وسلام ونظام ، ولكن هذه الخيام المتفرقة تقسمهم فلا يجتمعون إلا قليلا . فما أجمل أن يهيأ فى منى وفى عرفات مكان واسع جامع يسع الناس جميعاً فى صعيد واحد يرى بعضهم بعضاً فيشعر المسلم بالجماعة الإسلامية ممثلة ، والأخوة الإسلامية مصورة . فإذا استمع هؤلاء جميعاً إلى خطيب أو واعظ أو داع يتكلم فى مجهر فيسمعهم معاً ويعظهم معاً ويدعو فيؤمنون بصوت واحد ويرفعون أيديهم جملة واحدة كان فى هذا من الجمال والروعة مالا ينساه المسلم على مر الزمان ، وبقيت هذه الصورة فى نفسه حيثما سار تذكره بالأخوة الإسلامية .

وهل أغلو إذا قلت إن من المسلمين من يرجو أن يكون فى منى مدرج ينحت فى الجبل يسع مئات الآلاف من الحجاج يجتمعون إذا شاءوا ويتفرقون فى سكون وطمأنينة وسلام فى وقت قليل وحركة يسيرة كما تفعل الأمم الأخرى فى مجامعها التى تضم آلافاً كثيرة ؟ ولماذا لا يكون للأمم

(١) عبدت الطريق بين جدة وعرفات وغيرت وبقى طريق المدينة .

الإسلامية بيت فى مكة أو المدينة يجتمع فيه بعد موسم الحج ممثلو هذه الأمم ليتشاوروا فيما بينهم ويداولوا الآراء فيما يصلح المسلمين ويرفع أخلاقهم ويسعدهم بين الأمم ؟ لماذا لا يبذل المسلمون من أموالهم وأفكارهم لإنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات فى الحجاز ، وفى إنشاء المكاتب ونشر الكتب الإسلامية والمجلات تبحث الأمور الإسلامية المشتركة وتقصد إلى التقريب بين التربية الإسلامية والثقافة الإسلامية فى العالم الإسلامى جهد الطاقة ؟ إن الحجاز ينبغى أن يكون ملتقى الثقافات الإسلامية .

ثم يرجو كل مسلم أن يصلح المسعى بين الصفا والمروة فيفصل من السوق والطريق ويجعل على شاكلة تشعر الساعى أنه فى عبادة ينبغى أن تفرغ لها نفسه ويتم لها توجهه . وما أحوج الحرمين فى مكة والمدينة إلى أن تزحزح عنهما الأبنية المجاورة ويدور بهما مهيع واسع يظلله الشجر . وهناك بعد هذا إصلاح مذبح منى وحفظ لحوم الأضاحى وجلودها لينتفع بها أو بأثمانها الفقراء طوال العام . ثم تعبئة ماء زمزم فى أوان ترسل إلى الأقطار الإسلامية . وقد أثبت البحث أنه ماء نافع مرئ فضلا عما له فى نفوس المسلمين من حرمة . ثم إضاءة مكة والمدينة وسوق الماء إلى دورها ومساجدها ، وأمور غير هذه كثيرة .

هذا كله جدير بعناية المسلمين وتعاونهم وبذلهم من أموالهم وأفكارهم وأعمالهم . ولن يؤدوا واجبهم ويعربوا عن اهتمامهم بدينهم ويبرؤا من التقصير حتى يحققوا هذا كله بل أكثر منه .

قد تحقق الشرط الأول لكل إصلاح وهو الأمن الشامل والطمأنينة العامة يسرهما الله للحكومة السعودية واستحقت بهما مثوبة الله وشكر المسلمين كافة . فعلى المسلمين جميعاً أن يتقدموا فيتعاونوا على خطة معينة خالصة لوجه الله يعالجون بها من أمور الحجاز ما يجعله صورة لحضارة المسلمين وتآلفهم وتعاونهم . ومن أولى من المسلمين بالتعاون والتآخى ودينهم دين الأخوة العامة والتعاون على البر والتقوى؟ والله يهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً ويوفق للخير حكومات الإسلام عامة والحكومة المصرية خاصة وهى التى حملت النصيب الأوفر فى أمور الحجاز منذ قرون كثيرة والتى يؤمل المسلمون فيها خيراً كثيراً فى رعاية جلالة الملك الصالح « فاروق الأول » حفظه الله .



أمام المدرسة السعودية فى مكة
عبد الوهاب عزام ، عبد الحميد العبادى ، إبراهيم مصطفى
أحمد أمين بك ، عبدالله الزارع

٥ — فى المدينة المنوره

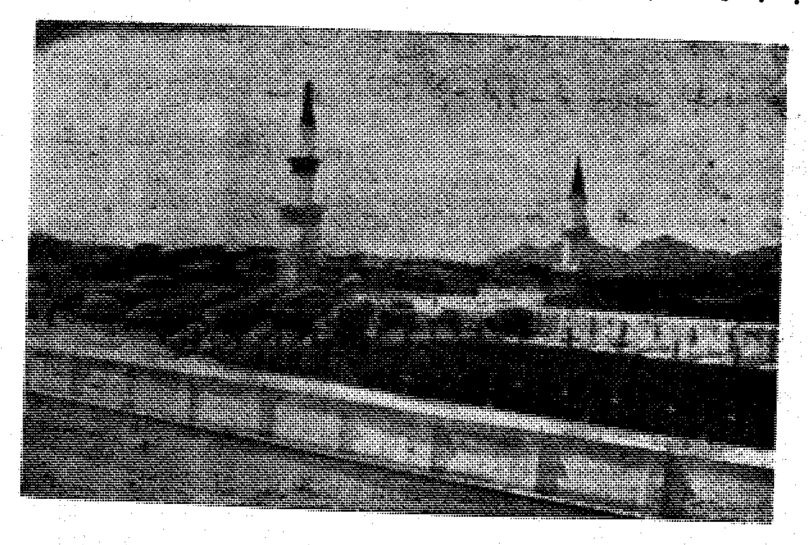
فصلنا من جدة مساء الثلاثاء خامس عشر ذى الحجة ، متوجهين تلقاء المدينة . وهى مسافة تقطعها قوافل الإبل فى ١٤ يوما . و بعد مسير سبع ساعات فى طريق سهلة على مقربة من البحر بلغنا رابغا . وهى قرية ذات نخل على مسيرة ساعة من البحر للراجل ، تجتمع فيها طرق بين جدة ومكة والمدينة . و إذا حازاها الحجاج القادمون من الشمال فى البحر الأحمر أحرموا للحج . وليست هى ميقات الإحرام ولـكن الميقات الجحفة على عشرة أميال إلى الجنوب منها .

واستأنفنا المسير ضحى الخميس آملين أن نبلغ طيبة عشية اليوم ولكن الرمال عوقت بعض السيارات فبتنا فى أبيار بنى حصان . ثم غدونا سائرين ونزلنا بالمسيجيد بعد ثلاث ساعات : واستأنفنا السير حتى العصر فلاح لنا النخل أخضر يانعاً يبشر باقتراب الغاية ؛ ونزلنا آبار على وهى ذو الحليفة ميقات أهل المدينة . ومنه أحرم النبى صلى الله عليه وسلم لحجة الوداع . ثم سرنا فلاحت لنا بعد قليل المدينة المنورة تتوجها القبة الخضراء ، كأنما تباهى على صغرها السماء . . أهذه نضرة الإيمان فى هذه البقعة ، أم ازدهار الآمال فى هذه المساحة ؟ أم كما قال محمد عاكف الشاعر التركى: واحة نزلت من السماء لتأوى إليها الأرواح المتحرقة فى البيداء ؟.

دخلنا المدينة من الباب الشامى حيث محطة سكة الحديد الحجازية وحططنا رحالنا فى المدرسة السعودية وقد أعدت لنزولنا . ثم سارعنا نتأهب

للموقف الجليل ؛ للساعة التى تعرج فيها الروح من الأرض إلى السماء .

ذلكم المسجد النبوى فى بهجة النور والإيمان ، يدوى بالمصلين والداعين والقارئين؛ ولكن الواقف إزاء الحجرة النبوية لا يرى من هذا الجمع أحداً ولا يحس من هذا الدوى همساً . لا يرى إلا هذا الجلال ولا يسمع إلا هذا الوحى . و إنما هى وقفة يمحى فيها الزمان والمكان فيتصل الأزل بالأبد والسماء بالأرض .



منظر الحرم النبوى من الخارج

يالك بقعة صغيرة لا يدرك العقل مداها ، ولا يبلغ الفكر منتهاها ! يالك حجرة يظل الفكر مسافراً فى أرجائها ، محلقاً فى أجوائها ، فيطوف فى أرجاء التاريخ ، ويحلق فى أقطار السماء والأرض ؛ وكأنما طوى الزمان وزويت الأرض ، واجتمعت الإنسانية ، وحشر البر والحق وكل خلق

طيب فى الضريح . يالك بقعة كالكوكب المضيء تناله الأعين فى لمحة وتحيط أشعته بالعوالم العظيمة ! يا لك بقعة كمنبع نهر عظيم ؛ متدفق بالحياة ، فياض بالبركة ، مداد بالخير ، يحيي الأجيال بعد الأجيال .

يا حيرة الوصف ، ويا عجمة البيان ! أهى عنوان كتاب انطوى على الحق والصدق ، والخير والبر ، والإحسان والمرحمة ، يقرؤه القارئ جملة ثم لا يزال تروعه منه الصفحة بعد الصفحة ؟ أم هى تاريخ لا يزال الدهر يكتب صفحاته وإنما أوله وحى الله وآخره غيب الله ؟ .

أترى هؤلاء المصلين لا يفترون ، وهؤلاء المرتلين القرآن لا يصمتون ، وهؤلاء الداعين لا ينقطعون ، أتسمع هذا الأذان وهذا السلام وما يحدث به المسلم أخاه ، وما يفضى به فى علانيته ونجواه ؟ ليس فيما ترى إلا أناسى هداهم محمد ، وأفعال علمها محمد ، وكلمات أملاها محمد ، بل كل صوت يرتفع إلى الله فى أقطار الإسلام ، وكل عبارة فى وضح النهار أو جنح الظلام ، وكل لسان يدعو إلى الخير ، وكل يد تمتد بالبر ، وكل كلمة حق ودعوة صدق ، وكل نية محمودة وسعى مشكور ، فهنا منبعه ، ومن هذه البقعة وحيه ؛ بل كل نزعة فى المسلمين إلى سؤدد ، وكل طموح إلى علاء ، وكل سلطان فيهم قائم بالحق ، وكل شرع نافذ بالعدل ، وكل دعوة إلى حرية ، وثورة على ظلم ، وانتصار للحق ، وتمرد على الباطل — كل أولئك شعاع من هذا النور ، أو ماء من هذا الينبوع .

ولست تتمثل هنا مجداً ولا سلطاناً ولا سؤدداً إلا تمثلته تواضعاً للحق ، وبرا بالخلق ، ورأيته سؤدد المساكين ، وسلطان المستضعفين ، السلطان الذى

يجمع الناس على شريعة من العدل والمرحمة والمودة والسلام .

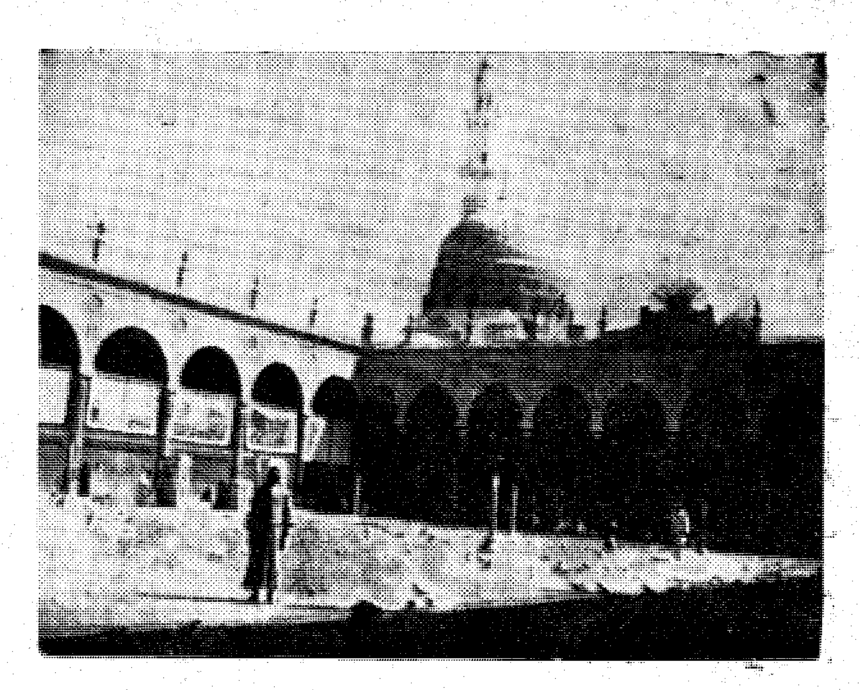
موقف يتضاءل فى جلاله كل جلال ، ويصغر فى جماله كل جمال . لمحات تطهر فيها النفس من أرجاسها ، وتبرأ من أهوائها ، وتسمو على شهواتها وتخلص من أغلالها ، فتستمد الخير والحق والعلاء والتقوى والحب والسلام ، وتسع السماء والأرض . وكأنما تخلق خلقاً جديداً وتفتح فى أعمالها صفحات جديدة . خسر من لم يطهره هذا الموقف ، وخاب من لم ترفع نفسه هذه الساعة .

هنا النفس المطهرة . هنا محمد بن عبدالله . هنا رسول الله . هنا خاتم النبيين . ثم هنا اثنان من صحبه وخلفائه : أبو بكر وعمر .

المسجد النبوى فى شكله الحاضر بناه السلطان عبدا لمجيد العثمانى ، استغرقت عمارته ١٢ سنة بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٨ ولم تبق من الأبنية القديمة إلا قليلا ؛ وهو جميل المنظر حسن الهندسة ، فى سقفه قباب صغيرة منيرة مزينة تحملها عمد متقاربة صبغت لوناً أحمر وزينت بالتذهيب .

كان المسجد حين بناه الرسول سبعين ذراعا فى ستين ، وجدرانه من اللبن ، وسقفه من الجريد ، وعمده جذوع النخل . ثم وسعه الرسول فجعله مائة ذراع فى مثلها . ثم توالى التوسيع والتعمير فى أيام الخلفاء الراشدين فمن بعدهم حتى انتهى إلى شكله الحاضر . ولكن حدود المسجد القديمة معلمة بالعمد كما حددت الروضة النبوية بين القبر والمنبر .

ولا ينظر الإنسان نظرة فى هذا المسجد المبارك إلا وقعت على ذكرى كريمة من رسول الله وأصحابه . فهنالك سارية عائشة ، وسارية أبى لبابة



المسجد النبوى من الداخل

الصحابي التي ربط نفسه بها ، وآلى ألا يبرح حتى يتوب الله عليه ، وخوخة أبي بكر ، الخ

وحول المسجد مواقع الدور التاريخية : دار أبي بكر ، ودار عثمان ، ودار آل عمر وغيرها .

وفي المدينة مشاهد كثيرة عظيمة لا يتسع المقام لتعدادها . وحسبي أن أذكر ما شهدت في يوم واحد يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة: خرجنا إلى جبل أحد وهو شمالي المدينة قريب منها ، فمررنا بجبل سلع وسرنا حتى شهدنا مكان موقعة أحد ورأينا قبر حمزة أسد الله رابضا في العراء ، وعلى مقربة منه جدار يحيط بمدفن شهداء أحد رضي الله عنهم .

وفي اليوم نفسه توجهنا شطر الجنوب إلى مسجد قباء وهو أول مسجد أسس في الإسلام ؛ بناه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما هاجر من مكة فنزل في قباء على مقربة من المدينة في بني عمرو بن عوف وهو المسجد الذي ذكر في القرآن : « لمسجد أسس علي التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا . والله يحب المطهرين » ، والمسجد كما يرى اليوم حسن المنظر ، عالي الجدران ، تتجلى فيه البساطة والنظافة . وقد توالى عليه التعمير حتى انتهى إلى بنائه الحاضر . وفي صحن المسجد مكان يقال إنه مبرك ناقة الرسول صلوات الله عليه . وقد قرأت عليه بيتين باللغة التركية .

وعلى مقربة من المسجد بئر أريس . وهي بئر عميقة ماؤها عذب غزير

صاف ، وهى التى سقط فيها خاتم النبى من يد عثمان بن عفان أيام خلافته . ويستخرج الماء منها ومن آبار المدينة كلها بالسوانى: ترى بكرات على البئر معلقة بها غروب (١) كبيرة ، وتجر حبالها الدواب من الإبل أو البقر أو الحمير . وقد تجتمع الثلاثة معاً ؛ تسير الدابة نحو البئر فيتدلى الغرب حتى يمتلئ ثم ترجع عن البئر حتى يرتفع الغرب . وإذا علا الحوض جذبته الحبال فينصب ماؤه فى الحوض ؛ فمسير الدابة أو السانية فى طريق مستقيمة ذهاباً وجيئة .

* * *

والمدينة جيدة الهواء فى الصيف معتدلة فى الشتاء ، وأرضها خصبة وآبارها غزيرة وبساتينها كثيرة ، وفيها النخل والكرم والرمان والبرتقال والخوخ والموز والبطيخ وفواكه أخرى. وتمرها جيدجدا وأصنافه لا تعد .

ولكن الأرض فى وقتنا هذا ليست مستغلة كل الاستغلال ، ولا تفى بحاجات أهلها ، ويعيش كثير منهم على التجارة ، ويعول فقراؤهم على جدوى المسلمين .

ويظهر على دور المدينة وساحاتها الفقر . وفى ذمة المسلمين أن يبروا جيران رسول الله وأن يعمروا دار رسول الله . عليهم أن يغدقوا الخيرات ، ويمدوا أيديهم للأعمال الدائمة المنظمة من بناء المستشفيات والملاجئ والمصانع والمدارس . وظنى أنه إذا استثمرت أموال المسلمين فى أرض المدينة وغلاتها زادت خيراتها أضعافاً مضاعفة ووفت بحاجات سكانها

---

١ — الغروب جمع غرب وهى الدلو الكبيرة .

أو كادت .

إن الحرم المدنى والمدينة كلها أهلها ودورها ومساجدها وطرقها وساحاتها ، كل أولئك يدعو المسلمين إلى التعاون على الخير ، والاجتماع على العمل الصالح الذى يجعل طيبة بلداً معموراً آهلا ، منسق الدور والطرق ، ميسر الطعام والشراب ، موفور وسائل الصحة — العمل الصالح الذى يجعلها مباءة علم يؤمها بعض الطلاب من أرجاء الأقطار الإسلامية لتؤلف بينهم الثقافة الإسلامية المشتركة ، وتحفزهم إلى خير الإسلام والمسلمين الآراء المتداولة ، ويدرسوا تاريخ الإسلام في مواقعه .

وليت المدينة تصير مقصد المسلمين من أقطار الأرض يفرون إليها فى الحين بعد الحين ليجدوا سلام أنفسهم وطمأنينة قلوبهم وصحة أبدانهم ، فيذهب إليها أغنياؤهم وأمراؤهم كلما ملكوا الفرصة للاستراحة قليلا من ضوضاء الحياة ومفاسدها .

لن يبر المسلمون دينهم ورسولهم وأنفسهم حتى تسخو أيديهم بالمال ، وتجتمع عقولهم وأعمالهم على الإصلاح . والله يهيئ لهم من أمرهم رشداً ويهديهم للتى هى أقوم .

في أرجاء سيناء *

من السويس الى أبي زنيمة :

تواعد السفر ميدانَ إبراهيم صباحَ الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ١٣٥٨ (٢١ يناير سنة ١٩٤٠) ووقفنا على مصر الجديدة ريثما يركب الرفقاء الذين يقطنون هناك . ثم سار ركبنا في سيارات ست يؤم السويس ، وليس في طريق السويس ما يتحدث عنه إلا بقايا المنارات التي كانت على طريق البريد . ولما بلغنا السويس تواعدنا أن نلتقي عند منتهى الترعة الإسماعيلية بعد أن تتزود السيارات وسائقوها بما يحتاجون إليه من المدينة . وكان السائقون كلهم من هذه المدينة ، وممن خبروا طرق سيناء .

فارقنا المدينة ظهراً ، فوقفنا بعد قليل عند معبر القناة ريثما قدمنا الأوراق والصور التي تبين أشخاصنا ووجهتنا ، ثم عبرنا ، وكان الغداء قد حان ، فرأينا أن نتزود للبيداء فتفرقنا يأكل كل واحد زاده ... ولست أقول قول أبي العتاهية :

قد رمى المهديُّ ظبياً ... شقَّ بالسهم فؤاده
وعلي بن سليما ... ن رمى كلباً فصاده

* نشرت في ص ٣٢٣ ع ٣٤٧ السنة الثامنة سنة ١٩٤٠

فهنيئـــاً لهما كـل امـرئ يـأكل زاده

وهى الوجبة التى لم يجتمع عليها السفر. وكنا استثنيناها تعجلاً للسير، فاتفقنا على أن يأتى كل مسافر بالغداء فى اليوم الأول .

وكان فى اختلاف الأطعمة مثار لأسئلة : ماذا عندك يا فلان ؟ وماذا تأكل يا فلان ؟ وكان أكثر الناس تطلعاً إلى السؤال بعض رجال التاريخ وذكرنى هذا قول أبى الطيب :

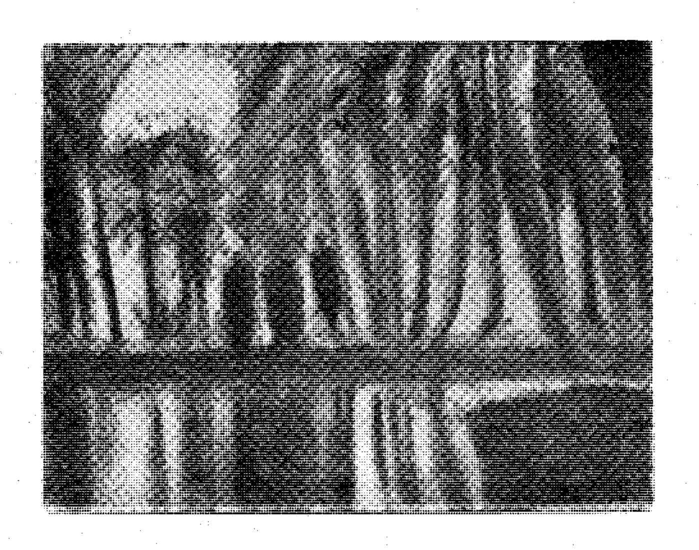
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من ردّه تعليـل

تهيأنا للسير، وصفّـر دليل الركب « الدكتور حزين » إيذاناً بالسير، فلم نتهيب إقدامنا على مجاهل سيناء، وسلوك طريق بنى إسرائيل، لأن الطريق مطروقة، والأمن شامل، والزاد موفور، والسيارات ضمينة بإبلاغنا غايتنا قبل الغروب ...

سرنا صوب الجنوب فسايرنا القناة حينا، ثم خليج السويس حتى حالت بيننا وبينه التلال . وبعد نصف ساعة مررنا بعيون موسى، وهى على ٢٤ كيلا من معبر القناة . ولم نعرج على العيون إلا فى رجوعنا، وكنت رأيتها مرة من قبل ؛ وهى ينابيع متفرقة متقاربة، يرى المتـأمل فيها فوران الماء من قاعها إلى سطحها، وكل ينبوع بركة يفيض ماؤها فى الرمل فلا يجرى، وحولها نخيل وأشجار من الطرفاء ؛ وهى اثنتا عشرة عيناً، وقد ذكرت فى القرآن الـكريم : « وإذ استسقى موسى لقومه

مسود حديدى يستعمل فى صناعة الصلب أو الفولاذ وهناك مبان للشركة ، ومساكن للعمال وهم زهاء ألف من المصريين ، وسكة لنقل المنغنيز إلى الميناء ، وميناء لإرساء السفن .

سألنا عن منزل الحكومة (استراحة) فسار معنا خادم موكل به ، فرأينا بناء جميلا طبقة واحدة فيها خمس غرف ومرافقها ، وأمامها طُنُف واسع ، وهذا المنزل بنى حينما عزم الملك فؤاد — رحمه الله — على زيارة سيناء ، فهو من أثر عنايته بالصحارى المصرية .



عيون موسى

فنزلنا هناك بعد الغروب فأمضينا ليلة سعيدة فى هواء منعش معتدل

تحيط بنامشاهد رائعة من الجبال والبحر أضفت عليها القمراء نورها وبهجتها ولا أنسى مطلع الشمس هناك بين قنن الجبال القريبة ومغربها على ساحل الخليج الغربى عند جبال الزعفرانة ، تلوح على بعد ، كأنها قطع السحاب أو الضباب .

إن فى هذه الأمكنة وما يشبهها لمرَاداً للمصريين يستجمون من عناء العمل ، ويمتعون الروح والجسم بين الهواء والماء ، وحرية الصحراء والمرائى الجميلة ، ويعرفون مجاهل وطنهم وما فيها من معادن ونبات .

وأصبحنا يوم الإثنين مزمعين التجوال فى البرية ، ورؤية معادن المنغنيز وآثاراً مصرية قديمة فى مكان يسمى سراية الخادم ، فاستمعنا من « الدكتور حزين » كلمة عن سيناء وجبالها ومعادنها . ثم سرنا فى وادى الطيبة ، وملنا ذات اليمين حتى رأينا معادن المنغنيز ، وهى حفر ساذجة تقطع منها الأحجار لا يكلف قطعها عناء ولا تغلغلا فى بطن الأرض . ثم سرنا نبحث عن الآثار ، ولقينا فى طريقنا بدويا معه غنمة وجمال تحمل رحله ونساء وصبية ، فكلمناه وأخذنا صورته . وسألته عن شجر صغير يكثر فى البادية لا جذع له ، تنبت أغصانه من جذره مستقيمة دقيقة ، له ورق مستطيل دقيق . فقال : هذا الرتم . فذكرت قصة المتنبى حينما خرج من مصر ، وسلك سيناء ، وخانه عبيده فضرب واحداً منهم بالسيف نخر على رتمة .



البدوی مطير

وأنشدت قول الراجز :

نظرت والعين مبينة التهم إلى سنا نار وقودها الرتم

شبت بأعلى عائدين من إصم

واسم الرجل : مطير ، وهو من قبيلة القرارشة .

واستأنفنا المسير فبلغنا مكاناً به نخلات وأشجار وزرع قليـل ، وإذا بئر تسمى : بئر النصب ، ماؤها قريب عذب .

تركنا السيارة وسرنا نبحث عن الآثار ، واستدللنا رجلا من غير البدو ادعى معرفة المـكان فطال سيرنا وبحثنا على غير هدى ، ورجعنا وقد استفدنا من المشى ، ورأينـا من الأودية والجبال والعشب ما عزانا عن الآثار المفقودة . ولم نقل: « قتل أرضا عالمها ، وقتلت أرض جاهلها » .

—٢—

من أبى زنيمة الى الدير :

خرجنا من أبى زنيمة والساعة ثمان من صباح الثـلاثاء ثالث عشر ذى الحجة ، فسرنا على الساحل بين البحر عن يميننا والجبل عن يسارنا صوب الجنوب زهاء أربعين دقيقة ، ثم ملنا ذات اليسار تلقاء الشرقية فى

سهل واسع، كثير الحجارة والتلال ، قد استبانت فيه الطريق واستقامت ، فأسرعنا عشر دقائق حتى بلغنا واديا تشرف على جانبيه جبال رملية مصفرة ، ثم جبال حمراء شاهقة ، أدّى بنا إلى صخور عظام ، عليها نقوش بخط سريانى ، فنزلنا عندها قليلا والساعة عشر ، ثم ركبنا فمررنا بعد ساعة بواحة ناضرة جميلة ، وجبال رائعة شاهقة محمرة ، لا مختلطة الألوان .

وجبال سيناء كثيرة الأشكال والألوان ، قد ألحت عليها الشمس والرياح والأمطار على مر العصور تحطيما وتشكيلا وتلوينا ، فما يزال الرائى فى عجب من اختلاف مرائيها وكثرة أشكالها ؛ وقد وجدت فيها تفسيرا بينا للآية :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء »

وبعد نصف ساعة من الراحة الأولى رأينا أشجارا ونخيلا تملأ الوادى فعرفنا أنا في وادى فاران ، و بعد مسيرة خمس دقائق فى هذه الخضرة بلغنا ديرا عليه سور قصير وفيه حديقة ، وهو دير فاران التابع لدير سنت كترينا الكبير . نزلنا هنالك لنستريح فى الدير ونرى ما فيه .

دخلنا الدير فرأينا مجرى ماء بارد عذب ، فعرفنا أنه ينبوع الحياة فى هذه الواحة الكبيرة . وصعدنا على سفح الجبال المشرفة على الدير فإذا بناء

قديم من اللبن مهدم هو بقية كنيسة . ورأينا على عدوة الوادى الثانية وفى بسطته أنقاض أبنية وآجر وحجارة منثورة قيل إنها آثار مدينة فاران، وصوامع كانت لتعبد الرهبان فيه .

وهى على ١٢ كيلاً شمالى الطور، وعلى ١٣٠ كيلا إلى الجنوب والغرب من قلعة النخل .



فى وادى فاران

وهى مذكورة فى التوراة فى أخبار إبراهيم وموسى، ففى سفر التكوين: إن إسماعيل سكن برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من مصر . وفى التثنية : « هذه هى البركة التى بارك فيها موسى رجل الله بنى إسرائيل

قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ... » .

وعلى مقربة من الوادى جبل شاهق جدا يفرع الجبال كلها ، يسمى جبل سربال ، ويقال إنه جبل المناجاة الذى تجلى فيه الله سبحانه لموسى عليه السلام .

وبعد أن طعمنا خرجنا من الدير والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا بين أشجار ونخيل متكاثف خمسا وعشرين دقيقة بالسيارات . ورأينا على عدوة الوادى اليسرى أنقابا فى الجبل ، يقال إنها قبور قديمة كان أهل فاران يدفنون موتاهم فيها .

والنخيل فى هذا الوادى متروك بطبيعته ، لا يؤبر ، ولا يقلع فسيله ، فترى نخلات كثيرة من أصل واحد ، وترى جريد النخلة أو كسريه يابسا حول جذعها طبقات بعضها فوق بعض لا يقطع ، ولكن يجف فيسقط ، أو يبقى معلقا فى الجذع .

وقد سألت رجلين هناك : لماذا لا تقطعون الجريد ؟

قالا : لنصعد عليه .

قلت : إن النخل لا يثمر كثيرا إذا لم يقطع جريده كل عام . هل تعرفون ما يفعل أهل مصر بالنخيل ؟

قالا : نعم .

قلت : فلماذا لا تفعلون فعلهم ، فيكثر ثمر نخيلكم ؟

فسكتا .

وبعد خمسين دقيقة من فاران ، رأينا أشجارا كثيرة من الطرفاء ، ثم سرنا فى أرض جرداء إلى أن مررنا بجبلين متقار بين مشرفين على الطريق ، بينهما ممر ضيق ، يسمى « بويب فاران » ؛ ثم عطفنا إلى اليمين إلى واد يسمى « وادى الشيخ » ، أو وادى النبي صالح، وسأذكره فيما بعد .

وجئنا إلى أرض مرملة ساخت فيها بعض السيارات ، وتقدمت السيارات التى تجنبت هذه الورطة ، فوقفنا عند تل عليه مقابر وقباب من الطين فيها بعض القبور ، وكنيسة وقبر يقال إنه قبر هارون عليه السلام ، وينشعب الوادى وراء هذا التل إلى اليسار ، فيرى السائر جبالا شاهقة جدا ، بينها واد ضيق ينتهى إلى بناء كبير أبيض يلوح من وراء الشجر ويتضاءل على ارتفاعه بجانب الجبال الشاهقة المشرفة عليه ، وهذا الدير « دير سنت كترينا » .

وقبل أن أصفه ، أنقل ما ذكره صاحب « مسالك الأبصار » نقلا عن الشابشى :

وهذا الطور هو طور سيناء الذى صعق عليه موسى عليه السلام . والكنيسة فى أعلى الجبل ، مبنية بحجر أسود ، عرض حصنه سبعة أذرع ،

وله ثلاثة أبواب من الحديد ، وفى غربيه باب لطيف ، وقدامه حجر لقيم ، إذا أرادو رفعه رفعوه ، و إذا قصدهم متغلب أرسلوه فانطبق ، فلا يعرف أحد مكان الباب . وداخلها عين ماء ، وخارجها عين أخرى .

قال :

« زعم النصارى أن بها من أنواع النار الحديدة التى كانت ببيت المقدس ، يوقدون منها فى كل عشية السراج ، وهى بيضاء ضعيفة الحر ، لا تحرق ، ثم تقوى إذا هم أرادوا أن يوقدوا منها » .

وهو عامر بالرهبان ، فلا يخلو من أحد من أهل البطالات للتفرج فيه ، والتبرك — على رأيهم — به .

وهو من الديارات الموصوفة ، والأماكن المقصودة ، وممن وصفه ابن عاصم ، قال فيه :

يا راهب الدير ؛ ماذا الضوء والنور
فقد أضاء بما فى ديرك الطور ؟

هل حلت الشمس فيه دون أبرجها
أو غيب البدر فيه فهو مستور ؟

فقال : ما حله شمس ، ولا قمر ،
لكن يقرب فيه اليوم قورير !

دير سنت كترين

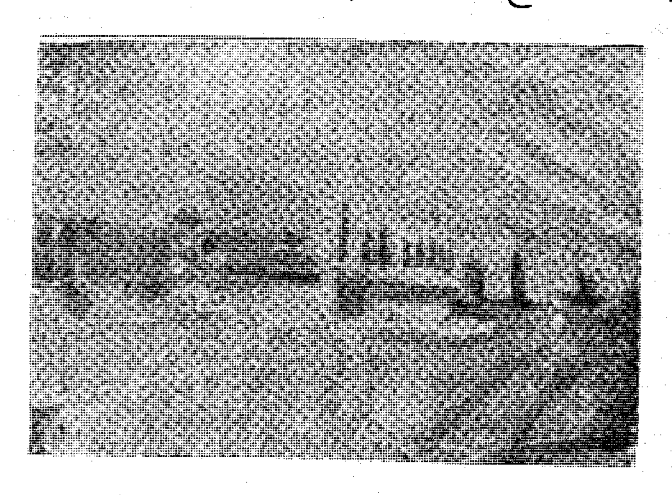
— ١ —

عطفنا إلى اليسار فى شعب من وادى الشيخ . فمررنا بأبنيـة قليلة الملاط كأنها حجارة مرصوصة ، وعرفنا من بعد أنها كانت للجنود الذين رافقوا عباس باشا الأول حينما أقام فى هذه البقعة من سيناء ، وقد رأينا بناء كبيراً على جبل شامخ قريب من الدير ، وهوقصر عباس باشا ، وكان يحب الإقامة فى البرارى ، ولا سيما فى برية سيناء . وبلغنا الدير قبيل الغروب ، فإذا حديقة إلى اليمين ذات سور قصير ، بينها و بين الجبـل طريق ضيقة تؤدى إلى الدير .

والدير بناء واسع عال يحيط به سورمتين ، علوه أحد عشرمترا . وفى جداره الغربى باب صغير دخلناه إلى باب آخر وراءه باب ثالث إلى اليمين. وهذا السور الضخم ، وهذه الأبواب الصغيرة المتتابعة تدل على ما كان يخشاه أهل الدير من غارات البدو وغيرهم فى العصور السالفة . وللدير فى أعلى جداره الشمالى باب عليه وقاية من الخشب أعـد للدخول إلى الدير وقت الخوف ، فيرفع الداخل فى سلة معلقة ، ترفعها حبال على بكرة كبيرة تسمى « الدوّار » ، وتشد الحبال إلى عمود له ترس كبير ، يدور به عدة

رجال ، فتلتف الحبال ، وتمر على البكرة فترفع السلة ، ومن هـذا الباب أدخلت أمتعتنا .

دخلنا إلى أبنية كثيرة لا يتيسر وصفها ، فإنها لم تخط فى وقت واحد ، بل بنيت فى عصور مختلفة . صعدنا درجا إلى مستوى ، ثم صعدنا مرتين فلقينا رئيس الدير فدخلنا إلى حجرة كبيرة ، فجلسنا نتحدث ، وقدمت إلينا القهوة على الطريقة المصرية ، وعرض علينا النبيذ ، والنبيـذ يصنع فى الدير وفى الواحات التابعة له فى أنحاء سيناء ، وهو من التمر ، ولخمور الأديرة صيت ذائع فى الشعر العربى ، ومن أجل هـذا كثر ذكر



منظر عام للدير

الأديار فى الشعر منذ عهـد أبى نواس ، كان الشعراء يقصدونها لبعدها عن البلدان ونزاهتها ، وما فيها من خمور .

ثم خرجنا من الحجرة لنرى الحجر التى أعدت لنزولنا ، فصعدنا إلى طبقة ثم أخرى فى الجهة الغربية ، فإذا مكتب رئيس الدير ، ثم غرفة كبيرة للجلوس والمائدة ، ثم مطبخ ، ثم صف من الحجر أمامها طنف يفضى إلى الجناح الجنوبى من الدير ، وقد عمر حديثا بالأسمنت المسلح ، فكان شذوذاً فى هذه الأبنية العتيقة .

ويفضى الدرج الصاعد إلى هذه الطبقات العليا إلى سطح تحده من الشمال والغرب شرفات السور المطلة على حديقة الدير ومدخله . وهناك مدافع صغيرة ، يقال إن بعضها من أيام السلطان سليم ، وقد أهديت إلى الدير لمدافعة المغيرين .

أكرم القوم مثوانا ، فأنزلنا فى عشر حجرات فى كل حجرة سريران فأمضينا ليلتنا مستريحين

— ٢ —

بنى هذا الدير القيصر « جستنيان » حوالى سنة ٥٤٥ م ، باسم « كترين » زوجه التى عرفت من بعد باسم « سنتا كترينا » ، فى موضع يعلو سطح البحر بنحو خمسة آلاف قدم ، وهو يشبه مربعا طول ضلعه ثمانون متراً وله أوقاف كثيرة فى سيناء ومصر و بلاد اليونان . وكان له أوقاف كثيرة فى بلاد الروس استولى عليها البلشفيون . وله فى سيناء بساتين كثيرة

وأديرة وكنائس ، وله أبنية فى القاهرة والإسكندرية والسويس ، ويقيم مطران سيناء فى القاهرة وقت الشتاء .

وأعظم غلات الدير الآن ربع مائة فدان فى سرياقوس وهبها له عباس باشا الأول . وكان دخل الدير زهاء ستة آلاف جنيه نقصت كثيراً بعد استيلاء الروس على أوقافه .

وينفق بعض الريع على أعراب سيناء ، يعطون الخبز كل يوم، ولكل واحد من الأعراب الذين يقصدون الدير أن يأخذ الخبز يوما بعد يوم ، ثلاثة أرغفة لكل إنسان . وكان فى الدير رهبان كثيرون ثلثمائة أو أكثر ، وهم الآن زهاء الأربعين .

وفى صبيحة يوم الأربعاء ١٥ ذى الحجة (٢٣ يناير) سار معنا أحد الرهبان ليرينا بعض أبنية الدير فذهبنا إلى الكنيسة الكبرى : باب ضخم من الحديد ، ثم باب خشبي دقيق الصنع ، عتيق يقال إنه من عهد « جستنيان » .

ويلقى الداخل بهواً كبيراً على جانبيه صفان من عمد الجرانيت ، ثم رواقان وراء الأعمدة . وفى الكنيسة من النقش والتذهيب ، ومن الصور والألواح ما يعيي الناظر إحصاؤه بله التأمل فيه ، ومعرفة دقائقه .

ومما أذكر من هذه المناظر منبر إلى اليمين عليه صورة للدير واضحة

ملونة ، وهى من تصوير الأب كرنارس الـكريتى من مصورى القرن الثامن عشر الميلادى ؛ ومن الصور القديمة صورة للسيدة مريم تحمل عيسى عليه السلام ، ويقال إنها من صنع لوقا الإنجيلى ، وصورة أخرى يقال إنها صنع « جستنيان » .

ويعلو هيكل الـكنيسة عقد قد صور عليه المسيح والرسل والأنبياء بالفسيفساء فى جمال و إتقان الخ.

ووراء هذه الـكنيسة كنيسة صغيرة لسنت هيـــلانة ، وتسمى كنيسة العليقة ، ويقال إنها فى مكان شجرة العليق التى رآى فيها موسى عليه السلام النار ، وفى الجدار الشرقى كوة تقابل صـدعا فى الجبـل . وتدخل الشمس يوم ٢٣ مارس من الصـدع إلى الـكوة فتقع على مكان الشجرة . ووراء الجدار شجرة يزعمون أنها هى شجرة موسى ، ولـكنى لم أرها .

ويلزم داخل هذه الـكنيسة الصغيرة بخلع نعليه اقتـــداء بموسى عليه السلام فى القصة التى ذكرت فى القرآن الـكريم : « فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى » .

وخرجنا من الـكنيسة إلى مشاهد أخرى ، منها مكتبة الدير ، وفيها كتب دينية كثيرة قليل منها باللغة العربية . وقد رأيت هناك تمثالا لإسماعيل باشا الخديوى ، فسرنى جدا أن رأيته فى هذا المـكان فشعرت أن سلطان مصر ممتد إلى هذا الدير .

ثم رأينا مسجد الدير ، ولا ريب أن القارئ سيعجب حين يقرأ هذا التركيب المتناقض : «مسجدالدير» ولكنها حقيقة ، ففي الديرمسجد صغير ملاصق كنيسة صغيرة . وهو مسجد ساذج له منبر قديم ، قدوضعت عليه أعلام مزركشة جديدة مصنوعة فى مصر ؛ على العلم الأمامى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » من فؤاد الأول ، وعلى كل من العلمين الجانبيين . لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين . من فؤاد الأول ، والتاريخ ١٣٤٩ .



منظر فى الدير تظهر فيه مئذنة المسجد

وفى جانب المسجد منضدة عليها كسوتا ضريحين مصنوعتـان فى مصر أيضا أهداهما الملك فؤاد الأول رحمه الله ، إحداهما لقبر النبي هارون ، والأخرى لقبر النبي صالح ، وتؤخذان فى مواسم الزيارة ، ثم تردان إلى الدير فتحفظان فى المسجد . وبجانب المسجد مئذنة مربعة لها سلم خشبي وفيها ثلاث طبقات أو أربع صعدت فيها مع بعض الرفاق ، وشاقنى الأذان هناك فأذنت ، ولعل هذا الأذان كان إيناسا لهذا المسجد المعطل المستوحش .

وكنت قرأت فى كتاب « نعوم شقير » عن سيناء أن على منبر هذا المسجد كتابة قديمة ، وأن فيه كرسيا قديما ، ولـكنى لم أجد الـكتابة ولا الـكرسى ، فسألت المطران ، فقال : حفظناهما فى المـكتبة . ولست أدرى لماذا لم يحفظا فى موضعهما من المسجد . وكان المرحوم « أحمد زكى باشا » زار الدير ، ونسخ الـكتابة التى على المنبر والـكرسى . فأما الـكتابة الـكوفية التى على المنبر فهى مصورة فى كتاب « شقير » ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . نصر من الله وفتح قريب . لعبد الله ووليه أبى على المنصور ، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتصرين . أمر

بإنشاء هذا المنبر السيد الأجل الأفضل أمير الحرمين ، سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ؛ وهادى دعاة المؤمنين أبو القاسم شاهنشاه عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلا كلمته . وذلك فى شهر ربيع الأول سنة خمس ميه ، أثق بالله » .

والخليفة الآمر الفاطمى تولى الخلافة من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٥٢٤ .

وأما الكتابة التى على الكرسى فهى أعظم خطرا ودلالة على عناية الفاطميين ببناء المساجد فى هذه البقعة .

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمل الشمع والكراسى والجامع المبارك الذى بالدير الأعلا والثلاث مساجد التى فوق فاران والمسجد الذى تحت فاران الجديدة والمنارة التى بحضر الساحل ، الأمير الموفق المنتخب منير الدولة وفارسها أبو منصور أنوشتكين الآمرى » .

والآمرى نسبة إلى الآمر بأحكام الله . فالكرسى والمنبر صنعا فى زمان الخليفة الآمر .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى الحجة خرجنا إلى حديقة الدير فدخلنا إلى ساحة ذات أشجار اتخذت مباءة لغنم الدير ، رأينا فيها عدة من الضأن والمعز معها سخالها ، ورأينا فى جانب الحديقة ناقة معها فصيلها ، وهى لحمل ما يجلب إلى الدير . وهناك بئر واسعة قريبة الماء .

ثم دخلنا إلى ساحة صغيرة فيها قبور قليلة هى مزرعة الموتى ؛ فأما

حصاد هذه المزرعة في حجرة واسعة متصلة بهذه المقبرة . في هذه الحجرة أكداس من الجماجم والعظام قد رتبت وصنفت ، فالجماجم على حدة ، وعظام الأذرع على حدة ، وعظام الأرجل على حدة ، لم تختلط كما توجس أبو العلاء في قوله :

لا يغيركم الصعيد وكونوا فيه مثل السيوف في الأغماد
فعزيز على خلط الليالى رمّ أقدامكم برم الهوادى

ذلكم أن موتى الدير يدفنون فى المقبرة الصغيرة ، ثم تستخرج العظام بعد حين فتجمع فى مكانها ، وتخلى الأرض لمن يفد إليها من وفود الموتى المتتابعة على مر العصور :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين فى قديم الأزمان والآباد

ثم خرجنا من دار الفناء والعبر فدخلنا إلى حديقة واسعة ، فيها أنواع من البقول ، وضروب من السرو وأشجار الفاكهة ، تسقى من آبار فيها ومما يجلب إليها من آبار داخل الدير .

وحديقة الدير مرآى جميل فى حضيض الجبال الشاهقة المشرفة عليها .

إلى جبل موسى

الجبل العظيم المطل على الدير من الجنوب يسمى جبل موسي ، ويقال إنه الجبل الذى تلقى فيه موسى عليه السلام الألواح .

تواعدنا الخروج إلى الجبل بعد الظهر ، فسار الرفاق يدلهم أحد الرهبان فخرجوا من باب صغير فى حديقة الدير إلى الجبل ليصعدوا زهاء ثلاثة آلاف درجة منحوتة فى الحجر أو مرصوفة ، وللجبل طريق أخرى على مقربة من الدير تصعد على السفح متعرجة إلى ثلثى الجبل ، ويستطيع الجمل أن يصعد فيها .

وقد آثرت أنا هذه الطريق ، فركبت جملا ، وسار صاحبه يقوده . فأما الجمل فاسمه : درويش ، وأما صاحبه فاسمه : حميد من أولاد سعيد .

صعدنا زهاء خمسين دقيقة ، وأنا مشفق على هـذا الحيوان السهلى يكلف هذا المرتقى الصعب ، بل سفينة الصحراء التى تسام صعود الجبال .

وكان بينى وبين صاحب درويش حديث ممتع :

قلت : ما تسمى هذا الذى أركب عليه ؟ قال : الغبيط ، والذى تحته البدار ، وقد وضعت الغبيط على بدار الجمـل ، لأنى جئت بدرويش إلى الدير محملا ، وما حسبت أنه يركب . قلت : الغبيط بلغة أهل مصر ما يحمل فيه التراب ونحوه على الدابة ، ولـكنه فى الشعر القديم كما تقول . قال : هذا الخشب المـكسو الذى يركب عليه هو الغبيط ، والبدار هذه الحشية التى توضع تحت الغبيط . قلت : فما تسمى هـذا الحزام الذى على صدر الجمل ؟ قال : هو البطان . قلت : صدقت ، ويقال فى المثـل : « التقت حلقتا البطان والحقب» فما الحقب ؟ وهل تسمى الحزام الخلفى حقبا ؟ قال : لا ، هو الحبك . قلت فى نفسى ليس هذا بعيدا من قياس اللغة وسماعها .

ثم قلت : فما الحبــل الذى فى يدك ؟ قال : ارسن . قلت : ألا تسميه المقود ؟ قال : المقود هذه — وأشار إلى طرف الحبــل الذى فى يده وقد جعله كالحلقة — قلت : يا حميد ! فما الحبل الذى على خد الجمل ؟ قال : العذار . قلت : صدقت . وتذكرت قول أبى الطيب .

فقرحت المقاود ذفـر يبها وصعر خدها هــذا العذار

قلت : فأين الغارب ؟ فوضع يده على ما أمام الغبيط من ظهر الجمل ، وقال : والـكثب هذا ؛ ووضع يده على ما يلى العنق . فقلت فى نفسى : الذى عرفناه فى اللغة الـكاثب وجمعه كواثب ، كما قال النابغة :

لهن عليهم عادة قــد عرفتها إذا عرض الخطى فوق الـكواثب

قلت : فأين الثفنة ؟ قال : لا أعرف . قلت : ألا تسمى الركبــة ثفنة ؟ قال : لا ، ولـكن الذّفنة هذه . وأشــار إلى ما يقع على الأرض من رجل البعير الخلفية إذا برك . فقلت فى نفسى : قد قلبت الثاء ذالا فى لغة حميد وقومه .

ثم سألته عن نبات مررنا به حتى قلت : أهنا ثمــام ؟ قال : لا ، ولـكن فى وادى كذا ثمام كثير قلت : نحن نقرأ فى كلام القــدماء : « هذا الشئ على أطراف الثمام » . قال : نعم ، كذلك نقول إذا كان الشئ كثيرا قريبا ، لأن الثمام قصير . قلت : أفادك الله يا حميد .

قال حميد : لا يصعد الجمل بعد هذا الموضع . فنزلت ، وربط هو درويشا ؛ وسار معى يدلنى الطريق إلى حيث يصعد المتوقل إلى القمة .

فمشينا زهاء خمس دقائق ، فنادى : هؤلاء أصحابك . فرأيت جماعة من الرفاق قعدوا من الإعياء فعرفونى أن جماعة خلفهم وآخرين سبقوهم إلى القمة . شرعت أصعد فى درج متمهلا أقرأ بين الحين والحين على الصخر ما كتبه أحد الرفاق السابقين من كلمات تواسى الصاعد وتحرضه على المثابرة ، وبعد نصف ساعة بلغت القمة .

على القمة فجوة بين الصخور ، قال دليلنا الراهب : إنها حيث رآى موسى الملاك . وهناك كنيسة صغيرة جميلة على جدرانها صور متقنة تمثل ما يدور حول هذا المكان من ذكريات ، منها صورة تمثل موسى يتلقى الشريعة من الله تعالى.

وفى جانب من القمة مسجد ساذج جدرانه غير مطلية ، وسقفه غير محكم، وأرضه غير مفروشة . قالت نفسى : هذه أمارات على إهمال المسلمين أمورهم ، نخطر لى أنه مع هذا أمارة على يسر الإسلام وقربه إلى الفطرة . وبجانب المسجد عند حافة القمة غار صغير يهبط إليه درجات قليلة فيه أثر نار . يقول العامة : إنه حيث أقام موسى أيام الموعد ، وإن هذه النار من آثار ذلك الزمان .

وتشرف هذه القمة العالية على جبال وأودية كثيرة ومناظر بعيدة وقريبة ، وتسمو بجسم الإنسان وروحه حتى يكاد يتوهم أنه من طير الجو ، أو سكان السماء .

أقمنا قليلا ثم شرعنا نهبط وأمامنا الراهب لم يعى بالصعود والهبوط

على كبر سنه (وكل امرئ جار على ما تعودا) .

ما زلنا نهبط ثم نهبط ؛ كلما رأينا واديا فى الجبل قلنا قار بنا الأرض ، فإذا بلغناه وجدناه قمة عالية تشرف على مهاو أخرى بعيدة . وتشرف المخارم فوقنا عالية عاتية مهيبة ملساء صماء ، ونشرف نحن على هوى سحيقة ، وأودية بعيدة ، دواليك حتى غربت الشمس ، وطلع القمر متمهلا فوق الجبل الشرقى كأنما أصابه من الإعياء ما أصابنا . ثم أشرفنا على الدير وقد بلغ منا التعب مبلغه فتحاملنا حتى هبطنا إلى مستوى الدير بعد ساعة ونصف من مفارقة القمة .

على ظهر هديان

أزمع أكثر الرفاق أن يذهبوا يوم الخميس إلى جبل سنت كترين وهو أعلى جبال سيناء ، ترتفع قمته إلى ٨٥٣٦ قدم ، وفى قصص الرهبان أن القديسة كترينا حينما ماتت فى الإسكندرية سنة ٣٠٧ م حملت الملائكة جثتها إلى هذا الجبل ، وقد بقى منها جمجمة وذراع يحفظان فى الدير إلى اليوم .

وآثر بعضهم أن يعكف على مطالعة الكتب فى مكتبة الدير ، وأما أنا فأزمعت أن أركب جملا فأسيربه فى وادى الشيخ إلى القبرالذى يسمى « قبر النبى صالح » . قيل لى : كيف تطيب نفسك عن رؤية الجبل العظيم أعلى جبال سيناء ؟ قلت : إن برجلىّ عقابيل من جبل موسى ،

فلست أقوى على الصعود اليوم . قيل : ولـكن قمة سنت كترين تشرف بك على جبال بلاد العرب . قلت : قد رأيتها عن كثب . قيل : وتريك الخليجين معا : خليج السويس ، وخليج العقبة . قلت : لا أحتاج فى تصديقكم إلى أن أرى بنفسى . قيل : إنه مشهد يتمناه كثير من الناس . قلت : ما كل مايتمنى المرء يدركه .

سار الرفاق إلى الجبل ، وخرجت فإذا جملان مرحولان ، فركبت أحدهما ، وركب محمد افندى حشيش الطالب بكلية الآداب الثانى ، وسرنا مغتبطين بهذه الرحلة الممتعة القريبة . فلما أفضى بنا الشعب الذى فيه الدير إلى وادى الشيخ أبصرنا الحاج سيد محرم الطالب بالـكلية راجعا من حيث توجه إخواننا إلى الجبل . قلت : ما خطبك ؟ قال : تلبثت لأصور بعض المرائى فانقطعت عن الرفقة . قلت : خار الله لك ، سر معنا نتعاقب على الجمل . رحم الله حاتما :

وما أنا بالساعى بفضل زمامها	لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوى حقيبة رحلها	لأبعثها خفا ، وأترك صاحبى
إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع	رفيقك يمشى خلفها غير راكب
أنخها فأردفه ، فإن حملتـكما	فذاك ، وإن كان العقاب فعاقب

سألت صاحب جملي : ما اسم الجمـل ؟ قال : هديان . وما اسمك ؟ قال : فرحان . وسألت الآخر ، فقال : اسمى جبلى ، واسم الجمل صبيح .

وكان سادسنا صبيا فطنا لقنا يسمى سعدا ، رآنا نتأهب للركوب عند

الدير فتطوع لصحبتنا عسى أن يناله خير. مشى سعد وقد جعل يديه وراء ظهره تحت حزامه، وأطبق أنامله بعضها على بعض، واستقام على الطريق يوحى إليك بمشيته وحديثه اعتداده بنفسه. وهو صبى يكدح لرزقه ورزق أمه، فهو يحمل من أعباء الحياة، ويشعر بكفايته لما يحمل. والرجولة بين العرب تبتدئ فى العقد الثانى من سنى العمر، لا تمتد الطفولة والصبى بينهم امتدادهما فى المدن حيث ترى الرجل صبيا وقد جاوز العشرين وطالبا إلى أن يجاوز الثلاثين، وكهلا متصابيا يعد نفسه للزواج عند الأربعين. ومن أجل ذلك أمر رسول الله صلوات الله عليه أسامة ابن زيد على جيش وهو فى السابعة عشرة، وفتح محمد بن القاسم الثقفى الهند وهو فى هذه السن. قال بعض الشعراء:

إن المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لخمس عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددا من مولد

وقال آخر:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك فى أشغال

قلت لسعد: ماذا يسمى حزامك هذا؟ قال: مريرة. قلت: من قولهم: أمر الحبل، إذا أحكم فتله.

وكنا سألنا ونحن فى الدير عن دجاج لطعامنا، وكلفنا سعدا أن يفتش عن بعض الدجاج. وقابلنا طائفة من البدويات يقصدن الدير ابتغاء رزقهن من الخبز، ومال سعد إليهن، فسلم عليهن، و كلم إحداهن. وقال

أحد الجمالين : هذه أم سعد ، وســألت سعدا فجمجم ولم يجب ثم قال : عند امرأة دجاجة واحدة . قلت : ما عسى أن تغنى دجاجتك الواحدة يا سعد ؟ وحسبت أن سعدا استحى أن يقول إن التى حادثها أمه ؛ وإن الدجاجة دجاجته ، وأحس شيئا من الخجل أن يبيع لنا دجاجة ، وكذلك قال صاحب الجمل حينما سألته : لماذا لا يقول ســـعد إن المرأة أمه .

وعرف سعد من سؤالى عن ضروب النبات أنى معنى بها فوجد له عملا يبرّر مصاحبته إيانا ، ويجعل له يدا عندنا ، فكان لا يمر بنبات إلا سماه ، وقلع أو قطع فرعاً منه ، وناولنى إياه فأضعه فى الخرج .

ناولنى شجرة من الشيح ، فسألته عن القيصوم ، وكنت رأيته بالبادية على مقربة من البصرة ، فأسرع بعد قليل إلى نبتة وقال : هـذه قيصومة وناولنى منها ، وهى تشبه الشيح ، وتمتاز عنه بلون زهرها ، ولا يدرك الفرق بينهما إلا النباتى أو البدوى المرن على تمييز ضروب النبات ، وإن تشابهت . ثم مررنا بنبات صغير لاطئ بالأرض له عصارة لزجة ، فقال : وهذه لبيدة . ورأى شجرة من الشوك كبيرة فقال : هذه سلة ، وما أكثر السلة فى سيناء ، ثم سمى من ضروب النبات التى مررنا عليها : الوراقة ، وهى نبت قليل الشوك ، تأكله الإبل ؛ والكباث ؛ وهو يشبه السلة إلا أنه أضعف شوكا ، وكان هديان إذا مر بكباثة أبى إلا أن يميل إليها لينال منها . والكباث فى معاجم اللغة : ثمر الأراك ، وهو غير هذا . ومما رأينا :

النعمان والحزماع ، وهو شجيرة كالعصا لها فروع قصيرة . وقد رأيت منها واحدة يابسة فأشرت إلى سعد فجرى إليها وحاول خلعها فاستعصت عليه ، فناديته أن اتركها ، فأبى ، وما زال يقوم بها ويقعد حتى أتى بها . وأرانى سعد النعمان ، وأصابع العجوز ، والمرورة ، والبركان ، والدهمى ، وكلها نبت ضعيف صغير .

وكنت أمتحن سعدا فأسأله عن النبات الواحد مرة بعد أخرى فأعرف أنه ينطق عن معرفة . ومما رأينا : الزعتر ، وهو نبات طيب الرائحة معروف فى مصر . والعثيران ، قال سعد : وهو نبات الحمير ، وهو نبات صغير، له فروع وورق دقيق ورائحة طيبة ، والهنيدة ، والجعدة ، والشكاع الخ .

وقصارى القول أنه ليس فى البرية نبتة صغيرة أو كبيرة إلا يعرفها الأعراب باسمها ووصفها وخصائصها .

ولقينا فى وادى الشيخ أعرابيتين معهما قربتان صغيرتان ، فكلمهما جبلى وكان يعرفهما ، وسألته : أين الماء ؟ فقال : هنا ، وأشار إلى سفح الجبل ، فنزلنا وصعدنا بين صخور عظام ، حتى بلغنا فجوة بين الصخور ، فيها ماء بارد ، فجلست الأعرابيتان تملآن قربتيهما .

والأعرابيات فى سيناء يلبسن ملابس ضافية ، حواشيها مطرزة ، ملونة ، وهى من نسيج أيديهن ، ويلبسن براقع محلاة بقطع كثيرة من المعدن ، ويحلين صدورهن بخرز كثير ، فلا يبدو من المرأة إلا عيناها . وقد استأذنا المرأتين أن نصورهما ، فقالت إحداهما ضاحكة : بالفلوس ؟ قلنا : أجل .



بدويتان فى وادى الشيخ

ثم بلغنا الشيخ صالح بعد ساعتين . حجرة صغيرة مضلعة ، عليها قبة ساذجة ، وفيها قبر يقول الأعراب : إنه النبى صالح ، وأكبر الظن

أنه رجل من الصالحين اسمه صالح ، وللشيخ صالح موسم يأتى البدو إليه فيبيتون و ينحرون و يذبحون و يلهون .

وقد أمر الملك فؤاد رحمه الله بصنع كسوة لضريح صالح ، وهى مودعة فى دير سنت كترينا كما ذكرت قبلا .

لم نلبث كثيراً عند الشيخ صالح فرجعنا أدراجنا ، وقد عرّج سعد إلى اليسار فغاب قليلا ، ثم رجع وفى يده دجاجة . قلت : يا سعد ، أصررت على الإتيان بدجاجتك ؟ قال : ليست دجاجتى . قلت : ولكنها واحدة ، ولا تغنى شيئا ؟ قال : ما وجدت غيرها . قلت : فلم جئت بها ؟ ثم سار سعد والدجاجة ، حتى وقفنا وقفة فأفلتت منه . فقلت : لا يظفر بها ، فما لبث أن جاء بها فوضعها فى كيس خلف ظهره ، فلم نسمع لها حسّاً ، حتى بلغنا الدير . قلت : يا سعد ، لم يجد الطباخ دجاجا ، ونحن أكثر من عشرين فماذا نفعل بهذه الدجاجة ؟ فوجم ... قلت : ارجع بدجاجتك وخذ هذه القروش ، ففرح وزدناه بعض الخبز .

خرجنا من الدير صباح يوم الجمعة فألفينا صبية بأيديهم أشياء يقدمونها إلينا ؛ ناولنى سعد نباتاً قائلا : هذه هنيدة . قلت : لم تزدنى على الأمس شيئا . وقدم إلىّ صالح عصا من الورد البرى كثيرة الشوك فأخذتها ذكرى ، ثم زرعتها في حديقتى بعد أيام فأورقت . وقدم الصبية الآخرون

أفماما للسجاير من هذا الورد لا يحسن الإنسان إمساكها لكثرة شوكها .

ثم أزت السيارات فسارت والساعة ثمان ونصف ، فرجعنا أدراجنا في الأودية التي ذكرتها آنفاً .

ونزلنا في دير فاران الذي وصفته من قبل ، ثم استأنفنا المسير في وادي فاران . و بعد ساعة من دير فاران توقفنا قليلا فأبصرت صبيا يرعى غنماً فقصدت قصده وقلت : ما اسمك يا ولد ؟ قال : اسمي ولد — وكأنه لم يعجبه هذا الخطاب — قلت: اسمك محمد؟ قال: ربيع. قلت: أتبيعنا خروفاً من غنمك؟ قال : لا . ثم سألته : عن ضروب العشب ، قلت : ما هذا ؟ وأشرت إلى نبات ضعيف يشبه البصل . قال : بروق ، أقول : البروق معروف في كتب اللغة والأدب والنبات . وتقول العرب : هو أشكر من بروق ، لأن البروق يعيش بأدنى ندى يقع على الأرض . وقالوا : أضعف من بروقة . قال جرير :

كأن سيوف التيم عيدان بروق   إذا نضيت عنها لحرب جفونها

ثم سألت ربيعا عن نبات آخر ، قال : هو الرمث قلت : قد رأيت الرمث في العراق وهو أكبر من هذا ، فهل يطول الرمث أكثر مما أرى؟ قال : لا ، قلت : إن رمثك هذا عجيب . وتذكرت قول أبي الطيب في قصيدة ابن العميد يصف ناقته :

تركت دخان الرمث فى أوطانها   طلبا لقوم يوقدون العنبرا

ثم سألت ربيعا عن نبات تنبسط فروعه على الأرض فقال : سفيراً . فأعدت السؤال ، فقال: سفيرا عزيزة فعجبت أن تكون « السفيرا عزيزة » اسم نبت فى الصحراء ، ثم سألت أعرابيا من بعد فقال : نعم يسمى بهذا الاسم — ولم أعرف كيف سمى به — وبعد مسيرة نصف ساعة توقفنا للغداء ، عند جبل يسمى جبل الزمرد ، ولكننا لم نهتد إلى الزمرد فيه ، ويقال : إن به حجارة زرقاء ، وإن الزمرد يكون فى حجارته .

وقد حدثت أعرابيا هناك ، وسألته عن نبات ضعيف ، له ظهر بنفسجى فقال : هو اليهك ينبت بعد المطر .

ثم سألته عن نبات له ثمر مستدير ذو شوك . فقال: السعدان . قلت: أهذا هو السعدان الذى ملأ صيته كتب الأدب ، والذى ضرب المثل بجودته فقيل : مرعى ولا كالسعدان ، ويضرب المثل بشوكه : حسك السعدان ، ولكن السعدانة التى رأيتها كانت خضراء لم يمتد شوكها ويبيس .

وأبلغنا السير أبا زنيمة عشيا ، وأصبحنا إلى السويس فالقاهرة .

فألقت عصاها واستقر بها النوى . كما قر عينا بالإياب المسافر

فى المسجد الأقصى

شهدت صلاة العشاء فى المسجد الأقصى فى رمضان ، فلا أنسى ما يستقبل الداخل من روعة التكبير ينبعث من جانب المحراب بعيداً ، كأنما ينبعث من عالم الغيب . وما أنسى القناديل الخافقة فى أرجاء المسجد كأنما ترعد عن جلال التكبير ، و يأتلف تسبيح المصلين ، وخفقات الضوء كأنما تتآلف موسيقى من الأنغام والأشعة .

وخرجت أمشى فى الساحة الفسيحة الجليلة ، والرحاب الواسعة فى صحن الصخرة وحوله ، وأشهد الأسوار و الأبنية تحدث أخبارها ، والفكر طيار بين الماضى والحاضر ، والبصر حائر فى هذه المشاهد المهيبة ، والقمر يرسل أشعته تترقرق على قبة الصخرة الجميلة ، وتنساب بين الجدران والأشجار، والظلال تفصل الضوء فتكتب سطراً من الجمال رائعا، أو تخط آية من آيات السجدة فى هذا الحرم العظيم يقرؤها كل ذى قلب فتسجد جبهته ، أو يسجد قلبه .

تركت الحرم وملء نفسى هذا الجمال والجلال ، وملء قلبى ذكر وعبر.

ولما خرجت من باب العمود تأملت سور المدينة ، وقد علا البدر وراءه ، فتخللت شرفاته الأشعة ، وبدت كأنها فلول سيف قارع الحادثات طويلا ، وأبلى فى الخطوب دهورا .

عدت إلى المسجد مرة أخرى ، يتلفت طرفى وقلبى ، وأتأمل هذه المشاهد مرة بعد أخرى كما يحرص القارئ على حفظ آية تروعه ، أو بيت من الشعر يعجبه ، ثم جلست فى رفقة كرام خارج باب العمود أتأمل السور الضيق ، والقمر من ورائه مرة أخرى .

قلت : لا بد من زيارة فى ضوء النهار ، يحيط فيها البصر والفكر بهذه الساحة العظيمة وما يتقسمها من أبنية ؛ فكم دخلت إلى هذا المكان فما استوعبه فكرى ، ولا أحاط بأرجائه نظرى .

ثم واعدت الأستاذ عبد الله المخلص ، وهو من أعلم الناس بالحرم ماضيه وحاضره، واعدته أن نلتقى بعد صلاة الجمعة فى معتكف السيد المجددى وزير الأفغان من الحجرات فى صحن الصخرة .

هذا هو يوم الجمعة لست بقين من رمضان عام اثنين وستين وثلاثمائة وألف وقد اقترب الظهر وأنا منحدر فى شارع باب العمود ، أحمد الإسراع الذى يدفع إليه الانحدار . دخلت من باب العمود إلى الطريق المدرج ذى الدرجات الواسعة الوطيئة التى تهبط أو تصعد بالسابل يكاد لا يحس الانحدار

والصعود ، ومررت بهـذه العقود الحانية على طريق التاريخ إلى البيت المقدس تحمل الأبنية العالية كأنها عقود السفين تنوء بما تحمل من أحداث وذكر ، والسابلة ميممة شطر المسجد يهتدى بسيرها من لا يهتدى طريقه.

شهدت فى الحرم جمعة قبل هذه فإذا عيد إسلامى يشترك فيه الرجال والنساء والأطفال ؛ الآباء والأمهات فى صلاة ، والأطفال فى رحاب الحرم يمرحون ؛ ولـكن اليوم يوم الجمعة اليتيمة وقد حرص على شهودها فى المسجد الأقصى كثير من أهل بيت المقدس والبلاد القريبة ، وهذه الوفود تتوالى فى أزياء المـدن والقرى ، وقد تقسمت المصلين مصليات كثيرة فى فناء الحرم رضى بها من أشفق من الزحام فى المسجد الأقصى وقبة الصخرة . وسرت فرحان خاشعاً أتحرى طريقى إلى حجرة السيد المجددى ، فلما بلغت الحجرة أدركنى عند بابها صديق عظيم ، لا يغيب وجهه عن مشهد من مشاهد الخير (١) قلت : السيد ليس ههنا الآن ، نعود بعـد الصلاة ، وأحسب المسجد مكتظا فهلم إلى الصخرة . قال نصلى هنا فى جماعة من هذه الجماعات . فجلسنا وطرفى مقسم بين الجماعات التي تؤم مواضع الصلاة، والجماعات التى تبوأت أماكنها فى هذا المحشر .

استقرت بالمصلين المجالس زرافات لا يرى بينها إمام ، وخيل إلى

(١) هو أحمد حلمى باشا رئيس بنك الأمة العربية .

أنها جماعات المسجد الحرام تتجه وجهات مختلفة ، ولكنها كلها إلى الكعبة .

وكبر إمام المسجد فتوالى التكبير بعيدا ، فانتفضت هذه الجماعات قياما ، وأحكمت صفوفها ، وتوالى تكبيرها . ما أعظم هذا مشهداً جميلاً رائعا ! وقفت أتلفت إلى الجماعات المتفرقة فى أرجاء المسجد ثم أحرمت فلم يمنعنى خشوع الصلاة من أن أجيل الطرف أمامى : هذه قبة المسجد الأقصى وأبنية أخرى تتخللها أشجار باسقات ، وأمامى على بعد جماعة من النساء اصطففن عند حجرتين عليهما قبتان ، وإلى اليسار جماعة أخرى من النساء وقفن مع عمد جميلة تعلو بئرا من آبار الحرم ، وبعدها ذات اليسار جماعة أخرى عند العقود المشرفة على الدرج المؤدى من باب القبة القبلى إلى باب المسجد الكبير ، وبعدها جماعة من الرجال . ورأيت قبل الإحرام جماعة ذات اليمين فى الفناء الأدنى ، وأخرى خلفنا فوق صحن الصخرة المرتفع ، فما زلت أراها بقلبى مع هذه الجماعات التى يدركها البصر أمامى .

قلت لنفسى : إنك فى شغل عن الصلاة بهذه المشاهد .

قالت : إنى أشغل عن صلاة بصلاة ، وأخرج من صلاتى المفردة إلى صلاة الجماعة .

ودوّى التكبير بعيداً فركعت هذه الجماعات ، وكدت أعجب لماذا لا تركع هذه الأشجار القائمة ، وقد ركعت الصفوف حولها ، وذكرت الآية :

« ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات ومن فى الأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ! ؟ »

صلينا ركعتين هما عندى سجدة واحدة متصلة ، فلما سلمنا قلت للصاحب الكريم : ائذن لى لأشهد الجمع خارجا من المسجد وأعود ، وسارعت أتخلل الجموع المنتشرة بعد الصلاة ، والصفوف المسجة الجالسة التى لم ينتثر نظامها ، وهبطت الدرج مسرعا لأشهد السيل المتدفق من باب المسجد الأقصى ، وأتفرس الوجوه الخاشعة الفرحة ، وأتأمل الأطفال حول آبائهم وأمهاتهم ، وأرى هذا العيد العظيم فى هذا الحرم المبارك وأسارير وجهى تنبسط ابتساما ، وتنقبض هيبة .

وقفت على شاطئ هذا السيل البشرى حينا ثم رجعت أدراجى إلى صاحبى الكريم فى مصلاه ، ودخلنا الحجرة التى تواعدنا اللقاء بها فرأيت على بعد خطيب المسجد الأقصى يمر إلى حجرته وهو فى حلة خضراء وعمامة صلاحية ، وهو زى يتوارثه خطباء المسجد الأقصى من عهد صلاح الدين ؛ وهم من بنى جماعة الـكنانين ، توارثوا هذا المنصب منذ القرن السادس إلى يومنا هذا ، وإنه لشرف عظيم .

كانت خطابة الجوامع الكبيرة منصبا مشرفا فى تاريخ المسلمين ، وكثير من علمائنا يلقبون بالخطيب ، وكانت هذه المناصب متوارثة ، يخلف فيها

الأبناء الآباء ، وتحرص الأسر على شرفها ؛ كما كانت فى تاريخنا بيوت تعرف بالقضاء ، وأخرى بالفقة ؛ وهكذا .

ذهبت إلى حجرة الخطيب فزرته ، وشرفت بمجالسته قليلا ؛ ثم رجعت إلى حجرة الموعد ، ووافانا فى موعدنا من الزمان والمكان الأستاذ المخلص ، فسرنا نطوف فى أرجاء الحرم .

وبدأنا بقبة الصخرة ننظر ما كستها الصناعة والتاريخ من حلى أحدثها الرخام المجزع الذى فرغ منه المهندسون المصريون منذ سنوات قليلة . ولست أستطيع أن أحدث عن تاريخ هذه القبة العظيمة منذ شادها عبد الملك بن مروان إلى عصرنا هذا ، ولا أن أصف هندستها وجمالها وحلاها وأبهتها ، فقد ضمنت هذا كتب وصور كثيرة ، وحسبى أن المقدسى يقول فيها بعد وصفها : « فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت ؛ ورئيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ، ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة » . وكذلك أقول ؛ ما رأيت فيما رأيت من عجائب الأبنية فى البلاد الإسلامية أجمل من قبة الصخرة ، ويستطيع القارئ أن يرى مثالا ضئيلا منها فى القبة التى على ضريح السلطان قلاوون فى القاهرة .

ومن عجيب ما رأيت على جدران القبة من الخارج حجة وقف

للسلطان برسباى وقف فيها بعض القرى على عمارة بعض الأبنية فى الحرم ولقد سجل وقفه فى أطهر الصحف وأبقاها .

و بجانب القبة قبة صغيرة ثمينة على مثالها غير أنها لا يحوط أعمدتها جدار ، وقد قيل : إن عبد الملك طلب أن يبنى مثال للقبة قبل أن يشرع فى هذا البناء الرائع العظيم النفقة ؛ فبنى له هذا المثال فأعجبه؛ وبنيت القبة الـكبرى على صورته . وقيل : بل بنيت القبة الصغيرة من بعد .

وهذه القبة الصغيرة مصلى ؛ رأيت النساء يصلين فيه يوم الجمعة . وعلى صحن الصخرة وهو الدكة العالية الواسعة التي تتوسط سـاحة الحرم الفسيحة قبة أخرى صغيرة جميلة ؛ تحتها قبة صغيرة تسمى « قبة المعراج » وهناك حجرات أخرى متفرقة فى أطراف الصحن .

هبطنا إلى الساحة المحيطة بصحن القبة على أحـد السلالم المحيطة به ؛ ولهذه الدكة تسع سلالم ذوات درج طويل على كل منها عمد تنتظمه عقود فوقه ؛ ومشينا ذات اليمين نساير السور الغربى من أسوار الحرم ؛ وقد توالت بجانبه أبنية تنميها عصور مختلفة ؛ وتخلد عليها ذكرى كثير من سلاطين المسلمين . وحول أسـوار الحرم من الداخل والخارج أبنية كثيرة كانت مدارس عمرت بالأستاذين والطلاب زمنـــــا طويلا ، ودرت على المعلمين والمتعلمين بها خيرات كثيرة ، وما أحراها اليوم مأوى لعلمـاء من

المسلمين يؤمونها من أقطار الأرض فيتداولون الإقامة بها والتدريس بالحرم حيناً ! ما أجدر هذا التاريخ بأن يحفظ ؛ وما أخلق هذه الذكريات بأن توعى ! وكم اتصلت بهذه المدارس من تواريخ العلماء والأدباء .

رأينا فيما رأينا هناك المدرسة الأشرفية التى شادها السلطان الصالح المعمر الذى تشهد له اليوم آثاره فى بيت المقدس ومكة والمدينة ومواضع كثيرة فى القاهرة — ذلكم السلطان أبو النصر قايتباى رحمه الله . وقد عجبت إذ قرأت فيما قرأت من ألقاب السلطان المنقوشة على البناء لقب (الإمام الأعظم) ؛ وما عرفته قبل اليوم لأحد من السلاطين .

وقد صعدنا منارة المدرسة على قدمها ، ونيل الأعصار منها ، فأشرفنا على مرآى جليل من الجبال والأبنية القديمة والحديثة ، وكأنما أشرفنا على عصور من التاريخ . وعلى مقربة من المدرسة سبيل جميل للأشرف برسباى من سلاطين المماليك ، وقد جدده السلطان قايتباى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، ثم السلطان عبد الحميد العثمانى ، وقد سمى فى الكتابة التى على السبيل بالخليفة الأعظم . وفى ساحة الحرم كثير من السبل والآبار الجميلة .

وانتهى بنا السير مع هذه الآثار والذكر إلى التكية البخارية وهى

التي اتخذت متحفاً إسلاميا ؛ بعد أن ضم إليها قسم من مسجد النساء الذى يأتى ذكره .

صفت فى مدخل المتحف ، و بداخل التكية رؤوس من العمد القديمة التى كانت بالمسجد الأقصى ونقوش وحِلى وكتابة من آثار العصور الماضية ، وفى البهو الواسع الذى اقتطع من المسجد آثار قليلة جليلة صغيرة فى العين ، كبيرة فى القلب ، هى كسلاح البطل المجاهد ، عدة قليلة تحدث أخبارا طويلة ، وسيوف ورماح ، هى عنوان لتاريخ من الكفاح ،

رأينا فيما رأينا المصحف الذى كتبه بخطه السلطان عبدالحق من سلاطين بنى مرين بالمغرب [1] ، وقد كتب هذا السلطان التقى بيده ثلاثة مصاحف أهداها إلى المساجد الثلاثة فى مكة والمدينة و بيت المقدس .

ورأينا فى المتحف سيف « الشيخ شامل » المجاهد الذى أبلى أحسن البلاء فى الدفاع عن البلاد الإسلامية فى القوقاز . كما رأينا على الجدار عباءة بها خروق ، فأما العباءة فعباءة البطل المقدام ، والعربى الحر الأبى « سلطان باشا الأطرش » ، وأما الخروق فآثار الرصاص من دبابة فرنسية

---

(١) كتب على هذا المصحف أنه كتب سنة ٧٣٤ . وهذا التاريخ لا يوافق عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن هذا يوافق عهد السلطان أبى الحسن من بنى مرين ، فينبغى أن ينظر فى هذا التاريخ .

هجم عليها هذا الأسد فى إحدى ثوراته، فليت شعرى أى حلة أشرف من هذه العباءة ، وأى وسام أجل من هذه الثقوب ! لقد أحسن الذين حفظوا سيف (شامل) وعباءة (الأطرش) فى المتحف الإسلامى من المسجد الأقصى ، وإنهما لعبرة . ورأينا بعد مصابيح من آثار الأيوبيين ، وقدورا عظيمة من آثار العثمانيين ، ونفائس أخرى لا يتسع لذكرها هذا المقام .

ثم اطلعنا على دفتر الزيارة فرأينا توقيعات كثير من الزوار بينها خط الملك فيصل رحمه الله ،وقد كتب هذه الآية الكريمة :

إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله »

وقد رأينا الآية نفسها مكتوبة على باب السكينة من آثار السلطان قايتباى .

لبثت فى المتحف الإسلامى حتى سمعنا النداء فخرجنا لنشهد صلاة العصر فى المسجد ؛ فلما قضيت الصلاة طوفنا فى المسجد فرأيناه فى جلاله ورونقه ، وقد تمت عمارته هذا العام بعد أن لبث عليه الترميم والبناء سنين . دعم أحد المهندسين الترك القبة العظيمة التى أمام المحراب ، ثم تولى المهندسون المصريون (١) تجديد معظم الأروقة ، وأقيمت عمد جميلة من

(١) المرحوم محمود باشا أحمد مدير الآثار الإسلامية وخليفة المهندس البارع محمد حلمى عبد الفتاح .

الرخام مقام العمد القديمة المبنية ؛ وقد حُدِّثت أن المهندسين عجبوا كيف احتملت هذه العمد المبنية هذا السقف الثقيل وما عليه من طين وتراب قدر وزنهما تقديراً هائلا .

والمسجد اليوم سبعة أروقة تمتد مع طوله من الشمال إلى القبلة ، أوسطها الرواق الأعلى الذى ينتهى إلى قبة المحراب العالية الرائعة .

وكان طول المسجد — فيما سمعت — من الشرق إلى الغرب ، وكان امتداده من القبلة إلى الشمال أقل مما هو اليوم ، وإذا أدخلنا فى مساحة المسجد مصلى النساء ومسجد عمر كان طوله كما كان من قبل ، ممتدا بين الشرق والغرب .

والمسجد يشبه جامع بنى أمية العظيم الذى فى دمشق ، ولكن جامع دمشق أضخم بناء ، وأعلى عمداً ؛ وأحكم صنعة ، وعرض مصلاه قليل وطوله مفرط . ورحم الله بنى أمية لقد بقى على الدهر بناؤهم ، وثبتت على رجفات الزمان آثارهم ، فما تزال دمشق وبيت المقدس وقرطبة تشهد لهم بما شادوا وما عمروا . وما يفخر المسلمون والعرب اليوم بعمارة هى أقدم وأضخم مما شاد بنو أمية ، وقد قلت فى جامع دمشق .

رأيت فيه خلال القوم ماثلة   وللبناء من البانين أقدار

ورحم الله شوقي الذى يقول :

لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت ببنى العباس بغداد

و يقول :

بنو أمية للأبناء ما فتحوا   وللأحاديث ماسادواومادانوا

ووقفت عند المنبر الجميل الذى دق صنعه ، وجمل شكله . وأخرجه صانعان من حلب طُرفة من الصناعة ليس فيها مسمار ، ولكن دقائق من الخشب متماسكة ومتعاشقة ، وقرأنا عليه اسم الملك الصالح نور الدين محمود و ابنه .

وقد حدث التاريخ ! أن هذا المنبر صنع والمسجد فى أيدى الصليبيين ليوضع فيه بعد الفتح. وما كان الفتح ليستعصى على هذه العزيمة وهذا الإيمان ؛ ثم وضعه فى موضعه الذى هو فيه اليوم الملك الناصر صلاح الدين .

قال الإخوان : إصعد فتأمل أعلى المنبر ، فصعدت وكأنما احتشدت أمامى الجموع التى شهدتها هنا القرون ، والحادثات التى داولتها العصور .

قلت : ما أخطب هذا المقام ، وما أخطب هذا المنبر !

قال أحد الرفاق : وإنك لجدير به .

قلت : يوم نظفر بما نبغى لهذا المسجد وأهله من سلام وعزة ، يوم تكون أقدامنا جديرة بمكانها من هذا المنبر ، منبر التاريخ .

وإلى جانب المسجد من جهة القبلة مصلّيان متصلان به ، يمتدان مع جدار القبلة إلى الشرق والغرب ، ولا يتسعان إلى الشمال ، بل عرضهما يقارب عرض رواق واحد من المسجد ، وهما يبدوان كأنهما جناحان لهذا المسجد المبارك الذى يصعد بالأرواح كل حين ؛ فالذى إلى يمين المصلى مسجد النساء (وقد اقتطع قسم منه المتحف الإسلامى) ، ويصلى فيه النساء كل يوم ، وقل أن يخلو المسجد الأقصى من مصليات قانتات يذهبن جماعات إلى الصلاة ، ومعهن أطفالهن أحياناً ، وهى سنة إسلامية حميدة شهدتها فى جوامع الشام واسطنبول أيضاً .

وأما المصلى المبارك الذى إلى يسار القبله شرقى المسجد فيحمل الاسم العظيم والذكرى الخالدة ، اسم أمير المؤمنين عمر فاتح بيت المقدس رضى الله عنه وأرضاه ، ويقال إنه المصلى الذى أمر عمر باتخاذه حينما دخل المسجد الأقصى ، ورفع عنه الرجس والهوان اللذين جثما عليه عصوراً ؛ وجعله مسجداً طهورا .

والذى أدركته من كتب التاريخ أن المساحة الفسيحة التى نسميها الحرم كانت كلها تسمى المسجد الأقصى ؛ ولكن هذا الاسم يخص اليوم أحياناً بالمسجد الذى وصفت .

قال ياقوت : وأما « الأقصى » فهو فى طرفها الشرقى (يعنى طرف المدينة) نحو القبلة ، أساسه من عمل داود عليه السلام . وهو طويل عريض ، وطوله أكثر من عرضه .

وفى نحو القبلة المصلى الذى يخطب فيه للجمعة ، وهو على غاية الحسن والإحكام ؛ مبنى على الأعمدة الرخام الملونة ، وليس فى الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق ولا غيره .

وقد نقل ياقوت عن المقدسى أن طول المسجد ألف ذراع ، وعرضه سبعمائة ، وأن فى سقوفه من الخشب أربعة آلاف خشبة ، وسبعمائة عمود رخام ، وكان له ستة وعشرون بابا الخ .،

ومن يقرأ ما ذكره المؤرخون عن هذا المسجد يعرف أن الذى نراه اليوم بقية الخطوب من هذا البناء العظيم الهائل ، وإنما ذكرت من هذه البقية ما لا يشق على القارئ إدراكه مما أدركت العين فى زيارة سريعة غير مستوعبة ؛ ولا مدققة .

ثم انصرف الرفاق مشكورين ، ولبثت فى المسجدفذهبت إلى الجانب الشرقى ؛ فأشرفت من صحن الصخرة على ساحة واسعة بينه وبين السور الشرقى ، سور المسجد والمدينة القديمة نفسها ، وهى ساحة خربة ولكنها تصلح أن تكون بستاناً كبيراً ؛ أو حديقة واسعة ، أو مدرسة جامعة ؛ أو ما يشاء التفكير والإصلاح لخير المسلمين .

وضيفت الشمس للغروب فذهبت إلى حجرة الموعد معتكف الوزير التقى السيد المجددى للإفطار مع العاكفين ، وصلينا المغرب فى قبة الصخرة ؛ وعدنا فبسطت سفرة وضعت عليها ألوان من الأطعمة الشهية ، وأحاطت بالمائدة وجوه مشرقة تتجلى فيها الطهارة الإسلامية طهارة الجسد والروح والظاهر والباطن ، قعدت بين هؤلاء الإخوان البررة الذين صفت قلوبهم ووجوههم ، واجتمعوا على البر والأخوة فى هذه البقعة المطهرة ، فخلت هذه المائدة صفا للصلاة ، وهذا الأكل الشهى أسلوبا من العبادة ، وإن حظ الأجسام من هذا الغذاء ليس أعظم من حظ الأرواح وقد تمنيت أنى معتكف مع المعتكفين ، ووددت أن أظفر بهذه السكينة فى حجرة من هذه الحجرات رمضان من العام القابل .

قلت للإخوان مازحاً : إنكم لفى نعيم .

وقال السيد المجددى وهو يضىء الكهرباء : هذا اعتكاف آخر الزمان .

قلت : هذا اعتكاف إسلامى فيه الطمأنينة والعبادة والفكر ، وليس فيه الحرمان والإرهاق : (قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟!) .

وشربنا الشاى ، وتحدثنا قليلا ، فسمعنا النداء للعشاء ، فسرنا إلى قبة الصخرة ، فدخلنا وقلوبنا تخفق من هذه القناديل الخافقة ؛ وانتظمت الجماعة فى المصلى الخارجى ، وسمعت تسبيح النساء وراء السياج بالمصلى الذى تحت القبة ، فعرفت أن لهن جماعة من وراء هذا الحجاب ؛ وأقبلنا على صلاة العشاء والتراويح ؛ فلما قضيت الصلاة ، وسرت إلى الباب الشمالى رأيت جماعة أخرى يؤم بها السيد المجددى ، وقيل لى : إنها جماعة الحنفية يصلى بها السيد العمرى الأفغانى كل ليلة ، وما أجدره بالإمامة فى مدينة عمر .

استأذنت المعتكفين وخرجت كارها أود أن يطول لبثى فى هذه المشاهد على طول ما لبثت فيها ، خرجت وأنا أجيل الطرف فيما حولى لأثبت ذكراه فى نفسى ، وأود أن أسير سريعاً فى ظلمات الليل فأطوف مرة أخرى بهذه الساحة الفسيحة التى أمضيت فيها معظم النهار ؛ وشطراً من الليل ،

ذهبت إلى التكية البخارية ؛ فلبثت ساعة فى ضيافة شيخها الشيخ

يعقوب البخارى ، وما هذه التكايا والمساكن النظيفة الطاهرة المجملة والمزينة بالأوراق والأعلاق إلا مساجد صغيرة ؛ فقد عددت هذه الساعة من ساعات المسجد الأقصى أيضاً .

ومضت بنا السيارة إلى رام الله حيث الفندق الذى أنزل فيه ؛ ولا تزال هذه المشاهد فى عينى ؛ وملء فكرى ، تاريخ من المسجد ؛ وعصور من الخطوب ، وصفحات من الغير ؛ وملء قلبى آمال وآلام ، ذكر ناضرة يتخللها الألم كما تقدح النار من الشجر الأخضر — رجعت إلى مأواى وقد طويت العصور فى تلك الساعات ، والأحداث العظيمة فى تلك الآثار ، ثم طويت الساعات القليلة ، وتلك الآثار الجليلة فى فكرى وقلبى .

فى الرملة البيضاء

دعيت حينما حللت بيت المقدس إلى زيارة إخوان كرام فى ارملة و يافا ، وقد صادفت الدعوة شوقا من النفس وحنيناً ، ولبثت أرتقب الفرصة حتى حسبتها قد أفلتت . وبينما أنا بالمسجد الأقصى يوم الجمعة الذى حدثت عنه فيما سبق عن المسجد المبارك ، شكوت إلى الصديق الكريم الذى ذكرته قبلا وقلت إن وجهه لا يغيب عن مشهد من مشاهد الخير ، ما فاتنى من السرور بما أملت من زيارة إخوان كرام فى مواطن كريمة ، وقلت ضاق الوقت فالرحيل بعد غد . قال : وما عليك إذا زرت المدينتين غداً وركبت الطائرة بعد غد من اللد دون الرجوع الى بيت المقدس ؟ إن فى الوقت سعة لإدراك بغيتك ، وتأدية واجبك ، ونذهب معاً إن شاء الله .

فارقنا بيت المقدس ظهر السبت الخامس والعشرين من رمضان نؤم الرملة ، وسارت السيارة فى أودية فلسطين وشعابها، وأفضنا نحن فى شعاب من الحديث وأودية نفصلها على ما نرى من مشاهد جميلة ، وما نمر عليه من زروع وأشجار وجبال وقرى ، وما يوحى به أولئك من ذكر وعبر بين الماضى والحاضر حتى أوفينا على المدينة الكريمة .

نزلنا فى دار البنك ، بنك الأمة العربية . ولهذا البنك دور فى أمهات مدن فلسطين ، فسرنى ما رأيت من صور تاريخنا على الجدران ،

وما توسمت من صور جهادنا الحاضر فى أعمال البنك وحسابه . وكم فرّج هذا المصرف من كرب ، وكم محا من يأس ، وكم عصم من مال وأرض ، وكم جمع الكلمات المتفرقة ، وألف الأهواء الشتيتة . وإنّ رجاءنا فى مستقبله أعظم من اغتباطنا بماضيه ، وابتهاجنا بحاضره . وجزى الله خيراً كل من ساهم فى الذود عن هذه الأمة بعقل مدّبر ، أو يد عاملة ، أو لسان ناصح ، أو مال نافع .

ثم سار بنا الشوق والسرور الى دار الأخ الصديق المجاهد محمد يعقوب الغصين ، فنعمنا حيناً بالجلوس مع الأخ الكريم ، وجماعة من وجوه الرملة أتوا مسلّمين . نضَّر الله هذه الوجوه ورعاها . وكانت مطامعنا قد اتسعت لأن نزور المدينتين ، ونجيب الدعوتين ، ونقضى الغرضين فى يوم واحد . فلما لقينا الوجوه الكريمة ، وأفضنا في أفانين الحديث ، عرفنا أن ما بقى من إقامتنا فى فلسطين لا يتسع لأداء فرض واحد من فروض كثيرة تلزمنا بنزولنا الرملة ، فأقصرنا عن زيارة يافا آسفين آملين أن تيسر لنا فرصة نزور فيها يافا والرملة أيضاً .

وخرجت فى العشىّ فى صحبة الصديق الكريم أحمد حلمى باشا لنجول فى الرملة وما حولها على قدر ما تأذن لنا بقية نهار من رمضان . فذهبنا إلى أطلال مسجد كبير تدل رسومه و بقايا جدُره وأسطواناته ، ومكان المحراب من هذه البقايا ، أنه كان من أعظم الجوامع الإسلامية وأفسحها كجامع

بنى أمية فى دمشق ، وجامع المعتصم فى سامرا ، وجامع ابن طولون فى مصر أو أوسع . ولا يبنى مثل هذا الجامع إلا فى مدينة كبيرة عامرة وكذلك كانت الرملة البيضاء . فقد مصّرها سليمان بن عبدالملك وهو وال على فلسطين من قبل أخيه الوليد ، ثم عُنى بعمارتها بعد أن آلت إليه الخلافة ، ودعا الناس إلى البناء فيها فاتسعت وعظمت . وقد روى ياقوت أن سليمان أراد أن يخلد ذكره بمدينة الرملة ومسجدها كما خلد ذكر أبيه عبد الملك بقبة الصخرة ، وذكر أخيه الوليد بجامع دمشق . وحسب جامع الرملة أن يكون صنو جامع دمشق ، وبيت المقدس . وما هذه الأساطين والجدر إلا بقية العراك المديد بين الحادثات المدمّرة وهذا المسجد العظيم ، قامت كما يثبت المجاهدون الصابرون للخطوب الجسيمة ، والأرزاء العظيمة .

وقد تداولت الرملة أحداثُ الدهر أيام الحروب الصليبية حتى أنقذها من الفرنج السلطان صلاح الدين عام ثلاث وثمانين وخمسمائة ؛ ثم اضطر إلى أن يخربها بعد أربع سنين حذرا أن يستولى عليه الفرنج مرة أخرى . وناهيك بالمحن التى تضطر صلاحَ الدين إلى إخراب مثل هذه المدينة !.

وفى شمال ساحة الجامع منارة عظيمة عالية مربعة مبنية بالحجارة الضخمة المهندسة بناها الملك الناصر محمد بن قلاوون وكأنه أراد أن يجعلها مئذنة ومنارة أو مرقباً لمراقبة السفن القادمة إلى سواحل فلسطين . على المنارة كتابة واضحة فيها اسم الملك الناصر وألقابه ، وتاريخ بنائها سنة

ثمانى عشرة وسبعمائة . والمنارة قائمة وحدها مفردة ، كأنها رمز للتوحيد ثابت على مر الزمان ، أو علمَ للايمان القوى الذى لا يقهره تقلب الحِدْثان . كم شهدت هذه المنارة من الغيَر، ورأت من أحداث القدر ، وتاريخ البشر! وليت شعرى ماذا تروى من أخبار السلف ، وماذا تنقم من أفعال الخلف؟.

فارقت هذه الآثار قائلا : «رحم الله بنى أمية ، وهذا أيضاً من آثارهم،» منشداً فى هذه الآثار المخذولة ، وذاك الحمى المستباح قول كثيّر :

حموا منزل الأملاك من مرج راهط
ورملة لدّ أن تباح سهولها

ذاكراً الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى ما تزال آثاره فى مصر والشام شاهدة بمآثره ، ناطقة بمحامده

ثم جلنا ساعة فى الأودية القريبة من المدينة والمزارع والمشاجر الناضرة الفيحاء ، ومررنا بوادى حنين .

وعدنا إلى دار ضيافتنا للافطار وصلينا فى مصلّى فى الدار به ضريح يقال إنه ضريح أبى يزيد البسطامى الصوفى المعروف . وما عرفنا فى تاريخ أبى يزيد أنه جاء إلى الرملة ، بل قبره فى بسطام بلده معروف يقصده الزوار من الأرجاء ، ولا سيما الصوفية حتى اليوم ؛ ولعله ضريح بنى على ذكر أبى يزيد ، أو قبر صوفى آخر من البسطامية اتباع أبى يزيد غلبه على قبره صيت

شيخه . وقد قرأنا فى تاريخ الصوفية أن أول من عرف منهم باسم الصوفية رجل اسمه أبو هاشم اتخذ صومعة فى مدينة الرملة وتوفى سنة ١٥٠ . فهل هذا قبره ؟ لا يتسع المجال للبحث فى هذا الشأن .

وبعد العشاء ذهبنا إلى دار الشبان المسلمين فلقينا جمعاً من الشبان حاشداً وعلمنا أنهم لم يجتمعوا منذ سبع سنين ؛ فرطت عِقدهم ، وباعدت بينهم ، ومنعتهم الالتئام فى مثل هذا الجمع ، حوادث الحرب وما قبل الحرب من الثورة والجهاد ، وممارسة الخطوب الشداد . فما كان أعظم غبطتى وما كان أسعد جَدى أن كانت زورتى المدينة الكريمة مقرونة باجتماع الشمل ، وانتظام الجمع . تكلم صديقنا المجاهد محمد يعقوب الغصين وتكلم عدة من كرام الشبان فأفاضوا ما شاء أدبهم وكرمهم محيين المجاهد الكريم ، والزعيم الاقتصادى أحمد حلمى باشا والضيف المصرى الذى لا يرى نفسه فى فلسطين ضيفاً ، ولا يعدّ القاهرة أولى به من الرملة وتكلمت على وجوه يعرفها قلبى و إن لم تشهدها عينى مستمدا من تاريخنا ومآثرنا وأخلاقنا وعزائمنا ما يثبّتنا فى هذه المحن ، ويربط على قلوبنا فى هذه الفتن ، ويجمع الكلمة فى المصائب ، ويؤلف العزائم لهذه النوائب ، وألقيت إليهم من تاريخنا وأخلاقنا وأواصرنا مقاليد المستقبل الكريم ، الوضاء الذى يبتسم

فى أعقاب هذه الظلمات ، ويتنفس من وراء تلك الكُرُبات . ومن وراء كلامى ما يضيق عنه الكلام ، وتتلقفه عن الوجدان الأفهام . لقد كانت ساعة جليلة لا تزال تضيء فى جوانحى ، وتشتعل فى سرائرى .

أصبحت إلى مطار اللد فى صحبة إخوانى الكرام أذكر قول القائل :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

وأنشد قول أبى الطيب فى طريقه إلى مصر :

إذا السحاب زفته الريح مرتفعاً فلا عدا الرملة البيضاء من بلد

عرجنا على بنك الأمة العربية فى اللد فلبثنا حتى سرنا إلى المطار وسأقص قصته من بعد فى حديث عن الطيران من اللد إلى القاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الطبعة الثانية من « الرحلات الأولى » حالت أشغال وأسفار دون إخراجها من قبل حينما نفدت الطبعة الأولى .

وقد ألحق بهـذه الرحلات الأولى ثلاثة فصول من الرحلات الثانية هى « فى صحراء سينا » « وفى المسجد الأقصى » وفى « الرملة البيضاء »

والرحلات الأولى طليعة رحلات تالية لعل القارئ يجد فيها ما قصدت إليه من التعريف ببلاد تجاورنا وتواصلنا ، والتنبيه إلى رعاية ما بيننا و بينها من أواصر ووشائج أحكمها الله والتاريخ .

ولعل الرحلات الثانية تطلع على قراء العربية بعد قليل ، صلة للأولى وتكملة . وسيجد فيها القارئ أخبارا وأوصافا لبلاد لم أزرها قبلا ولمواضع أخرى فى البلاد التى زرتها وتحدثت عنها فى الرحلات الأولى .

والله أسأل أن يتابع التيسير والتوفيق فتطرد هذه الرحلات تعريفا بالبلاد الاسلامية والعربية ، ودعوة إلى تمكين الصلات بينها ، و بيانا لمـا يجمع بينها من عقائد ومذاهب وطرائق وآلام وآمال تمهيدا لتعاونها على كل خير لإسعاد نفسها و إسعاد البشر أجمعين .

عبد الوهاب عزام

غرة المحرم سنة ١٣٧٠ هـ — (١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٠ م)

فهــــرس